بين آدم وحواء

كتاب زكي مبارك المجهول

تحقيق ودراسة

محمد رضوان

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : **بين آدم وحواء .. كتاب زكي مبارك ا لمجهول**

تحقيق ودراسة : محمد رضوان

رقـــم الإيداع : 15238 /2018

الترقيم الدولي: 6-071-834-977-978

الطبعة الأولى 2018

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميـــدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة المؤلف

زكي مبارك... الأديب المظلوم

بقلم: محمد رضوان

ترك د. زكي مبارك (1891 – 1952) تراثاً أدبيًا ونقديًا ثريا تميز بالعمق والقيمة العلمية الرفيعة ، تراوح بين الأدب الذاتي وأدب التراجم والنقد الأدبي والتحقيق العلمي والأدبي ، بلغ أكثر من عشرين مجلدًا منها : « النثر الفني في القرن الرابع الهجري » و«التصوف الإسلامي» و«الموازنة بين الشعراء » و«الأخلاق عند الغزالي» و«البدائع » و«ليلي المريضة في العراق» و«الأسمار والأحاديث و«وعبقرية الشريف الرضي» و«العشاق الثلاثة» و«مدامع العشاق» وغيرها من روائع المؤلفات الأدبية والنقدية كما أسهم بنصيب موفور في التحقيق الأدبي والتاريخي لعدة مؤلفات من عيون التراث الأدبي العربي .

ولكن كانت هناك عشرات المقالات والدراسات التي نشرت في الصحف والمجلات الأدبية في الفترة ما بين عامي (1920و 1952) تملأ عدة مجلدات كان ينوي أنم يجمعها وينشرها في كتب . وأعلن عنها مثل : «أدب الشواطئ » و«أكواب الشهد والعلقم» و«الحديث ذو شجون» لكن لم يسعفه العمر تلك المؤلفات وغيرها وضاعت معظمها بين بطون الصحف والمجلات القديمة وإن كانت ابنته الوفية كريمة زكي مبارك قد جمعت بعض مقالاته المتناثرة ونشرتها في كتب خاصة كتابه «الحديث ذو شجون» وإن لم يشمل كل أحاديثه ذات الشجون .

ومنذ أصدرت كتابي « صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك » عام 1974

في كتاب الهلال بفضل تشجيع ومساندة الشاعر الكبير صالح جودت (1908-1976) وأنا دائب البحث عن تراثه المجهول المتناثر هنا وهناك على صفحات الجرائد والمجلات قبل أن تبلى الأوراق ويطويه النسيان .

وقد وفقني الله لجمع بعض آثاره المجهولة مثل كتاب «رسائل مجنون سعاد» الذي نشره على حلقات عام 1939 في مجلة الصباح القاهرية بتوقيع الدكتور بديع الزمان . وكتابه الثاني « بين آدم وحواء» الذي نشره في حلقات بمجلة الرسالة عام 1942 وقد آثر أن ينسب الكتابين لأسماء مجهولة لاعتبارات اجتماعية وعائلية .

وأذكر أنني عكفت على الجرائد والمجلات التي كان ينشر فيها زكي مبارك مقالاته مثل الهلال والرسالة والصباح والبلاغ ومسامرات الجيب وغيرها من سبعينيات القرن العشرين لأنقل تلك المقالات بقلمي على الورق في عشرات الصفحات حيث لم يكن التصوير الضوئي قد انتشر مثل الآن .

ويعلم الله كم أنفقت من وقتي وجهدي ومالي من أجل جمع تراث هذا الأديب المظلوم الذي أحببته وأكبرت فيه جهاده وعصاميته منذ قرأت مقالاته في مجلة الرسالة وأنا ما زلت طالبا في المرحلة الثانوية في ستينيات القرن العشرين بل قمت بعمل دراسة موسعة عنه عام 1965 تحت عنوان « عبقرية زكي مبارك» لم يقدر لها أن تنشر إلا في عام 1974 .

واليوم إذ أقدم في هذا المجلد بعض تراث زكي مبارك يتضمن ثلاثة كتب هي: « بين آدم وحواء – رسائل مجنون سعاد – رسائل الحب والجمال » . فإنما أقدم بعض تراثه الأدبي الرائع قبل أن تطويه يد النسيان والإهمال .

أقدم هذا الكتاب هدية لروح الدكاترة زكي مبارك وتقديرًا لكفاحه وعصاميته وتفرده وهو الذي حصل على ثلاث شهادات دكتوراة من جامعة القاهرة وجامعة

السربون بباريس وكان ينوي أن يحصل على الدكتوراه الرابعة من جامعة فؤاد «جامعة الإسكندرية» عام 1944 ولكن العمر لم يسعفه لإتمامها وتقديمها للكلية، ورغم ذلك ظلم هذا الرجل في عمله ورحل عن الحياة وهو على الدرجة الثالثة في وظيفته «كمفتش على المدارس الأجنبية» بوزارة المعارف «التربية والتعليم الآن».

لقد عاش زكي مبارك مظلوما ومات مظلوما فما أجدرنا بتكريم هذا الرجل بعد رحليه بعد أن عز تكريمه في حياته رغم عطائه وجهاده وعصاميته وعبقريته المتفردة .

***

وإذا كان زكي مبارك قد قدم رائعته القصصية «آدم وحواء» في عام 1942، فإن أدبه الوجداني كان قبل ذلك التاريخ وبعده يدور حول علاقة آدم وحواء والمصاولات العاطفية والفلسفية والأدبية التي تدور بينهما من خلال شخصية زكي مبارك نفسه الذي يمثل شخصية آدم وبنات حواء في القاهرة والإسكندرية ، والمنصورة، وبغداد وباريس ، وما دار بينه وبينهن من قصص الحب بكل أطواره وألوانه في حالات الفراق والوصال والبغض والحب والدلال والهجر واللقاء حيث كان زكي مبارك يرى أن سعادته في نعيم الحب لا تعادلها سعادة أخرى مهما عانى من متاعب وأهوال من ربات هواه .

ومن هنا جاء هذا التراث الأدبي الوجداني الذي أقدمه هنا حلقة من حلقات مغامرات زكي مبارك في دنيا الحب والغرام!

محمد رضوان

القاهرة مايو 2018

زكي مبارك .. عاشق الجمال

بقلم : صالح جودت (*)

رحم الله قلب زكي مبارك ..

كان قلبا كبيرًا ، يعيش للحب ، ولا يعرف الكراهية ..

كان إذا مر بقوم في الصباح ، لم يقل لهم ما يقوله سائر الناس : صباح الخير .. وإنما كان يقول : صباح الهوى ..

وكان إذا مر بقوم في المساء ، لم يقل لهم ما يقوله سائر الناس : مساء الخير ..وإنما كان يقول : مساء الهوى ..

وكان من خيرة الناس .. أولئك الذين لا يجعلون قلوبهم وسطا بل يتطرفون في عواطفهم ، إن حبا وإن حربا . .

على أنه كان إذا حارب ، حارب في الحق ، وعن إيمان ، وفي غير حقد وكان لا يخوض معركة أدبية إلا ليخرج منها منتصرًا ، وسلاحه في النصر : وفرة علمه ، وقوة ذاكرته ، ولطف أسلوبه ، وبراعته في السخرية ولهذا كان النقاد يخشون المساس به أو الدنو منه حتى لا يفترسهم بقلمه ..

أذكر مرة أن ناقدًا معروفًا أراد أن ينال منه ، فكتب مقالا يهاجمه ، ولم يوقع باسمه ، بل باسم مستعار ..

وعرفه زكي مبارك من أسلوبه ، وكتب في الرد عليه يقول له :

(*) صالح جودت (1908 – 1976) : شاعر وأديب وروائي وكاتب صحفي اصدر عدة كتب ودواوين شعرية منها : أساطير وحواديت – الهمشري – ناجي – بلابل من الشرق ومن دواوينه الشعرية : ليالي الهرم – حكاية قلب – أغنيات على النيل . الله والنيل والحب . تغنى كبار المطربين بقصائده وكلماته (كتب مقدمة كتابي الأول «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك » سنة 1974 .

« لقد عرفتك بلحن القول » ..

أي أنه عرفه من أخطائه اللغوية ..

وأشار إلى هذه الأخطاء وعددها ، فسكت الناقد ولم يملك أن يحري جوابا ..

***

عرفت زكي مبارك في وقت مبكر .. في مطالع عام 1932 ، عن طريق جمعية أبوللو التي أقامها يومئذ المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي لرفع شأن الشعر ونشر حركة التجديد فيه ، وقد جعل على رأسها أمير الشعراء أحمد شوقي ، وحشد حولها أعلام الشعر والأدب والنقد في ذلك العصر ، وفي طليعتهم الدكتور زكي مبارك ، كما حشد من حول هؤلاء شعراء الشباب المأمولين ، وكان فيهم على محمود طه وإبراهيم ناجي وم . ع . الهمشري وحسن كامل الصيرفي ومختار الوكيل وكاتب هذه السطور.

وازدادت معرفتي به عن طريق صديق لنا مشترك ، هو المرحوم الأستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلة «الصباح» .

كنت يومئذ طالبًا بكلية التجارة ، وكنت أكتب مقالا أسبوعيًا بمجلة الصباح وكان لكل من أصدقاء صاحب «الصباح» في ذلك الوقت صفحة أسبوعية أو شبه أسبوعية في مجلته ، وفي مقدمتهم الدكتور زكي مبارك ، والدكتور سعيد عبده صاحب المقالات المعروفة «خدعوك فقالوا» .. إلا أنه كان في ذلك العهد يكتب في الأدب لا في الطب ، ويمارس الزجل والمواليا والنقد .. وكنا في أماسينا نصحب صاحب «الصباح» إلى سهراته العامرة في المسارح والملاهي ، أو في بيته حيث يجتمع نجوم الفن وأعلام الصحافة . فنسمر ونتحدث ونستوحي حتى مطلع الفجر في أكثر أيام الأسبوع .

وكانت فتنة صاحبنا الدكتور زكي مبارك هي «ليلي» .. التي طالما سهر من أجلها ، وبكى من أجلها ، ونظم ونثر من أجلها .. وما كان اسمها ليلي .. وإنما هذا هو الاسم الذي اختاره لها .. كانت ليلاه نجمة من نجوم المسرح ، شده إليها أكثر

من عامل ، وأولها أنها بنت بلدته «سنتريس» وأنها مثقفة وذكية وقارئة للشعر وفيها جاذبية خاصة لا تتوفر لكثير من النساء ، وإن لم ينم مظهرها عن ذلك .

ولهذا افتتن بها أكثر من اسم من الأسماء الكبيرة في دنيا القلم يومئذ ، فتزوجت أول ما تزوجت ، علما من أعلام الصحافة وأصحاب المدارس الكبيرة في مجالها ثم أحبها شاعر من أكبر شعرائنا المعاصرين ، هو المرحوم الدكتور إبراهيم ناجي ، فأحبها حبا كبيرًا ، استلهم منه أروع أعماله ، قصيدة «الأطلال» .. التي تغنيها أم كلثوم وقد وجه إليها إهداء هذه الملحمة ، وكان إهداء مرا ، قال فيه: «إلى التي تركتها أطلال جسد ، وتركتني أطلال روح »(*) .

أما زكي مبارك، فقد كانت هي حبه الكبير الذي استمد منه مادة إلهامه طول عمره ، ولكني لا أحسب أنه كان حبها الكبير ، فقد أخذها عليه الإشفاق أكثر مما أخذها الحب .

على أن هذه السيدة ، إذا كانت عذبت قلب صاحبنا الدكتور زكي مبارك عذابا طويلا ، فإن هذا العذاب هو الذي ألهب قلبه وخياله ، وكان من وراء هذا اللهيب ، أن أضيفت إلى الأدب المعاصر كنوز كبيرة من شعر زكي مبارك ونثره وأحاديثه الطويلة عن مدامع العشاق .

***

على أن هذه السيدة لم تكن ظاهرة الاستلهام الوحيدة في حياة زكي مبارك وإن ظلت هي العامل العميق المحرك لشاعريته وهذه سمة نجدها في حياة كثير من الشعراء : يكون في حياتهم حب كبير ، ولا يمنعهم هذا استلهام الجمال حيث وجد ، ولكنهم يجدون في كل جمال جديد صورة غير محسوسة من المنبع الأصيل الذي

(*) هي الممثلة زوزو حمدي الحكيم (1912-2003) وقد تزوجت الكاتب الصحفي محمد التابعي (1896-1976) في العشرينيات ولم يستمر الزواج طويلاً وقد قيل أنها هي التي ألهمت ناجي قصيدته «الأطلال» وأن نازعتها الفنانة زوزو ماضي (1920-1996) في ذلك وأكدت أنها ملهمة قصيدة «الأطلال» ، وقد أنكرت كريمة زكي مبارك أن زوزو حمدي الحكيم هي حب زكي مبارك وإنما كانت مجرد معجبة بأدبه.

حرك أحاسيسهم أول ما تحركت ، لقد أحب ناجي مثلا ، في أول حياته ، حبا كبيرا ..

وكانت بطلة هذا الحب هي إحدى قريباتـه ، وهـي التـي رمـز إليهـا في أحـد دواوينه بحرفي : «ع . م »(*) .

وأحب بعدها عشرات النساء ، أكثرهن من بنات الفن ، ولكن المحرك الأول لكل هذه الغراميات هو أنه كان يرى في كل هؤلاء الجديدات ظلالا من حبه ، وإن اختلفت الوقائع والتفاصيل ..

وكذلك كان زكي مبارك ..

كان يهزه كل وجه مليح ، وكل روح عذبة ، وكل جمال جديـد ، ولكـن غانيـة سنتريس كانت هي المحرك الداخلي لكل ما نظم أو نثر في غرامياته الجديدة .

***

على أن الظاهرة الجديرة بأن يقف عندها القلم إجلالا لذكرى زكـي مبـارك ، أنه كان رحمه الله كبير النفس ، لم يبذل كبرياءه من أجل الحب ، كما لم يبذل كبريـاءه من أجل الرغيف .

لقد عاش زكي مبارك ، فقيرًا ، وقاسى كثيرا من الحرمان وهو في أوج مجده ، من أجل كبريائه .

لقد حارب كبراء ووزراء وأدباء أعلاما وأصحاب أسماء جهيرة ، من أجـل رأي آمن به ، أو معتقدًا دان به ، فحورب من أجل ذلك في رزقه ورزق أولاده لـو أنـه هـان على نفسه لاستطاع أن يظفر بالنعمة مقابل كلمة زلفـى يقولهـا أو يكتبهـا لواحـد مـن هؤلاء ولم يعوضه عن شيء مما فاته من مال أو منصب ، إلا أنه كان يعتبر عزة الـنفس أكبر ألوان الثراء ، وإلا أنه كان قليل المطالب في الحياة ، لا يهمـه مظهـره ولا هندامـه ولا مكان جلوسه .. لا يهمه إلا أن يجد نفسه بالقليل الذي معـه، في حانـة متواضـعة بميدان توفيق ، وأمامه كأس يغرق فيها همومه ولو كانت من أرخص الأنواع ، وحولـه

(*) المقصود بها «عنايات محمود الطوير».

آذان تستمع إليه وقلوب تحبه ولو كانت من عامة الناس .

وقد اندفع زكي مبارك إلى الكأس في أخريات أيامه بعنف ، لأنه رجل عصامي ، كافح كفاحًا بطوليا في سبيل أن يتعلم ويتفوق ، وكافح كفاحا بطوليا من أجل عقيدته الأدبية ، وأنشأ مدرسة أدبية لا شك في وجودها وكيانها ، ومع هذا ، فإنه لم ينل نصيبه من الدنيا ، ولم يلق من معاصريه القادرين على إنصافه إلا الجحود ، وهكذا راح يغرق همومه في الكأس ، ويذيب آلامه في سعيرها المحموم .

ومات زكي مبارك فلم يذكره أحد من معاصريه إلا بكلمات عابرة تذهب مع الريح . ولهذا أكبرت هذا العمل الذي بين يدي القارئ ، والذي شاء الأديب النابه محمد رضوان أن يضرب به مثلا في الوفاء أعده من أكرم الأمثلة لأنني لا أحسب أنه رأى زكي مبارك ولا عرفه عن قرب ، ولكنه عرفه عن حب هو أسمى أنواع الحب .. حب الكلمة الخالصة ، والروح الشفافة ، والأمانة للأدب والتاريخ .

وهكذا خرجت هذه الدراسة الموضوعية الواعية لحياة زكي مبارك ، جامعة لكل نواحيه كفلاح أصيل نشأ في عمق أحضان الريف المصري ، وشق طريقه بأظافره الصلدة حتى وصل إلى أعلى مستويات العلم في الأزهر ، ثم في الجامعة المصرية ، ثم في باريس ، وجاهد من أجل العلم والدين والعروبة في مرابع القاهرة ، ومراتع بغداد وملأ الدنيا بصيحة القومية العربية وكشف عن كنز مجهول من كنوز التراث العربي في كتابه : « النثر الفني في القرن الرابع الهجري» .

***

وبعد ، فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ ، تتعادل فيه روح الوفاء مع روح البحث ، وتتجمعان كطاقة من الزهور يضعها الأديب الناقد محمد رضوان على قبر زكي مبارك . فتنشر عبيرها في صدور الأجيال القادمة .

صالح جودت

القاهرة – 1974

مأساة زكي مبارك... الفنان والإنسان ! (*)

بقلم : أنيس منصور (**)

أنا أشعر بالعطف الشديد على كاتبنا الكبير زكي مبارك . فهو مفكر من نوع خاص ، وهو شديد الحساسية وله مواقف كثيرة تقليدية . ولم يكن حريصا على أن يكون في الطابور . فمتعته هي أن يخرج على الإجماع . أي يقف بعيدًا عن الناس ويسخر من الجميع ولكنه في جميع الأحيان له اجتهاد . بعض هذه الآراء تصدمك . وبعضها مثل لسان طويل يلعب به في أكثر المواقف جدية. أنه على كل حال فقيه وفنان وأستاذ ومزاج خاص .

وقد أمتعني كتاب (صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك) للأديب محمد محمود رضوان فالمؤلف قد أعجب هو أيضًا بزكي مبارك ، ثم تابعه برفق ورافقه بحرص شديد على أن يقدم لنا صورته شفافة وأحيانا عارية . فقد عاش في القرية وتزوج بها وخرج منها وسافر إلى أوروبا وعاد ممزق النفس حائرا بين الذي تعلمه وبين الذي يرفضه الناس . واختار حريته ومزاجه الخاص . ولأن التحديات كانت شديدة ، كان صوته عاليا ونبرته حادة واستراح إلى إغضاب الناس والكفر بهم ، ولكن وراء هذه التحديات نفسا معذبة ، فقد كان يريحه أن يقف إلى جانب الناس .

(*) نشرت في صحيفة الأخبار في ديسمبر 1974 .

(**) أنيس منصور (1924 – 2011) ولد بقرية كفر الباز مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية – حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة من كلية الآداب جامعة القاهرة (1947) وعمل معيدا بالكلية حتى سنة 1955 ثم تفرغ للأدب والصحافة . من مؤلفاته : حول العالم في 200 يوم – عاشوا في حياتي – في صالون العقاد – شارع التنهدات – أعجب الرحلات في التاريخ.

ولكن الناس دفعوه إلى أن يحاربهم وشجعوه على أن يكون نافرا وناشزا ، وفي مؤلفات د . زكي مبارك اجتهادات كثيرة وكتابه (النثر الفني) هو أروع أعماله الأدبية .

وفي هذا الكتاب متحف جميل لقضاياه الفكرية والبلاغية والذي يعاود قراءة هذا الكتاب يلاحظ أن د. زكي مبارك يصرخ كثيرا ، ولكن نحن لا نعرف نوعيات الناس الذين يلعنهم وينسى الناس كثيرا ما يقوله هذا الرجل الممتاز – ولا يذكرون إلا لسانه الطويل وإلا شذوذه عنهم . إن عظماء كثيرين سبقوه إلى الظلم إلى أن يظلمهم الناس : سقراط وأوسكار وايلد وأندريه جيد وجان جينيه وأبو نواس ومايكل أنجلو وغيرهم كثيرون لم يغفر لهم الناس سقطاتهم ولم يشفع لهم عند الناس هذا الجهد الهائل من التجديد والثورة على القديم والخروج عن الصفوف التي مات عليها الفكر والإبداع في كل العصور .

***

وقد كانت مقدمة صالح جودت لهذا الكتاب جميلة .. رقيقة ولم يشأ أن يذكر أشياء كثيرة ، نقطا سوداء في الثوب الأبيض اعوجاجا في خطوط لوحته الفنية .

إن مؤلف الكتاب شاب قد اختار رجلا من جيل سابق على جيله وكان هذا الاختيار نوعا من استئناف الحكم في قضية زكي مبارك ، وصورة من صور العدل أو طلب العدل ورفع الغضب عن فنان كبير عاش مظلوما ، ومات مظلومًا . إن هذا الموقف من المؤلف الشاب محمد رضوان ليس فنيا فقط ، وإنما هو موقف أخلاقي أيضًا .. لأنه لم يختر فنانا كبيرًا ، وإنما اختار إنسانا شقيًا بنفسه وبالآخرين .. ومن الغريب أن شقاوته هذه أمتعت وأسعدت كل من يقرأ حياة زكي مبارك !

أنيس منصور

القاهرة 1974

سيرة زكي مبارك

تعد حياة الدكاترة زكي مبارك (1891- 1952) حياة حافلة بالكفاح والعصامية والاعتماد على الذات ، منذ كانت بدايته في بلدته ستريس بالمنوفية حتى وصل إلى أعلى درجات العلم والثقافة بعد أن أصبح كاتبًا وناقدًا وحصل على ثلاث شهادات للدكتوراه من القاهرة وجامعة السربون بباريس وكان يعد للدكتوراه الرابعة لولا رحيله المفاجئ عام 1952 ولقد وجدت أوفى ترجمة لسيرته وثقافته وعصاميته هذه الدراسة التحليلية التي كتبها الأديب سعد حامد مستعرضًا فيها كتابي «صفحات مجهولة في حياة زكي مبارك» الذي صدر في سلسلة كتاب الهلال بالقاهرة عام 1974 ، يقول سعد حامد(*) :

في «دائرة معارف الشعب» كتب الدكتور جمال الدين الرمادي دراسة قيمة عن الكاتب الكبير المرحوم زكي مبارك استهلها بهذه السطور :

« حصل من الدرجات العلمية على أعلاها وأرقاها ، وفاق بدرجاته أقرانه ولداته ، فأصبح هدفا لحقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وقد أضرته درجاته العلمية أكثر مما نفعته .. عرف بين الناس «بالدكاترة» زكي مبارك ، فكان في هذا عزاؤه وهناءته في الدنيا ، وبه ازدهي وافتخر .

(*) مجلة قافلة الزيت السعودية : سعد حامد : أديب مصري معاصر له عدة مجموعات قصصية منها : «البحث عن النسيان » و«الخوف من الحياة» وقد نشر هذا المقال عرضا لكتابي «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» فور صدور الكتاب في سلسلة كتاب الهلال عدد أكتوبر 1974 .

حصل زكي مبارك على الدكتوراه من الجامعة المصرية عام 1924عن رسالته « الأخلاق عند الغزالي» وحصل على دكتوراة ثانية عام 1931 من جامعة السربون في فرنسا عن كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» ، وحصل عام 1937 على دكتوراه ثالثة من الجامعة المصرية في طورها الجديد عن كتابه «التصوف الإسلامي» ، ولكن العلم يغني العقول والقلوب ولا يغني الجيوب ، ولذلك عاش زكي مبارك طيلة حياته يخدم الأدب ، ويؤلف الكتب ، وينظم الشعر ثم فارق الحياة لا يملك من متاع الدنيا إلا الذكر الحسن .. والذكر للإنسان عمر ثان ! » .

والحق الذي لا يمارى فيه منصف أن الدكتور زكي مبارك كان أديبا عظيمًا ، واسع الثقافة .. كتب في كل فنون البيان ، وأثار كثيرًا من القضايا ، وحرك الحياة الأدبية في مصر والبلاد العربية ، وقدم صفحات رائعة من الأدب الخالد الباقي بأسلوب بلغ الغاية من الطلاوة والبلاغة .

وعن هذه الحياة الحافلة الخصبة أصدر الأديب محمد محمود رضوان كتابا جديدًا عنوانه «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك » وقد صدر هذا الكتاب في سلسلة «كتاب الهلال» في شهر أكتوبر 1974 التي تصدر عن «دار الهلال» في القاهرة .

وقد أثار هذا الكتاب كثيرا من الأحاديث ، وحرك كثيرًا من الأدباء ليكتبوا عن زكي مبارك فكتب أنيس منصور بعد صدور الكتاب بأيام في بابه المشهور «مواقف » بجريدة الأخبار المصرية ، وأشاد بأنه أمتعه متعة فريدة .. قال :

«إن مؤلف الكتاب شاب قد اختار رجلا من جيل سابق على جيله ، وكأن هذا الاختيار كان نوعا من استئناف الحكم في قضية زكي مبارك ، وصورة من صور العدل أو طلب العدل ، ورفع الغضب عن فنان كبير عاش مظلوما ، ومات مظلوما. إن هذا الموقف من المؤلف الشاب ليس فنيا فقط ، إنما هو موقف أخلاقي أيضًا .. لأنه لم يختر فنانا كبيرًا ، وإنما اختار إنسانا شقيا بنفسه وبالآخرين .. ومن الغريب أن شقاوته هذه أمتعت وأسعدت كل من يقرأ قصة حياة زكي مبارك » .

وكتب الدكتور عبد الله خورشيد في العدد 16 من مجلة «الثقافة» المصرية الصادرة في يناير 1975 مقالا عنوانه «زكي مبارك زعيم وجداني» . وبالرغم من أنه لم يشر إلى الكتاب إلا إشارة عاجلة في سطور قليلة هي هذه السطور ..

«كتاب محمد محمود رضوان (صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك) الذي صدر في القاهرة أخيرًا جاء بمثابة تنبيه إلى ذلك الأديب حقا المنسي فعلا .. وكلمتنا هذه ليست أكثر من مشاركة في هذا التنبيه » .. إلا أن كل ما في المقال قد أخذه الكاتب عن كتاب محمد محمود رضوان !!

وفي العددين 17 ، 18 من مجلة «الثقافة» الصادرين في فبراير ومارس 1975 كتب الكاتب الكبير والوزير السابق الأستاذ فتحي رضوان دراسة رائعة بالغة الروعة بعنوان « ظاهرة زكي مبارك» عن الكاتب الكبير أشاد فيها بكتاب محمد محمود رضوان ، واعتبره مرجعا قيما هاما ، ونقل منه فقرات عديدة أشار إليها .

ولقيمة هذا الكتاب الأدبية ، وللضجة التي أثارها آثرت أن أقدمه للقراء .

يقول الأستاذ الكبير صالح جودت في مقدمة هذا الكتاب :

«مات زكي مبارك ، فلم يذكره أحد من معاصريه إلا بكلمات عابرة تذهب مع الريح . ولهذا أكبرت هذا العمل «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» والذي شاء الأديب النابه محمد محمود رضوان أن يضرب به مثلا في الوفاء أعده من أكرم الأمثلة لأنني لا أحسب أنه رأى زكي مبارك ولا عرفه عن قرب ، ولكنه عرفه عن حب هو أسمى أنواع .. حب الكلمة الخالصة ، والروح الشفافة ، والأمانة للأدب والتاريخ ، وهكذا خرجت هذه الدراسة الموضوعية الواعية لحياة زكي مبارك، جامعة لكل نواحيه كفلاح أصيل نشأ في عمق أحضان الريف المصري ، وشق طريقه بأظافره الصلدة حتى وصل إلى أعلى مستويات العلم في الأزهر ثم في الجامعة المصرية ثم في باريس ، وجاهد من أجل العلم والدين والعروبة في مرابع القاهرة ومراتع بغداد وملأ الدنيا بصيحة القومية العربية » (ص12) .

ويقول مؤلف الكتاب في التصدير الذي يلي المقدمة والذي أطلق عليه عنوان «زكي مبارك .. ذلك المجهول» :

«لقد عرضت في هذا الكتاب لمواقف زكي مبارك الفكرية الأصيلة على الصعيد المصري والعربي والإسلامي ، ولقد اتخذ موقفا صلبا شجاعا في فترة كانت تموج بشتى التيارات الوافدة والمذاهب الهدامة فضلاً عن تلك الدعوات الإقليمية الضيقة كالفرعونية والفينيقية وغيرها ، فعارض كل ذلك وسبح ضد التيار ، وسجل آراءه وأفكاره في مواجهتها ، وظهر وجهه العربي المشرق الأصيل، فزادت الحملة ضراوة عليه وحاولوا النيل منه وتحطيمه ، واستغلوا في تحقيق هدفهم ذلك الطابع الذاتي عنده والحديث عن النفس واعترافاته الوجدانية مما أعطى انطباعا خاطئًا لدى البعض عن قيمة مواقف هذا الرجل وإضافاته الخصبة العميقة في مجالات الثقافة والأدب والفكر (ص14) .

«ولقد أردت بكتابي هذا إبراز بعض الجوانب المجهولة الغامضة في حياته والوصول إلى (مفتاح شخصيته) وهو (الصدق والصراحة) وقد انعكس هذا على أدبه الذي اتسم (بالصدق الفني) مما اكسب أدبه صدقا وحرارة وعمقا ، وبذلك ألقيت الأضواء على الكثير من مواقفه وكتاباته) (ص15) .

ثم يقول :

«في هذا الكتاب تحدثت عن الحياة الأدبية والنفسية والوجدانية للدكتور زكي مبارك ، واستخدمت المنهج النفسي في أدب التراجم والسير الذي يعني بالتركيز على النفوذ إلى صميم خفايا النفس الإنسانية للوصول إلى (مفتاح شخصية) المترجم له ومن ثم إلقاء الأضواء على ما يكتب فربطت بين زكي مبارك الكاتب والإنسان وحللت شخصيته على ضوء تموجات نفسيته من خلال ما كتبه في أطوار حياته المختلفة » (ص16) .

***

وقد قسم المؤلف كتابه إلى خمسة فصول :

حياته وثقافته – المرأة في حياته – ملامح شخصية – معارك زكي مبارك الأدبية– مأساة عاشق الجمال .

في الفصل الأول يقول المؤلف إن زكي مبارك ولد في أغسطس 1891 بقرية «سنتريس» بمحافظة المنوفية ، وكانت ملاعبه بين ربوع تلك القرية الحالمة التي تنام في أحضان النيل فتفتح خياله على تلك الطبيعة الخضراء الحالمة . وكان يقضي أيامه بين الحقل حيث يساعده أباه في زراعة الأرض وبين السامر الذي كان ينصب في «الجرن» في بعض الليالي القمرية ، وألحق زكي بالكتاب في سن مبكرة فحفظ القرآن كله وجوده . وفي يفاعته كان يشهد مجالس الصوفية وكانت لأبيه صلات روحية بأهل الطريق ، ولذا درج زكي مبارك على احترام أرباب الصوفية .

وفتن زكي مبارك بالشعر منذ طفولته فكان لا يجد كتابا يحوي أبياتا من الشعر إلا انكب عليه وحفظ ما فيه عن ظهر قلب حتى وقع في يده ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي فقرأه بشغف واهتمام وحفظ قصائده ، وقرأ في تلك الحقبة العديد من دواوين الشعراء وكتب التراث القديم فضلا عن القرآن الكريم الذي كان له أكبر الأثر في صقل موهبته الأدبية وإثراء أسلوبه .

وتزوج زكي مبارك في سن مبكرة وهو في السادسة عشرة من إحدى قريباته ، وكان ثمرة هذا الزواج خمسة أبناءهم سليمان وعبد المجيد وعبد السلام وزينب وكريمة .

وبرغم الفارق الثقافي الكبير بين زكي مبارك وزوجته ورغم البون الشاسع بين الأديب الكبير والزوجة الريفية البسيطة إلا أن حياتهما كانت هادئة سعيدة ، وقد كرست هذه السيدة حياتها لإسعاد زوجها وحفظت قلبه من الهموم فاعترف لها بالجميل في قوله :

«يسرني أن أسجل اعترافي بالجميل لزوجتي الفلاحة التي سارت سيرة أمها

وأختها فحفظت قلبي سليما من الهموم التي تزلزل عزائم الرجل » .

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره رحل إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف ، وكان ذلك حوالي عام 1908 ، وفي الأزهر نهل من التراث العربي ، وبدأت مواهبه تتفتح وبرز على أقرانه ، وأثناء دراسته بالأزهر تمرد على علومه وما يدرس له فاتجه إلى روض الأدب يقرأ روائع الشعر العربي قديمه وحديثه ، ودرس اللغة الفرنسية معتمدًا على مجهوده الشخصي وأجادها وقرأ بها روائع الشعر الفرنسي ، وأخذ ينظم الشعر بغزارة واتسم شعره وقتئذ بالقوة وجزالة اللفظ ومتانة ثقافته الأزهرية ثم بدأ شعره يتجه نحو البساطة والسهولة والرقة وجمال الموسيقى بعد قراءاته لروائع الشعر الفرنسي القديم والحديث ، وكانت معظم منظوماته من شعر الحب والجمال .

وهكذا مضت حياة زكي مبارك في الأزهر أكثرها حرمان وعذاب وضني حتى أتم دراسته به ونال شهادته عام 1915 ، وكان قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة في نوفمبر 1913 بصفة غير رسمية ثم انتسب إليها بصفة رسمية عام 1916 والتحق بكلية الآداب ، وكان لإتقانه اللغة الفرنسية أثر بعيد في اتصاله بالثقافة الفرنسية فاستقى من منابعها وبدأ يقرأ أمهات الكتب في الأدب الفرنسي القديم والحديث .

وعندما اشتعلت ثورة عام 1919 كان زكي مبارك وقتئذ طالبا في الجامعة المصرية ، فاشترك فيها ، واكتوى بنارها ، وشهد آلام التشريد والاعتقال شهورا طويلة ، وكان واحدا من خطبائها المبرزين .

عاد زكي مبارك إلى الجامعة مرة أخرى بعد خروجه من المعتقل في أكتوبر عام 1920 وانتظم في دراسته ، وقد أسقطه الدكتور طه حسين في الليسانس مرتين، وأخيرا نال شهادة الليسانس في العلوم الأدبية والفلسفية عام 1921 ، وفي عام 1922 بدأ في إعداد رسالته في الدكتوراه عن «الأخلاق عند الغزالي» ونوقشت الرسالة مناقشة علنية في مدرج كلية الآداب بالجامعة المصرية في 15 مايو عام

1924 وكان جو الامتحان عنيفا ، وكان الـدكتور طـه حسـين مـن المشـتركين في لجنة المناقشة ، وفي نهاية المناقشة ظفر بدرجة الدكتوراه بتقدير جيـد جـدا فكـان أول من ظفر بدرجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة .

وقد اتصل زكي مبارك بالصحافة منذ سن مبكرة ، وكان في كل أطـوار حياتـه كاتبا جريئًا صريحا يكره المداورة ويبغض النفاق ، وكـان يكتـب مقالاتـه وينشـر أشعاره في صحف ومجلات متعددة .

وبعد حصوله على ليسانس الآداب ثم الـدكتوراه عمـل معيـدا بكليـة الآداب عام 1925 ثم صمم على أن يكمل دراسته وأن يذهب إلى باريس ، وكان قد تـزوج قبل عام 1910 حين خاف أهله عليه أوهام العاطفـة فأقـام حياتـه وأنجـب أبنـاءه الخمسة ، وترك زكي مبارك وراءه زوجته وأبناءه في مصر ، واتجه إلى بـاريس عـام 1927 ليواصل دراسته العليا هناك على نفقتـه الخاصـة في عصـامية فريـدة نـادرة ، وكان يعيش في باريس عيش الكفاف ، فينفق كل ما معه على شراء الكتب أكثر ممـا ينفق على طعامه وشرابه ، وبجانب ذلـك كـان مسـئولا عـن أسـرته في القـاهرة .. وزوجته وأولاده الخمسة ، وبرغم أنه أحب باريس حبا يفـوق الحـد إلا أنـه كـان يشعر «بالاغتراب الروحي» فيها .. وكان لا يعاني من الغربة بسبب خذلان في حب أو إخفاق في مجد أو غدر الأصدقاء ولكنه كان يشعر بغربة موحشة في كل أرض .. وفي هذا يقول : «وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مـؤمن ، وأنـا بـر عنـد الفجار ، وفاجر عند الأبرار ، فأنا في كل بيئة أجنبي ، وفي كل أرض غريب» .

وكان زكي مبارك يسكن في غرفة متواضعة ببـاريس ، وفي تلـك الغرفـة ألـف رسالته «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» وطلب قرضا من الجامعـة المصـرية ليطبع رسالته الضخمة التي سيقدمها إلى جامعة السـربون والتـي أنجزهـا في سـبع سنوات ولكن لم يستجب له مجيب ، وبعزيمة أمضـى مـن الصـخر كـافح بمفـرده وقاسى في غربته حتى طبع الرسالة ، ونوقشت الرسـالة ومنحتـه جامعـة السـربون درجة الدكتوراة بدرجة «مشرف جدا » ثم عاد إلى مصر يحمل معه أرفع الدرجات

العلمية : دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية ، ودرجة الدكتوراه بتقدير «مشرف جدا » من جامعة السربون عن رسالته «النثر الفني» .

عمل زكي مبارك بالجامعة المصرية ، وكان يكتب في صحيفة «البلاغ » مقالات بعنوان «الحديث ذو شجون» ، وفي تلك الأيام دارت معركة عنيفة بينه وبين الدكتور طه حسين ، فقد سئل طه حسين عن رأيه في كتاب «النثر الفني» فكتب في مجلة الرسالة يقول عنه : «أنه كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب» ! وكان هذا تجاهلا صريحا لهذا الكتاب النفيس ، وكان من أسباب غضب طه حسين أن بالكتاب هجوما عنيفا ودحضًا لآرائه في نشأة النثر الفني وإرجاعه الفضل للفكر اليوناني . وامتشق زكي مبارك قلمه ورد على طه حسين ودارت معركة عنيفة بينهما ، وعاد زكي مبارك إلى منصبه في الجامعة المصرية عام 1933 إبان الفترة التي كان فيها طه حسين خارج الجامعة فلما عاد طه حسين إلى الجامعة عام 1934 رفض تجديد عقد زكي مبارك وقال : « أنا لم أستشر في تعيينه فلا أستشار في تجديد عقده ! » وكانت مأساة محزنه . أبعد زكي مبارك عن منصبه ووراءه مسئوليات جسام وكان عليه أن يدبر رزقه ورزق أبنائه الخمسة . وكتب زكي مبارك والألم يمزقه مقاله المعروف «طه حسين بين البغي والعقوق» والذي قال فيه جملته الشهيرة «لو جاع أولادي لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه!!».

ومضى زكي مبارك يشق طريقه بعزيمة يسعى لرزقه بعد خروجه من الجامعة في مجال آخر ، فعمل بالصحافة والأدب ثم عينته وزارة المعارف مفتشًا للمدارس الأجنبية في مايو 1937 بعد حصوله على الدكتوراه الثالثة في أبريل من نفس العام عن «التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق» بمرتبة الشرف ، وكان عميد كلية الآداب وقتها الدكتور طه حسين .. وقد قال زكي مبارك عن ذلك : «هل أنسى أنني انتزعت أجازة الدكتوراه من كلية الآداب وأنا في خصومة عنيفة مع عميد كلية الآداب » وبعد هذه الدكتوراه الثالث أطلق الشاعر محمد الأسمر (1900- 1956) على زكي مبارك لقب الدكاترة زكي مبارك !

وفي الفصل الثاني «المرأة في حياة زكي مبارك » يقول المؤلف : كان الدكتور زكي مبارك عاشقا واله القلب قوي العاطفة قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة ، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا غراما وتشبيبًا ، وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود فعاش إلى آخر نسمة في حياته يتشوف إلى أفنان الجمال ويغرد للحب.

ومن آثاره الوجدانية التي استلهمها من تجاربه المتعددة في عالم الحسن ودنيا الجمال كتبه : «مدامع العشاق» و«ليلي المريضة في العراق» و«العشاق الثلاثة» وديوان «ألحان الخلود» .

وهو لا يريد إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ليكون في ذلك مادة تنفع في الدراسات الأدبية والنفسية ، ويشرح مذهبه في إبداع الوجدانيات فيقول :

«إن حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيًا أشرّح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان . نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح من أقدم عهود الوجود .. وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ » .

إن قوة العاطفة عنده هي التي أملت هذه الأحاديث الوجدانية الصادقة ، ومنحتها الجمال والأصالة والعذوبة . وقد عاش طيلة حياته يعزف أجمل أغاريد الحب وأعذبها ، كان جذوة من الوجدان والعاطفة وكان لصبابته أثر بعيد في ثقته بأثر المرأة القوي في حياة الفنان وإنتاجه .

وقد أورد المؤلف صفحات عدة من وجدانيات زكي مبارك .. من كتبه ورسائله ، وهي لون فريد في أدبنا العربي المعاصر ، وقد أفصحت عن نفسية كاتبنا وأظهرت سرائر روحه وأسرار قلبه بصدق وأمانة وحرارة كما أنها تبين الكثير من أفكاره وآرائه في الأدب والمجتمع والحياة . وكان دائمًا في حبه عاشقًا عذريًا أراد أن يحب امرأة خيالية مثالية رسمها في خياله فاصطدم بالواقع والحقيقة .

وفي الفصل الثالث «ملامح شخصية »يقول المؤلف :

«من أبرز ملامح شخصية الدكتور زكي مبارك أنه كان إنساني النزعة صافي القلب خفيف الظل ولكنه رغم طيبة قلبه وصفاء نفسه ووداعته كان مناضلا عنيفا صلبًا إذا دخل في سجال لا ينكص على عقبيه أبدًا ولا يلين . وكان يكره الماديات ولا يأبه باقتنائها حتى بعد أن يسرت له أسباب الحياة ولكنه كان يقتني مكتبة ضخمة تحوي ما يزيد عن عشرين ألف كتاب » .

ثم يستطرد المؤلف قائلا :

«ومن العناصر الرئيسية في تكوين شخصيته عنصر العشق فكان لامتحانه بالهوى والغرام ولبلائه في العشق أثر كبير في أدبه الوجداني ، وهو مؤمن عميق الإيمان صافي القلب والوجدان ، ومن الخطوط البارزة في شخصيته تمسكه الشديد بآرائه وصراحته وصدقه واعتداده بكرامته ، وكان يكره النفاق والمداراة ، ومن ملامح شخصيته الاعتراف بالخطأ ومواجهة عثراته وعيوبه بصراحة وشجاعة ، والحزن العميق ، وقوة العاطفة » .

وفي هذا يقول زكي مبارك :

«أنا رجل مؤمن بأن القلب أدق ميزانًا من العقل وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة على حين لا يهتدي العقل إلا بالبراهين وهي في الأغلب تقوم على مقومات لا تخلو من تضليل » .

وهو حائر في تحديد حقيقة نفسه ، وفي هذا يقول :

«أنا متهم بالعقل ومتهم بالجنون .. فمن وصفني بالعقل فهو متلطف ، ومن وصفني بالجنون فهو مسرف .. لأني في حقيقة أمري إنسان يعيش بثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل ، وهي حالة تجعل أمري وسطا بين العقل والجنون ، والتوفيق الذي ظفرت به في حياتي العلمية مدين لحياتي الوجدانية ، فقوة الوجدان هي التي حملتني أن أستقتل في الدراسات الأدبية والفلسفية » .

وكان زكي مبارك وفيًا إلى أبعد حدود الوفاء ، وقد أحب كل بلد حل فيه ، وكان وفيًا لأسرته وأصدقائه ووطنه .

ومن أظهر خصائص أدبه «قوة الذاتية» ويرى الدكتور زكي مبارك أن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول بحيث يشعر من يقرأ لك أو يستمع إليك أنك تنقل عن قلبك وضميرك وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك وأنك لو نشرت مقالا بدون إمضاء لنم عليك الروح قبل أن ينم عليك الأسلوب » .

وكان يعتز بذاتيته أيما اعتزاز .. يقول :

«أنا أؤمن أنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني ، ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق من نفسي» .

ومن ملامح شخصيته أيضًا الوطنية الصادقة ، فمنذ شبابه المبكر كان شابا ثائرًا وطنيًا يحب مصر ويدافع عنها ، وشارك مشاركة فعالة في ثورة عام 1919 ، واعتقل وشرد ، ولم يتنازل عن وطنيته رغم ضروب العذاب والاضطهاد .

وفي الفصل الرابع «معارك زكي مبارك الأدبية» يسرد علينا المؤلف معارك زكي مبارك ومساجلاته الأدبية التي كان فيها شديد العنف صلب العود قوي العارضة . وأبرز ملامح معاركه الفكرية ومساجلاته أنها اتسمت بالعنف والتحدي كما اتسمت بطابع السخرية اللاذعة والفكاهة الحلوة والاعتداد بالنفس ثم بالطابع العاطفي ، وكان لعنفه وصراحته آثار سيئة فصراحته وصدقه حملاه متاعب كثيرة وأثارا حوله الأراجيف والأباطيل فحورب في رزقه وعمله ، ويصور كيف تحول من الأدب الوجداني إلى النقد الأدبي فيقول :

«لقد ابتدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو تركني الناس وشأني لعشت بلبلا وديعا لا يسمعوا منه غير أنغام الحنين ، ولكن لؤم اللئام حولني إلى إعصار عاصف» .

وكان شديد الإيمان بالتراث الإسلامي والثقافة العربية والقومية العربية، وخاض معارك متعددة مع دعاة التغريب ومع أعداء الثقافة العربية والإسلامية ودعاة الشعوبية . وكان يرى أن الخصومات تزكي عزيمته وتمد دمه بفيض من قوة الحديد «كيف آنس بالسكون وأنا أعتقد أن السلام ضرب من الموت» .

ويجمل لنا المؤلف معارك زكي مبارك مع طه حسين وعباس العقاد وإبراهيم المازني وأحمد زكي «باشا» الملقب بشيخ العروبة ، وأحمد أمين ومحمد لطفي جمعه وسلامه موسى .

وفي الفصل الخامس والأخير وعنوانه : «مأساة عاشق الجمال» يقول المؤلف :

«لقد أراد زكي مبارك أن يغاير التقاليد ، لقد كره النفاق والخداع .. لقد أراد أن يكون الأديب الصريح الصادق في أدبنا الحديث .. وبدأ التجربة ، ومن هنا كانت مأساته .

«تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة في حياته ..

«كان صريحا في التعبير عن عواطفه ومشاعره الوجدانية ، وكان صريحا في التعبير عن آرائه في الآخرين بغض النظر عن كونهم رؤساءه سواء كانوا في منصب كبير أم صغير . لم يكن يلتفت إلى هذه الناحية فجرت عليه صراحته الكثير من المتاعب والمضايقات . اتهم بأنه من أنصار الأدب المكشوف ، فعندما أصدر كتابه «مدامع العشاق» عام 1924 قال عنه الدكتور طه حسين في جريدة «السياسة»: «أنه كتاب يحرض على الشهوات » ووصف زكي مبارك بأنه «حاد الشباب عنيفه» ، وكان الأدب عند زكي مبارك كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد حتى لا يفتر ، ويصور مذهبه الأدبي الصريح فيقول :

«ما أردت إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون لأني

بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية ، أدعو إلى مبادئ خلقية سامية أغشيها بالفنون كما يصنع الطبيب في تغشية «البرشامة المرة» بغشاء من الحلواء» .

ولقد اتخذ خصومه مما كان يكتبه في أدب الوجدان ومن اعترافاته ووجدانياته سلاحا في يدهم شهروه في وجهه لمهاجمته والنيل منه خاصة في أعوامه الأخيرة .

وظل زكي مبارك يجاهد في حقل الصحافة الأدبية سعيا لرزقه ورزق أولاده ثم ما لبث أن عمل بوزارة المعارف ولكنه لم يترك صراحته وجرأته فلقى صدمات عنيفة من بعض وزراء المعارف ومن رؤسائه الذين لم تعجبهم صراحته وصدقه فلاحقوه بالاضطهاد ، وقبرت جهوده في وظيفته مفتش بالوزارة ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلمية يتخلف بينما يرى الآخرين من هم أقل منه يسبقونه في الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق والمداراة ، فأحس بالظلم والألم وشعر بالمرارة وهتف يقول : « كيف فاتني أن أنافق في عصر لم يعش فيه غير النفاق؟ » .

وتركت تلك الصدمات العنيفة أثارا سيئة في نفسيته ، فكفر بالكثير من القيم التي طالما آمن بها ، وأحس بالمزيد من المرارة وهو يرى كفاحه في سبيل الأدب ضائع وكفاحه في ميدان التعليم ضائع فقال :

«ليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه – بلا أسف – سيموت فقيرًا لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي» .

وكان للمرأة أيضًا أثر كبير في مأساته .. لقد كان يحلم بالحب الكبير .. وبالمرأة التي صورها بصورة مثالية في أدبه .. وقد افتقد ذلك في الواقع .

أحس زكي مبارك بالمرارة والضياع ، وهاله أن يجد نفسه في المؤخرة وقد كافح كفاحا علميًا دؤوبا ونال أرفع الشهادات من جامعة القاهرة وجامعة السربون ، وكانت صراحته وصدقه سبب بلائه ، فقد جرت عليه الكثير من المتاعب ..

يقول أحمد حسن الزيات :

«لو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئًا من «فن الحياة» لاتقى كثيرًا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة» .

وفي أعوامه الأخيرة هام بالعزلة ، وكلف بالوحدة ، وانطوى على نفسه بعيدا عن المجتمع في وحدة ممضة قاسية ثم راح يذوب تدريجيًا وأصبح حطاما يدب على الأرض ، وأخيرًا خبت هذه الشعلة المتأججة بالقوة والجمال والوفاء والحب في 23 يناير 1952 عن ستين عاما ودفن في بلدته الأثيرة «سنتريس» .

رحم الله الأديب الكبير ، وكتب لذكراه المجد والخلود ، وتحية للأديب محمد محمود رضوان على المتعة الفريدة الرائعة التي أحسست بها وأنا أقرأ كتابه القيم الممتع .

***

هكذا استعرض الأديب القصصي سعد حامد سيرة حياة زكي مبارك وسيرته العلمية والأدبية من خلال عرضه لكتابي «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» الذي صدر في أكتوبر عام 1974 واستعرضه الكاتب في مجلة قافلة الزيت السعودية بعدها بفترة قصيرة.

اعترافات زكي مبارك

«الدكاترة» زكي مبارك

أدب البوح عند زكي مبارك

امتاز د. زكي مبارك بصراحته وصدقه ، فأصبح من الأدباء المعدودين في أدب البوح الاعترافي ، حيث سجل على الورق أسرار نفسه وسرائر وجدانه فروى لنا سيرة حياته منذ الطفولة حتى وصل إلى أعلى درجات العلم والثقافة ، كما أبان لنا سرائر روحه وقلبه ، وقدم لنا أسرار مغامراته العاطفية ، ودخائل نفسه ومشاعره بقلم سلس جذاب ، مما جلب له الكثير من المتاعب في عمله وحياته ، فحورب في رزقه وفي عمله ، ولم يأخذ حقه في حياته ، ماديًا أو معنويًا ، لكنه ترك لنا ذخيرة أدبية ثرية بالمشاعر الصادقة والأحاسيس الرفيعة التي وضعته في أعلى المراتب بين أدباء البوح في أدبنا العربي المعاصر .

وقد أحببت هذا الرجل وتفاعلت مع كتاباته لأنني أحسست بالصدق في كل كلمة باح بها لنا على الورق ، فكان زكي مبارك مثالا للكاتب الصادق والأديب الصريح الذي يكره الغش والمداراة والكذب والمخاتلة، ومن هنا كانت مأساة حياته ، لأنه أراد أن يتمثل الأدب العربي القديم والأدب الفرنسي في صدقه وصراحته المطلقة ، لكنه أدرك بعد فوات الأوان أن كل ذلك قد جلب له المتاعب في حياته وفي عمله ، وبين أهله وناسه ، فكانت المأساة التي حطمته في عنفوان قوته وفتوته!

وسوف أقدم هنا بعض نماذج من اعترافاته الصريحة التي تحرى فيها الصدق والأمانة .

أنا نفسي(*)

نعم ! أنا نفسي ، واسمي زكي مبارك ، وفي كل مكان ما قلت وما نظمت وما أنشأت كنت شخصًا واحدًا اسمه زكي مبارك .

لبست العمامة ، ثم الطربوش ، ثم البرنيطة، وأكلت بأصابعي ثم أكلت بالشوكة والسكين ، وفي جميع الحالات أشعر صادقًا بأني أنا نفسي لم أكن صورة لأحد من الناس ، ولم أتلون في المشاعر والحواس بغير اللون الأصيل لشخصية الإنسان الذي تصوره أعمالي وأقوالي ، الإنسان الذي اسمه زكي مبارك ، وهو اسم يحبه أقوام ويبغضه آخرون .

والدليل على ذلك أني قضيت الحياة بلا ناصر ولا معين ، فما أذكر أني كنت ظلاً لأحد ، ولا أذكر أني خدمت حزبًا من الأحزاب ، ولا فكرت يومًا في التلطف إلى فلان أو فلان ، وإنما أحب من أحب وأبغض من أبغض وفقا لهواي الخاص ، وأشعر حين أحب أني متفضل بالحب ، وأشعر حين أبغض أني أنوي البطش بمن أعاديه .

وما أقول هذا حبًا في الزهو والخيلاء ، وإنما الواقع أني درست نفسي فرأيتها غير صالحة للارتياض بآداب الناس ، وما زلت أعجب كيف استطعت أن أعيش في دنيا لا صديق لي فيها ولا حبيب ، ولعل السر في صلاحيتي للعيش إني أصادف أقوامًا رماني الدهر بما رماني فائتلفنا كما يأتلف الوحوش .

(*) الهلال – ديسمبر 1938 (زكي مبارك – أنا نفسي) .

ومع هذا لا أنكر أني معرض للتخلـق بـأخلاق مختلفـة ، في بعضـها قـوة وفي بعضها ضعف ، غير أني مع ذلك أقرر أن هذا الاختلاف هو أيضًا صورة من نفسـي أيكون معنى هذه الأحكام القاطعة إني عرفت نفسي ؟ هيهات !

حياته بين الكتب والورق

تجاربي في الحُبّ (*)

وهل عرفت الحب ، حتى أتحدث عما لقيت فيه من مفاتن وطيبات ، وما عانيت من مكاره وأهوال ؟

إنها إشاعة لفقها المرجفون الآثمون زوروا باسمي كتابا اسمه «حب ابن أبي ربيعة» وكتابًا اسمه «مدامع العشاق» .

أنا أحب ؟ ومن الذي يحمل أثقال الواجب ، وأعباء الحياة ؟ بل من الذي يصحح كراريس التلاميذ ، وينشئ المقالات للصحف والمجلات ، فيقضي النهار في الدرس ، والليل في الإنشاء ؟

أنا أحب ؟ ومن الذي يحقد ويبغض ويؤذي خلق الله في الصباح والمساء ؟

أنا أحب ؟ وكيف وكبدي أقسى من الصخر ، وقلبي أصلب من الحديد؟

قولوا غير هذا ، واطلبوا تجارب الحب من رجل سواي

فإن كنتم في ريب من جهلي بالحب ، فانظروا كيف أصف الحب ، لتعلموا أني ما ذقت الهوى ولا الجوى ، ولا عرفت الشغف ولا الشعف .

الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس . الحب لغة روحية يفهمها القلب عن القلب ، وينقلها الروح إلى الروح ، وتسري نشوتها في الأفئدة سريان الصبا في الغصن .

(*) الهلال – يناير 1937 – ص 257 (تجاربي في الحب) .

الحب معنى نبيل ، في لفظ نبيل . الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس. الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء .

الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الأزهار ومنضور الرياحين . الحب نغمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجي القلوب .

الحب هو الكأس التي عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

يقولون لي صفها فأنت بوصفها خبير ، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم
على عمره فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم . الحب عاطفة ماحقة ما يدري الرجل أهي نعمة أم نقمة ، ولا يعلم أهي هدى أم ضلال ، وإنما يعرف أنها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الجبال .

الحب هو ائتلاف روحين ، وامتزاج قلبين ، وانسجام نفسين . الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان ، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء .

الحب هو أن تصير قلبًا شفافًا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الدلال .

الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب ، الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل الحب .

***

أتروني وصفت الحب ؟لا أظن ، وكيف يصف الحب من لا يحب !

أشهد صادقًا أنني لا أعرف الحب ، ولكني مع ذلك أعترف بأن لي شمائل تشبه شمائل المحبين . فأنا رجل يفضل الحسن على القبح ، وهل في هذا بأس ؟ وأؤمن بأن الوجه الأصبح أجمل من الوجه الوقاح ، وهل يلام من يقول بذلك ؟

وأعتقد أن العيون النواعس أحب إلى القلوب من عيون الحلاليف ، وهل في هذا خلاف ؟ وأرى أن القد الرشيق أملح في العين من الجسم المغلوط ، وهل هذا الرأي غلط ؟ وأجزم بأن المبسم العذب أحلى وأعذب من الأفواه السود ، فهل أنا في هذا مخطئ يا أرباب العقول ؟

أنا لا أحب ، لا أحب ، ولكنني رجل فاتك النظرات ، وما كان ذلك عن فجور أو فسوق ، وإنما هي فلسفة لم يعرف مثلها الناس في شرق ولا غرب .

أنتم تؤمنون بحقوق الحواس فيما تأكلون وما تشربون وما تلبسون ، أنتم تحبون أن تكون منازلكم وملابسكم ومطاعمكم ومشاربكم دليلا على ما عندكم من ترف الأذواق ، وفيكم من ينفق ألوف الدنانير لينعم بالعيش في منزل أنيق ، وفيكم من يرحل من بلد إلى بلد ليظفر بأكلة شهية أو شراب عتيق !

فما رأيكم إذا قصرت أنا شهوات الحواس على حاسة واحدة ، هي حاسة البصر الغالي ؟ ما رأيكم إذا استغنيت عن أكل التفاح اكتفاء برؤية لونه في الخدود ما رأيكم إذا صدفت عن جميع التحف العاجية اكتفاء بحلاوة الجيد ، ما رأيكم إذا انصرفت عن جميع الغرائب الفنية اكتفاء بما أرى من بدائع الجمال ؟

أنتم تمتعون أسنانكم بالنهش والنهس ، والخضم والقضم ، وأنا أمتع عيني بالمنظر الجميل ، فيا بعد ما بيني وبينكم في دنيا المفاتن ، وعالم الأذواق ، أنتم ترحلون من مكان إلى مكان في السيارات وفوق ظهور الجياد ، وتتخيرون في الغالب أقصر سبيل ، وأنا لا أمشي إلا في الطريق الذي أعرف أن أرضه حنت وأنت تحت أقدام الملاح .

أنا لا أحب ، لا أحب أحدًا ، وإنما أحب نفسي .

ومن حب النفس أن لا تقع العين على ما يسوء ، وإنما تقع على ما يفتن ويشوق ، وهل يكون الطائر أعقل مني ، إن الطائر لا يقع إلا على الغصن الرطيب ! وهل يكون النحل أعقل مني ، إن النحل لا يمتص من الأزهار غير الرحيق !

من أنا في دنياكم يا بني آدم ، يا أكلة اللحم والبقل ، ويا خلفاء بني إسرائيل الذين زهدوا في المن والسلوى ، وسال لعابهم شوقًا إلى العدس والبصل والفول ، من أنا في دنياكم ، يا بني آدم ؟ أنا في دنياكم غريب ، لأني أعيش على الحب والنسيم.

أعيش على الحب ؟ لا ، أنا لا أحب أحدًا ، وإنما أحب نفسي ، وقديمًا قلت :

ولمـا صـار ود النـاس خـتلا   وأوحش ربعهم من بعـد أنـس

ولم أظفـر عـلى جهـدي بحـر   تركت هواهمو وصحبت نفسي

أنا لم أحب ، ولم أعرف الحب ، لأن قلبي أعظم من أن يحب ، ولم يخلق إلى اليوم وجه يكافئ ما في قلبي من صراحة الصدق ، ونمير الحنان .. وأين يقع قلبي إذا شاء أن يحب ؟ أين يقع ولم يبق في هذه الأرض حسن مهذب ، ولا جمال مصون؟

وهل خلت الدنيا من المحاسن ، هيهات ! إن الـدنيا تمـوج بـالفتن ، ولكـن الحسن الذي يضارع ما في قلبي من عناصر العطف والسـحر والروعـة والفتـون لم يخلقه فاطر الأرض والسـماء . ومـا أكـذب الحسـن ، فقـد شـهدت منـه نمـاذج يدوسها قـدمي وهـي طيعـة راضـية ، ولكنـي مـا زلـت أتكبـر وأتجبـر ، وأطغـى وأستطيل ، لأن الحسن الذي يأسرني لم يشهده هذا الوجود .

لا أكذب الحسن ، فقد قطفت منه أطايب نفيسة لم يقطفها أحد سواي ، ولكن كيف يدينني الحسن وفي قلبي شاعرية هي أنضر منه وأسـحر وأفتـك ، وفي نفسـي كرم هو أبقى منه على الزمن وأجدر منه بالخلود .

فإن كنتم في ريب من ذلك فاسألوا كيف يعيش مـن قصـرت علـيهم هـواي ، سلوهم كيف استطابوا الغفوات وأنا أساهر النجم لأناجي المعـاني ، وأتحـدث في الهوى ، فأشرح الجنون ومـاذا عنـد أهـل الجمـال ؟ إن الحـب في قلـب العاشـق أشرف من الحسن في وجه الجميل .

أنا أحب ؟ قولوا غير ذلك ، واطلبوا تجارب الحب من رجل سواي .

ألست أنا الذي رفع الحجاب عن أصول الحقـائق حـين قـال : إن الـدمع في

عين العاشق كالسم في ناب الثعبان ، فإن رأيتموني أبكي من الحب فاعلموا أني أفعل ذلك لأخدر الفريسة كما يفعل الأفعوان حين يلدغ الفريسة ليخدرها بالسم فيبتلعها بلا عناء .

ماذا لقيت من الحب ؟ لا تسألوا ماذا لقيت ، فذلك حساب تثقل فيه الموازين ، ولكن اسألوا ماذا عانيت في الحب من سفه الطيش وعنف الفتون .

أنا اليوم صريع الغيرة ، أنا اليوم قتيل الهموم ، أنا اليوم شهيد الشجون .

اليوم يصحو المخمور ، ويستيقظ الغافي ، ويفيق المتبول .

اليوم أتلفت فأجد رفاقي تقدموا وتخلفت ، وأشهد أني كنت من الخاطئين .

ولو أنني أنفقت في سبيل المجد بعض ما أنفقت في سبيل الحب لكنت اليوم رئيس الوزراء.

وداعًا أيها الجمال وداعًا أيها الحب . وفي ذمة الله عمر ذهب ، وشباب ضاع !

وفي سبيل من ؟ في سبيل الغادرين الخاتلين من أهل الصباحة وأرباب الجمال .

تسألون عن تجاربي في الحب ؟ إنه تجارة خاسرة ، وأرض موات .

فإن كان في القراء من يعقل فليسمع الموعظة من رجل دفع ثمن التجربة من دم الصبا وعافية الشباب . لقد جربت الحب ، وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين. فمن اغتر بالحب بعد ما حذرته وأنذرته فهو مضيع مغبون .

***

وكنت أحب أن أطيل في شرح هذه الموعظة ، ولكني مع الأسف مشغول القلب بغرام جديد ، ولعلي أحدثكم عن أهواله بعد حين !

أتحسبونني تبت ؟ هيهات هيهات !

أغرب ما رأيت في حياتي(*)

أنا متهمٌ بالعقل ومتهمٌ بالجنون . فمن وصفني بالعقـل فهـو متلطـف ، ومـن وصفني بالجنون فهو مسرف . لأني في حقيقة أمري إنسانٌ يعيش بثـورة العواطـف فوق ما يعيش بقوة العقل ، وهي حالة تجعل أمري وسطًا بين العقل والجنون .

والتوفيق الذي ظفرت به في حياتي العلميـة مـدينٌ لحيـاتي الوجدانيـة ؛ فقـوة الوجدان هي التي حملتني على أن أستقتل في الدراسات الأدبية والفلسفية ، وقد يأتي يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانيـة التـي جعلـت عقـلي يتفـوق إلى أبعـد حـدود التفوق في مثل كتاب النثر الفني أو كتاب التصوف الإسلامي .

وهذه الغرابة في تكوين عقلي وقلبي هي التي تحملني عـلى الجـرأة في تـدوين هذا الحديث ، وهو حديث كنت أفتضح به أشنع افتضاح لو نشرتُه قبـل سـنتين أو ثلاث ، يوم كان لي خصوم يسرهم أن تحاط حياتي بالأقاويل والأراجيف .

أما اليوم وقد قل خصومي بحيث لا يزيدون عن ألف أو ألفين ، فأنا أنشر هذا الحديث بلا تهيب ولا تخوف ، وليقل من شاء ما شاء .

***

كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضي أربعة أشهر من كل سنة في مدينـة النور ، ثم أعود إلى وطني لأجمع من الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجـوع إلى

(*) الرسالة : أغرب ما رأيت في حياتي / زكي مبارك / 2 يناير 1939 .

باريس من جديد ودام ذلك بضع سنين ، ثم عرفت أني لن أصل إلى غرضي إلا إذا قررت بطريقة حاسمة ألا أفارق باريس إلا في أحد حالين النصر أو الموت .

وكانت الإقامة الدائمة في باريس تبدو من المستحيلات ، لأن أبي رحمه الله لم يكن يقدر على إمدادي بكل ما أحتاج إليه . وكان ما ورثته عن أمي طيب الله ثراها لا يزيد عن بضعة قراريط ، وكانت أفقر مني ؛ ولم يكن لي في الحكومة المصرية عمٌّ ولا خال وفي هذه الظلمات استطعت أن أتفق مع الأستاذ عبد القادر حمزة على مراسلة البلاغ من باريس بمرتب قدره خمسة عشر جنيهًا فتوكلت على الله وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة في السربون .

ولكن مراسلة البلاغ من باريس لم تكن عملاً ينفع إلا في حال واحد هو أن يشعر صاحب البلاغ بأني أقدم إليه محصولاً أدبيًا ينقل القراء من حال إلى أحوال ، فقد كان الأستاذ عبد القادر حمزة قد اشتهر بين أصحاب الجرائد بأنه يحسن الاعتذار إلى من يريد الاستغناء عنهم من المحررين والمخبرين والمراسلين ؛ وكنت جربت اعتذاراته الرقيقة قبل ذلك حين كنت أحرر في البلاغ الأسبوعي سنة 1926 . ولكن اعتذاراته في ذلك الوقت لم تكن تؤذيني لأن كنت مدرسًا في الجامعة المصرية ، وكنت بفضل تلك الوظيفة من المياسير .

***

ماذا أصنع في مراسلة البلاغ من باريس ؟

كنت أستطيع أن أرسل مقالات في الأدب العربي ، وأنا من أقطابه بلا جدال ، ولكن إرسال مقالات عن الأدب العربي من باريس كان ضربًا من السخف يقترفه من يراسل البلاغ من باريس . وهل يعيش الأديب في باريس ليحدث الناس عن ابن المقفع وابن العميد ؟!

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع لأنجو من تسلُّم خطاب رقيق من خطابات الاعتذار التي يجيدها صاحب البلاغ ؟ ماذا أصنع لأظفر بخمسة عشر جنيهًا أضيفها إلى

المبالغ الضئيلة التي اكسبها من الدروس الخصوصية التي أعطيها للطلبة الضعاف في اللغة الفرنسية مـن أعضـاء البعثـات ، والنقـود التافهـة التـي آخـذها في مقابـل المساعدة التي أؤديهـا لـبعض المستشـرقين الـذين يهمهـم أن ينقلـوا النصـوص العربية إلى اللغة الفرنسية ؟

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟

لم يكن أمامي إلا مسلكٌ واحد : هو الاندماج المطلق في باريس لأحدث قراء البلاغ بأحاديث منتزعة من الحياة الواقعية في باريس .

وما هي إلا أسابيع حتى عرف صاحب البلاغ أنـه لـن يكتـب إلى رجـل مـثلي خطاب اعتذار ، وحتى عرف قراء البلاغ أني أحدثهم بما لم يألفوه ، وأن الـبلاغ لـن يستغني أبدًا عن صاحب «الحديث ذو شجون» .

***

ولكن الانتصار في هذا الميدان له تكاليف .

كان لابد من الاتصال الـدائم بأسـاتذة السـربون ومدرسـة اللغـات الشـرقية لأظفر بما تساميت إليه من الألقاب العلمية .

وكان لابد من معاقرة الحياة في باريس لأنجح في مراسلة البلاغ أما الأسـاتذة فالظفر بثقتهم سهل ، لأني في الواقع من أصلح الناس لفهم ما أسمع مـن الخطـب والمحاضرات ، ولأني كنت بالفعل شابًا ناضـجًا لـه في الأدب والفلسـفة مـذاهب وآراء .

الصعوبة كل الصعوبة ، والعسر كل العسر ، هو في افتـراع بـاريس لأصـل إلى أوهام وحقائق أقيّد بها أذواق قراء البلاغ .

وكيف أصل إلى هذا الغرض الجليل ؟

هدتني الفطرة إلى قضاء أوقات الفـراغ في الملاهـي والملاعـب والمـراقص

والقهوات ، فكنت أقضي في هذه النزهة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل .

كنتُ شابًا ، ورحمة الله على شبابي ، الشباب الذي بددتُه في طلب الحب والمجد .

كنت أذرع باريس بقدمي لأخلق لمقالاتي جوًا من الحقيقة لا من الخيال .

وأعانني على ما أسمو إليه لسانٌ مرن في اللغة الفرنسية مرونة عجيبة تقدر على جذب من أحاور من أسراب الظباء .

والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب إذا أمدته العناية الإلهية بلسان فصيح .

وكان لي في باريس ثلاث قهوات ، قهوة صغيرة جدًّا في بولميش بجوار (قهوة الرحيل) التي كان يجلس فيها الدكتور طه حسين يوم كان طالبًا في جامعة باريس .

وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة للمواعيد الغرامية ، التأملات الفلسفية فكيف صارت اليوم ؟ ليتني أعرف . أما القهوتان الأخريان فهما الروتوند والدُّوم في حي مونبارناس .

***

كيف كنتُ أصطبح وأغتبق بهاتين القهوتين ؟

كان مفهومًا عندي أن لا سبيل إلى معاقرة الحياة إلا في مونبارناس .

وإنما كان ذلك لأني كنت أتهيب مونمارتر تهيبًا يصل إلى الفزع والرعب ، فقد تشاجرت فيها مع أحد الشبان الفجار في سنة 1927 وكاد اسمي يقيد في سجلات البوليس لولا لطف الله وكانت هذه التجربة القاسية كافية لأن أقنع بالضلال في حي مونبارناس .

وفي قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهاة التي أدونها في هذا الحديث :

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقـاوين ينـدر أن يكون لهما شبيه أو مثيل .

وجلستُ بالقرب من تلك السيدة عساني أنهب منها نظرة أو نظـرتين أسـتعين بهما على إتمام بعض الفصول من كتاب (سحر العيون) الذي أرجو أن يظهـر بعـد قليل .

وما هي إلا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف

ثم أشارت بأن أقترب فاقتربت .

رباه ! متى تعود أيامي ؟

وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة عرفت أنها من البغايا .

أعوذ بالله ؛ أعوذ بالله ، أعوذ بالله !!!

أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفَجرة الأوباش ؟

أتكون هذه الحسناء الفتانةُ شبيهةً بالشمس ينعم بضوئها من يشـاء ولـو كـان من الخفافيش ؟

أتكون هذه التحفة الفنية شبيهةً بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب ؟

أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يسـاعده القـدر المخبـول فـيملأ جيبه بالدراهم لو كان من الأغبياء ؟

أتكـون هـذه الدُّميـة شـبيهةً بـالحجر الأصـم الـذي تسـجل عليـه حـوادث الأفاقين؟

ليتني مت قبل أن أشهد ذلك المنظر الأليم !

ليتني مت قبل أن أعرف أن مثل ذلك الحسن يباع !

ألك يا رباه حكمة في إذلال هذه الروائع الفنية التي زينت بها الوجود ؟

ارفع الحجاب مرة واحدة يا رباه لأعرف أسرارك العالية التي تسوس بها مخلوقاتك !

وهجمتُ على تلك السيدة الجميلة بعنف فقالت :

اسمع أيها السيد ، ليست الغواية من همي ولا من مناي أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب ، وكانت ثمرة الحب طفلا هو اليوم تلميذ في المدرسة (...) وقد هجرني الحبيبُ والدُ الطفل وتركني وحدي أربيه وأرعاه فأنا أتسول باسم الحب لأنفق على ذلك الطفل المسكين ، إلى أن يظهر أبوه ، إلى أن يظهر الوغد الذي هجر معشوقته وطفله منذ سبع سنين . فإن كنت تدعي الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتي ورعاية طفلي . وسترى كيف أجزيك عطفا بعطف وإخلاصًا بإخلاص .

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمي ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها وليس لي من جريدة البلاغ ومن الدروس الخصوصية إلا مبلغ ضئيل من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية أشد القسوة على الغرباء في باريس ؟

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعًا نبيلا قد يرفع روحي بعد إسفاف . فصوبت بصري إليها وقلت : وكيف أضمن أن تتوبي عن حياة الرجس ؟

فقالت في استحياء : إن لغرفتي مفتاحين !

فقلت : وما معنى ذلك ؟

فقالت : لك مفتاح ولي مفتاح ، فخذني لنفسك وراقبني كيف تشاء ، فإن استطعت أن تشهد عليَّ ما يريب بعد اليوم فاقتلني والمهم أيها السيد أن ينجو طفلي من الجهل ومن الجوع .

وفي تلك اللحظة تذكرت عبد المجيد فغلبني الدمع .

تذكرت أني تركت في مصر الجديدة أطفالاً منهم عبد المجيد الذي كان

يزعزع كياني حين يقول (بابا) .

وما اسم ابنك يا سيدة ؟

اسمه موريس

هلم بنا إلى التسليم على موريس !

***

قد أنسى كل شيء ، ولكني لن أنسى طلعة موريس .

قد ينسيني الموت جميع ما حفظت من اللغة الفرنسية ، ولكني سأذكر في قبري عبارة باقية في اللغة الفرنسية حين طلع موريس فقالت له أمه : Embrasse papa

وتوهم الطفل أني أبوه فقبلني بحرارة والدموع في عينيه

- Papa
- Mon petit

وأستأذنا مدير المدرسة فسلم إلينا الطفل ليقضي معنا ليلة في مباهج باريس .

وسألني الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته أني توجهت إلى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت ، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهيه ، ولم يفتني أن أحدثه عن أخبار الجن والعفاريت .

وفي تلك الليلة هجر الطفل صدر أمه وسَكن إلى صدري لينام نوم السعداء .

وفي تلك الليلة شعرت أن روحي ارتفع إلى أجواز السماء .

كان موريس ورث عن أمه الفرنسية صفرة الشعر وزرقة العينين ، وكان ورث عن أبيه الهولندي شمائل من السجاحة واللطف ، وكان في جملته وتفصيله تحفة من تحف الوجود وقد وجد من عطفي وحناني كل ما يتمناه ويشتهيه فانطلق يحدث أترابه في المدرسة بالنعيم الذي يلقاه في يومي الأحد والخميس .

وفرحت مرجريت بما صارت إليه من راحة البال وصفاء النفس بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس .

ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات فعلمتني الرقص وطوفت بي على المكنونات من صناديق الليل .

وبفضل مارجريت عرفت من خبايا باريس ما لا يعرف الشياطين ولم نكتف بذلك ، بل نقلتني إلى رُوان والهافر وأطلعتني على المستور من شواطئ المانش ، وأقامت معي في الضواحي النائية أسابيع .

والله وحده يعلم كيف عاشرتُ تلك الحسناء ، فلو أني قلت أني كنت في حبها من الأطهار لما صدقني مخلوق ، لأن سمعتي تعرضتْ لأخطار كثيرة بسبب التهالك على أخبار الملاح ، ولكن الواقع أني كنت في صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً ، وأجمل ما نلتُ منها لم يزد على قُبلة شهية طبعتها على جبيني حين أخبرتها أني لي أبناء وقد قهرتني على قبول هدية من العطر و«الكريم» أرسلتها إلى ابنتي أو زوجتي ، وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خِفية في نهر السين .

***

كانت مارجريت متعبةً إلى أبعد الحدود

قالت ذات يوم : أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة .

فقلت : هذا حق !

فقالت : ما رأيك في سياحة على الأقدام إلى ليون ؟

فقلت : وفي كم يومًا نصل على الأقدام إلى ليون ؟

فقالت : في نحو أسبوع .

فحملنا أثقالنا واتجهنا نحو ليون ماشَييْن .

وبعد يوم واحد تعبتُ ، فحلمتها على الرجوع بالقطار إلى باريس ليتني أطعت

مرجريت وذهبتُ ماشيًا إلى ليون لأعرف كيف يعيش الناس في الأقاليم الفرنسية ، ولأجدد الأنس بصحبة مرجريت يوم همنا على وجوهنا في الحقول النورمندية !

كانت مارجريت ضجرتْ من حياة الفتون .

وكنتُ ضجرتُ من حياة الفتون .

وكنا نتشهى أن نعرف معنى التصوف في الحب ، وكيف لا تتصوف في الحب وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس ؟

***

وبعد أن دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهرًا وصلتُ إلى ما أريد في امتحانات مدرسة اللغات الشرقية وامتحانات السربون ، وصممت على الرجوع إلى أهلي وأبنائي ، ولم يكن بدٌّ من توديع مرجريت وموريس .

وأي توديع ؟!

كان من الواجب أن أردَّ المفتاح إلى مرجريت ، فرفضتْ والدمع في عينيها الزرقاوين ، وقالت : احفظ هذا المفتاح فقد تصل على حين غفلة إلى باريس .

وكانت مارجريت لا تزال معرَّضة للفقر والبؤس فوعدتها بإرسال سبعمائة فرنك في كل شهر لتستطيع الإنفاق على نفسها وعلى ابنها الغالي ، وأنا أفي إذا وعدتُ .

***

كانت الدنيا في ذلك العهد لا تخيفني وهل يخاف من يرجع مزودًّا بأعظم الألقاب من باريس ؟

ولكني لم أكد أصل إلى مصر حتى عَطلتْ جريدة البلاغ فأرسلتُ إلى مرجريت أستعفيها مما وعدتُ ، فكتبت تصفح عني وتسأل الله أن بفتح لي أبواب الرزق .

وما هي إلا مدة قصيرة حتى استجاب الله لدعوة مرجريت فكنت آخذ من

الجامعة الأمريكية ثمانية وعشرين جنيهًا ، ومن الليسيه اثنين وعشرين جنيهًا ، ومن البلاغ خمسة عشر جنيهًا بغض النظر عما كنت آخذه من المكتبة التجارية ومن مجلة الهلال .

ورأيت أن أزيد مرتب مرجريت فكنت أرسل إليها في كل شهر ألف فرنك .

وعرف موريس فضل (أبيه) فكان يرسل إليَّ في كل أسبوع خطابين .

حرسك الله يا موريس وكتب لك التوفيق !

***

وفي سنة 1933 ذهبت إلى باريس لأحضر مؤتمر (الميسيون لاييك)نائبًا عن أساتذة اللغة العربية بمعهد الليسيه . ذهبت ومعي المفتاح لأزور مرجريت ولكني استكبرت عن زيارة مرجريت ، وهل يفكر الأساتذة الكبار في العطف على امرأة نكبتْها المقادير ؟

ولما رجعتُ من المؤتمر نقصت مرتب مرجريت من ألف فرنك إلى سبعمائة فرنك ، واعتذرت بأن مواردي نقصتْ وأني لم أعد أملك غير التدريس بالليسيه والتحرير في البلاغ .

فكتبتْ مرجريت تقول إنها ترضى مني بأن أعترف أنها استطاعت مرةً واحدة أن تدخل النور إلى حياتي .

أعترف يا مرجريت بأنك بددت الظلمات في حياتي.

طال العهد على لقاء مرجريت ، وطال العهد على لقاء موريس وحملني لؤم الطبع على التخلص من مرجريت وموريس ، وهل كانت مرجريت زوجتي ؟ وهل كان موريس ابني ؟ وهل كنتُ أول شاب أطاع الغواية في باريس ؟ يجب أن أقطع المرتب الذي خصصتُه لمرجريت وموريس ، ولكن كيف ؟

لذلك تاريخ سنراه في الأسبوع المقبل .

أغرب ما رأيت في حياتي (2) (*)

كيف أقطع مرتب مرجريت ؟

وكيف أدخل البؤس إلى صدر موريس؟

كيف ؟ كيف ؟

المسألة في ذاتها هينة ، ولكنها مع ذلك بدت في غاية من التعقيد ، لأن اتصالي بمرجريت كان أثار حول اسمي شبهات أذاعها فريق من أهل الفضول في باريس ، وأظن – وبعض الظن إثم وبعضه غير إثم – أن ابنة صاحب البيت الذي كنت أقيم فيه كان لها دخلٌ في إذاعة الشبهات التي آلمتني في باريس .

كان ناس من المصريين يسألون عني من حين إلى حين فكانت تلك البنت تلقاهم بابتسامة خبيثة ، ثم تقول : المسيو مبارك رجل لطيف ، فهو لا يُلزم الخدم بترتيب غرفته غير مرة أو مرتين في الأسبوع !

ومعنى ذلك أني أبيت ليالي كثيرة في مكان مجهول .

وكان لي مع هذه البنت تاريخ جميل يغريها بأن تُلقي عليّ حقودها حين أغيب .

وكان المصريون في باريس يتعتّبون ويتلومون كلما رأوني ، ويحبون أن يعرفوا أين أقضي أوقات الفراغ .

(*) الرسالة : أغرب ما رأيت في حياتي / زكي مبارك / 9 يناير 1939 .

وكانت حجتي حاضرة ، ولكنها لم تكن تُقنـع إلا مـن يريـد أن يقتنـع . كنـت أقول إني تركت في مصر خمسة عشر مليونًا وما يهمني أن أراهم مرة ثانية في باريس .

والواقع أني أحسنت كل الإحسان في هذا المسلك ، فلم يكن لي أي نفـع مـن تزجية أوقات الفراغ مع المصريين المقيمين في بـاريس ، فـأكثر كلامنـا حـين كنـا نلتقي لم يكن إلا ثرثرة سخيفة باللغة العربية حول السياسة المصـرية وربمـا كنـت المصري الوحيد الـذي عـاش في بـاريس ولم يعـرف مكـان السـفارة المصـرية في باريس.

والواقع أيضًا أن صلتي بمرجريت لم يعرفها أحد قبل اليوم غير شخص واحد هو الدكتور أمير بقطر الذي كلفتُه في إحدى السنين أن يمر على مرجريت ليحـدثها عن أشياء لا يمكن أن تكتب في خطاب ، ومع خطورة هذه المهمـة فـرَّط الـدكتور بقطر في زيارة مرجريت .

وهكذا يكون الإخوان في هذا الزمان !

والحاصل – كما يعبر أهل بغداد – أني كنت أحب أن أتخلـص بصـفة نهائيـة من مرجريت ، لأني كنت أخشى أن أفتضح في الأندية المصرية ، وتحقّ عـليّ لعنـة خصومي ، الخصوم الذين كانوا يعرفون كيف يلطخون سمعتي بالسواد بلا تعفف ولا استحياء .

كان يجب أن أقطع صلتي بمرجريـت ، وهـل بقيـت بيننـا صـلة غيـر مئـات الفرنكات التي أجود بها في كل شهر لأنقذ موريس من الجهل ومن الجوع ؟

كان هذا المرتب ثقيلاً جدًا ، وكان إرساله يضـيعٍّ عـلى في كـل شـهر يومًـا أو بعض يوم ، وقد اضطرني مرة إلى أن أصرخ بالفرنسية ! je m , ennuie

وكنت في كل مرة أتعرض لمكاره كثيرة من التحليلات النفسية ، كنـت أقـول إن قرابات كثيرة تعاني الضر والبؤس وهي أولى بكرمي إن كنت من الكرماء .

وكنت أقول إن مرجريت آوتْ روحي وقلبي خمسة عشر شهرًا ، وأمكنتني من

أن أصير أبًا كريمًا لطفل جميل .

وكنت أقول إن لمرجريت فضلا عظيمًا في مرونة لساني باللغة الفرنسية ، المرونة التي أمكنتني من أن أحاور هيئة الامتحان في مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات ، والتي أمكنتني من أن أصاول هيئة الامتحان بالسربون ثلاث ساعات ، وذلك مغنمٌ ليس بالقليل .

كنت أقول إن مرجريت هي التي عرّفتني بدقائق الحياة في باريس .

كنت أقول إني لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين إلا بفضل مرجريت .

كنت أقول إن مرجريت بكت مرة وأبكتني يوم زرنا معًا مصانع ستروين ، حين وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد وهي أرق من الزهر وأكثر إشراقًا من الصباح .

قالت مرجريت : ما رأيك يا محبوبي في هذه الفتاة ؟

فتعلثمت .

فقالت : قل الحق ، ماذا تدفع من الأموال لحديث ليلة مع هذه الحسناء التي تطرق الحديد ؟

فقلت : وهل هي أجمل من مرجريت ؟

فقالت : دع هذا الأدب المصقول وأجبني .

فقلت : أقدم حياتي ثمنًا لسمر ليلة مع هذه الفتاة .

فقالت : وهل تعرف كيف زهدت هذه الفتاة في فتنة باريس لتلهو بطرق الحديد .

فقلت : أحب أن أعرف .

فقالت : هذه فتاة تستعد لتكون ربة بيت ، فهي تطرق الحديد لتجمع من

الأموال ما يمكنها من أن تكون زوجةً لرجل شريف مثل المسيو مبارك .

ثم استغرقت في البكاء والنشيج .

بكيتُ يومئذ لبكاء مرجريت بكيتُ بكاء لو شهدته الملائكة لأضافت اسمي إلى أسماء الشهداء والصدِّيقين .

وفي تلك اللحظة جذبتُ يد مرجريت بعنف وقلت : لن نفترق يا مرجريت .

فقالت : وكيف ؟

فقلت : سأنقلك إلى مصر ، إن كان لي إلى مصر مَعاد .

فقالت : وماذا أصنع في مصر ؟ هل تراني أصلحُ لمعاونة مَدام مبارك على ترقيع الجوارب ؟

فقلت : إن مَدام مبارك لا ترقِّع الجوارب .

فقالت : كيف تقول هذا وأنت أبخل من اليهود ؟!

وضحكنا ضحكًا صنع بالدموع ما تصنع الشمس بآثار الغيث .

***

ذكريات مرجريت كلها لطيفة ؛ ولكن يظهر حقًا أن فيّ شيئًا من أخلاق اليهود، لأني عانيت في حياتي ما يعاني اليهود ، وهل يبخل اليهود بالطبع ولهم جدٌّ اسمه السموأل ؟

إنما يبخل اليهود بسبب الاضطهاد ، وأنا أبخل بسبب الاضطهاد كان أجدادي من أغنى أهل المنوفية فحملتهم النخوة العربية على التبذير والإسراف إلى أن صافحوا الإفلاس .

فأنا أجمع القرش إلى القرش لأصير من الأغنياء

وهل يتفق هذا مع الإنفاق على امرأة جميلة في باريس ؟

يجب أن أقطع مرتب مرجريت .

ولكن كيف ؟

أحب أن أعرف كيف أتخلص من مرجريت

***

كانت مرجريت تكتب إليّ في كل أسبوع خطابين ، وكانت تخاطبني بالكاف ، وكنت أبخل عليها بالمخاطبة بالكاف ، لأني كنت أخشى أن يكون في المخاطبة بالكاف ما يشهد بأني كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية [1]

وكانت مرجريت تتألم من ألا أخاطبها بالكاف وتقول : إن بخلك عليّ بالمخاطبة بالكاف يوجب أن اخفي رسائلك عن موريس ، وهي كل ما في حياة هذا الطفل المسكين من عزاء .

حرسك الله يا موريس وبارك في حياتك الغالية .

وكانت مرجريت تتحدث في رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر إلا في رسائل العشاق .

وكنت أتغافل عن تلك الأشياء حين أكتب !

وكان هذا يؤذيها أبلغ إيذاء ، فكانت تتهمني بالقسوة والله وحده يعلم كيف كنت أسيء الأدب في مراسلة مرجريت ، فأنا أعيش في القاهرة وهي تعيش في باريس.

أنا أحترس تخوفًا من بطش خصومي ، وهي تترسل بلا تخوف لأنها تعيش بين قوم يرون صيانة الحب من الشرائع .

وهل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالي يحيا بين الناس بلا ناصر ولا معين ؟

(1) المخاطبة بالكاف تعبير عربي أصيل وهو يماثل الـ Tutoiement في الفرنسية .

هل تعلم مرجريت أن محبوبها يشتغل بالتدريس وهو عمل تكدره الشبهات ؟

هل تعلم مرجريت أني لا أصلح أبدًا لما صلح له فيكتور كوزان الذي كان أعظم أستاذ للفلسفة في باريس ولم تكن له زوجة وإنما كانت له خليلة تحرسه وترعاه ؟

إن مرجريت لا تفهم أني مصريٌّ يعيش في مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس .

يجب أن أقطع مرتب مرجريت وأن أتخلص من الأعباء النفسية.

***

وفي أثناء تلك الأزمة النفسية وقع حادث عجيب لم يهتز له في القاهرة قلب غير قلبي ، وقع حادثٌ لا يصدقه أحدٌ في الشرق ولكنه زعزع كياني .

وهو حادث لم يعلق عليه كاتب مثل المازني أو العقاد أو الزيات ولم يلتفت إليه مصطفى عبد الرازق ولا منصور فهمي ولا طه حسين ولكنه زلزل قدمي وهدَّ بنياني .

وهل يقع في الدنيا حادث أغرب وأعجب من أن يجئ المسيو ميللران رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق ليطالب في المحكمة المختلطة بالقاهرة عن حق إحدى الغواني بالميراث في تركة أحد الأمراء ؟

قد أنسى كل شيء ، ولكني لا أنسى أني اعتذرت عن دروسي بالجامعة المصرية لأشهد دفاع المسيو ميللران وماذا قال المسيو ميللران في ذلك اليوم ؟

قال إن موكلته امرأة شريفة

وما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى صُعِقتُ ، فقد فهمتُ أن من حقها أن تحب ، وقد أحبتني مرجريت فمن حقها أن تطالبني بالنفقة الشرعية حين تشاء .

ماذا أملك حتى تطالبني مرجريت ؟

أملك سمعتي، وهي كل شيء ، وبفضل تلك السمعة أتسامى لدرجة

الأستاذية في الجامعة المصرية .

وقد آن أن أعترف بالخطر الذي كان يهددني في جميع أطوار حياتي فأنا رجل من كبار العلماء ، وستمرّ أجيال وأجيال قبل أن يوجد لي في البحث والاطلاع شبيه أو مثيل[1] ولكني وا أسفاه مولعٌ بدرس سرائر النفس الإنسانية ، وأغراني بذلك إني كنت أول دكتوراة في الفلسفة من الجامعة ، وهذا المعنى هو الذي حملني على الصراحة فيما أسجّل وأقيّد من الأفكار والمعاني ، وأغلب الظن أني سأكون أشرف ضحية للدراسات الفلسفية ولا يغريني إلا شيء واحد هو الشعور بأني أنقذ الأدب العربي من كابوس الرياء والنفاق ولكن الأدب العربي يحيا لأموت .

والحاصل – مرة ثانية – أني عرفتُ وتيقنتُ أني لا أملك قطع مرتب مرجريت.

هل أستطيع الوقوف بالمحكمة المختلطة بالقاهرة أمام محام يطالبني بحقوق مرجريت ؟

وما هو مبلغ السبعمائة فرنك حتى أهرب من وجه مرجريت ؟

إن أصغر مبلغ أتقاضاه على المقالة الواحدة لا يقل عن جنيهين فما الذي يمنع من أن أنفق على مرجريت مما أتقاضاه من مقالاتي في مثل مجلة الرسالة أو مجلة الهلال ؟

وما الذي يمنع من أن أنقذ سمعتي بمبلغ ضئيل هو مئات من الفرنكات ؟

ولي مع ذلك تعزية صغيرة هي شعور موريس بأن له أبًا هو المسيو مبارك الذي استأنف سياحاته في مصر والشام والعراق .

---

(1) مع الاعتذار لقراء الرسالة عن هذا الإسراف الذي علله الأستاذ الزيات أحسن تعليل .

ولي تعزية ثانية هي رسائل مرجريت التي تحدثني عن غرائب الأشياء في باريس .

ولي تعزية ثالثة هي الشعور بأن لي غرفة في باريس أدخلها على غير موعد حين أشاء .

ولكن مع الأسف الموجع كنت أشعر بأني قد نزلت إلى أسفل دركات الانحطاط لأني كنت أقدم المرتب إلى مرجريت بفضل الخوف لا بفضل الوفاء .

***

وفي صيف سنة 1937 كانت لي فرصة لزيارة باريس بمناسبة المعرض ، وكانت مرجريت تلح في أن أزور ذلك المعرض لأراها وتراني ، وقد شجعني سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك على زيارة المعرض لأكتب عنه مقالة أو مقالتين ، ولكني رفضت

رفضتُ فرارًا من مرجريت

فماذا صنعت مرجريت ؟

ماذا صنعت مرجريت ؟

كتبت خطابًا تقول فيه :

«عزيزي مبارك

يسرني أن أخبرك أن موريس نال إجازة الدراسة الثانوية وقد وجد عملا بمكتبة .. بمرتب قدره ثمانمائة فرنك ، وبعد أيام سأقف مع المسيو ... بكنيسة المادلين لأداء مراسيم الزواج ، فأرجوك أن تبقي المبلغ الذي تتفضل به شهريًا ، فقد ينفعك في تربية أبنائك ، ويهمني أن تعرف أنك أشرف رجل عرفته في حياتي ، وأن تثق بأن خطيبي لا يغار منك ، فقد صارحته بكل شيء ، وهو في غاية الدهشة

من أدبك العالي ، وكل ما نرجوه أن ترسل عبد المجيد لنتولى تثقيفه في باريس ».

«أنا أقرأ خطاباتك مع زوجي . فهل تقرأ خطاباتي مع زوجتك .

صديقتك العزيز جدًا

مرجريت

آمنت بالله والحب !

لقد أنقذتني مرجريت من العذاب الأليم

وفرتُ سبعمائة فرنك قبل رحيلي إلى العراق ، وفرتُّها وأنا لئيمٌ بخيل .

وفرتُ سبعمائة فرنك لأحرم نفسي وقلبي من أبوّة موريس.

وفرت سبعمائة فرنك لأرجع إنسانًا سخيفًا لا يعرف الهيام بأودية المعاني .

مرجريت ! مرجريت !

أذكريني بالشعر يوم أموت

هل الله عاف عن ذنوبٍ تسلَّفتْ   أم الله إن لم يعفُ عنها يعيـدها

على ميعاد

هذا ربيع ، وهذا صيف ، وهذه ليالي النسائم الرفيقة بمصر الجديدة والجيزة والمعادي وحلوان والزيتون فأين صبواتك يا قلبي ..؟ ..

وأين أيامك ؟ .. وأين لياليك ؟ وأين أحباب كنت معهم على ميعاد ؟

لقد بخلت الأقدار بالتلاقي ، وتركتنا نصطرع في لجج اليأس العجاج ؟ .. مضى الشتاء وأورقت أشجار ثم أزهرت ، ، ومالك يا قلبي أمل في إزهار ولا إيراق.

الوجود كله ربيع ، فأين نصيبك من هذا الربيع يا قلبي ؟

ربيعك هنالك ، فامض إليه إن استطعت ، وإن استطاعت تلك الأزهار أن تطمس أبصار الرقباء .

سيمر زمن وأزمان ، وستفعل المقادير ما تفعل بمصاير ممالك وشعوب ثم يبقى لك هواك يا قلبي ، هواك الذي لا يجوز عليه الخمود، لأنه من أقباس الخلود.

وهل يعرف أحبابك هناك أنك معهم على ميعاد ؟ .. لقد يئسوا من وفائك يا قلبي ، لأنك آثرت الكتمان ، فمتى تفتضح في هواهم ليعودوا مع الربيع ؟ (1)

(1) زكي مبارك ، الرسالة 1942 ، الحديث ذو شجون .

أظرف يوم ؟

انتظر أبنائي سيارة الليسيه خمسين دقيقة أو تزيد . انتظروها على بـاب البيـت ، بين المطر المنهمر والريح العَصُوف .

وحين أشفقتْ أمهم فدعتهم إلى الدخول أجابوا ضاحكين :

هذا أظرف يوم !

ثم جاءت السيارة فأقلتهم برفق إلى معهـدهم المحبـوب ، ولعلهـم لم يحبـوا معهدهم بأكثر ممـا أحبـوه في هـذا اليـوم ، فلـن تكـون الـدروس غيـر حكايـات وأقاصيص ، ولن يكون المدرسون غير أطفال كبار يفرحون بمنظر المطر الهتّان !

وبقيت في البيت أسائل نفسي عما أصنع ، فما يجـوز أن أخـرج في مثـل هـذا اليوم ، وهو لا يصلح لغير اقتناص الأوابد من الذكريات .

لم يكن المطر غريبًا عليّ ، فقد تمتعت به أعوامًا في الديار الفرنسية ، ولن أنسى فضله يوم دخلت مدينة الهافر أول مرة في سنة 1927 ، فقد أتاح الفرصة لمحادثـة ريحانة مطلولة على ميعاد .. نظرت غليها بعين الغريب الحائر وقلت :

Madame est – ce quil pleut souvent ici ?

وبين السؤال والجواب تلاقي روحان ، وكان المطر سبب التلاقي .

وفكرت في «المطرية»التي نسيتها على سُلَّم البيت المحبوب في بـاريس ، يـوم فارقتها آخر مرة في صيف سنة 1933 (1)

(1) المطرية هي الكلمة التي اختارها ترجمة لكلمة Parapluie ويخطئ من يسميها شمسية .

وعلى محطة ليون تذكرت تلك «المطرية» وجاءت فلانة لتوديعي ، فلانة التي كانت قالت : Docteur vous vous trompez !

يومئذ أوصيت فلانة بأن ترجع إلى البيت المحبوب لتأخذ المطرية التي نسيتها هناك .

تذكرت وتذكرت

تذكرت أني حين رجعت إلى بغداد في صيف سنة 1939 مع « وفد مصر » للاشتراك في تأبين الملك غازي رأيت في شارع الرشيد إنسانة تشبه تلك الفلانة ، فطوّفت حولها مرات إلى أن صرخت : Tiens ! Je ne vouspas reconnu !

فقلت : لا غرابة في أن لا تعرفيني ، فشمس بغداد تزيغ عيون الباريسيات .

كان أمر هذه الفلانة عجبًا من العجب ، كانت فتاةً غريبة الروح ، وقد تركت دينها لتعتنق ديني ، بعد مصاولات روحية يضيق عن شرحها هذا الحديث .

وما السبيل إلى قضاء لحظات أعرف بها كيف تحدَّرتْ هذه الموجة إلى بغداد؟

-ندخل هذا الفندق؟

-لا ، فهو فندق مطروق !

-وهذا الفندق ؟

-هو فندق حوله شبهات !

وإلى أين نتجه يا شيطانة ، وقد عرفتِ من خفايا بغداد أضعاف ما أعرف ؟

-إلى فندق مود

وكان فندق مود هو الفندق الذي نزل به «وفد مصر » ، وكان اجتماعي بها فيه يُعَدْ فضيحة في أنظار المصريين والعراقيين .

قال حمد باشا الباسل : ما تلك بيمينك يا دكتور مبارك ؟

فأجبت : هي حيّة هديتها إلى الإسلام يوم كنت في باريس !

ثم دارت بيني وبينها كؤوس من الشراب الحلال وهممت بدفع ثمن الكؤوس فاعترض الأستاذ عبد المسيح وزير ، وتلَّطف حمد باشا فقال : لو رأيتكما بمصر لجعلت «قصر الباسل» مقركما إلى آخر الزمان !

ثم دعاني حمد باشا إليه في جانب من بهو الفندق ليُسر في أذني كلمات :

-ما هذا الذي تصنعه بنفسك يا دكتور مبارك ؟

-وماذا أصنع بنفسي يا باشا ؟

-ما قدومك علينا بهذه المخلوقة المتبرجة ؟

-هي التي قدمت عليَّ من باريس

-أنت عرفت هذه الفتاة في باريس ؟

-وهديتُها إلى الإسلام

-أنت تَهدي إلى الإسلام ؟

-اسألها تخبرك !

ثم نظرت إلى حمد باشا وقلت :

-هل تعرف «الحَلُوبة» ؟

-وما الحلوبة؟

-هي أمطار عنيفة مزلزلة تفاجئ العراق في بعض أيام الشتاء

-فهمتُ فهمت !

-ماذا فهمت يا باشا ؟

-فهمت أن هذه حلوبة تقع على قلبك في الصيف لا في الشتاء

-نعم ، وبهذا تتم المعجزة في الحياة العراقية !

ثم عاد حمد باشا فقال :

-أيطول هذا المجلس ؟

-أي مجلس ؟

-المجلس الذي يدور فيه الغزل بطريق العلانية !

ثم التفتْ فرأيت الجارم بك يوغل في التنكيت ، ورأيت الدكتور عـزام يـروي أشعارًا ، فأخذت بذراع الفلانة وانصرفت ولكن إلى أين ؟

إلى الفندق الذي تقيم به مع خطيبها العراقي ، وكانت حدثتـه عنـي أحاديـث شوّقته إلى أن يراني .

-دكتور ، أنت الذي سميت هذه الفتاة ليلي ؟

-وأنا الذي علمتها كيف تكتب اسمها بحروف عربية

-وترى أن أقترن بها ؟

-وأرى أن «تتطوق» بها ؟

-إيش لون ؟

-تلك عبارة مصرية ، ستفهمها بعد حين

ولم أدر ما جدّ في الدنيا بعد ذلك اليوم ، وإنما أذكر أني تلقيت خطابًا من (لـيلي المريضة في باريس) تقول فيه :

قُتِل السيد رستم حيدر ، وكان النصير الأوحد لخطيبي ، فمـا الـذي تـرى في مصيره ومصيري ؟ » .

في تلك اللحظة تذكرت سعادة الأستاذ طه الراوي ، وهو غاية في كرم النفس وشرف الروح .. هل أكتب إليه بخبر فلانة وفلان ؟

وأسرعت الدنيا فأثارت الحرب ، وأمست أحاديث المحبين عبثًا في عبث ، ومجونًا في مجون !

كانت الحرب هي « الحُلوبة » الدنيوية لا العراقية ، والعراق مظلوم في اتهامه بالشقاق ، فتاريخه في أسوأ أحواله أهدأ من تاريخ الأمم التي تدِّعي الشوق إلى السلام والقرار والاطمئنان .

حلوبة العراق لا تدوم غير ساعات ، أما حلوبة الغرب فلا تنقضي إلا بعد سنين .

ما هذا الذي أرى ؟ ما هذا ؟ ما هذا ؟

هذه أمطار وبروق ورعود !

لم يبق من تقليد مصر للغرب إلا أن تتشبه بجوه في هذا الهذَر الممقوت !

وأنظر فأرى صدري ينقبض حين يخفْ المطر لحظة أو لحظتين ، وكان المظنون أن أفرح بميل الجوّ إلى الاعتدال

ما السر في هذه النزعة الغريبة ؟ ما السر في الفرح بهطول الأمطار في بلاد أغناها النيل عن الغيث ؟

لعل ذلك يرجع إلى أن «الإنسان الأول » يحتل صدورنا من حيث لا نعرف ، وإلا فكيف جاز لأبنائي أن يقولوا إن هذا اليوم هو أظرف يوم ؟

كان الماء من أسباب الوقاية عند القدماء ، الوقاية من غارات السباع والوحوش ، وكانت المياه سببًا في انتصار المصريين في أعظم معركة من معارك الحروب الصليبية ، وهي المعركة التي اشترك فيها النيل ، فقد أحاط بالأعداء من كل جانب ، وقضى عليهم بالخذلان .

وهنا أذكر حوارًا دار فوق منبر الأزهر في أيام الثورة المصرية سنة 1919 :

حضر الخطيب محمد بك أبو شادي ذات ليلة ليحدثنا عن الأخطار المخوفة من سيطرة الإنجليز على السودان ، فقال فيما قال : إن تلك السيطرة قد تكون سببًا في منع مياه النيل عن الأراضي المصرية .

عند ذلك علوت المنبر وقلت ينبغي أن نبحث عن أسباب منطقية لاحتفاظ مصر بالسودان ، وأنا أرى أن مسألة المياه قليلة الأهمية، لأن الحياة السودان في تحدر مياه النيل إلى الأراضي المصرية . ولو وجد السودان من يساعده على احتكار مياه النيل لتعرض لآفات من الحميات لا يعلم أذاها غير علاَّم الغيوب .

ثم ماذا ؟

ثم طافت بالقلب خواطر حول شعور المصريين بظواهر الوجود وأقول بصراحة إن الذين ينظمون الأغاني يخطئون أبشع الخطأ في الإكثار من التغني بالرياض والبساتين .

إن المصريين لا يفهمون هذه الأشياء ، ولن يذوقوها لو فهموها ، لأن مصر خضراء في جميع الفصول ، وهي من أجل هذا لا تشعر بقدوم الربيع ، لأن دهرها كله ربيع .

الروض كلمة غير مفهومة ، أو كلمة لا تذاق ، في الديار المصرية على نحو ما يفهمها ويذوقها شعراء العرب في البلاد التي تتأذى بالشتاء .

المصري لا يدرك تقلبات الجو إلا في أندر الأحوال ، وهل في مصر جوٌّ يتقلب ؟

دخلت على المسيو دي كومنين وأنا محزون في يومٍ مطيرٍ فقال :

Mon cher ami . aujoud.hui il pleut . demain il fera beau .

ولكن المطر لم ينتظر إلى الغد ، فقد صفت السماء قبل أن ينتهي الحديث .

والمسيو ودي كومنين يلازم سرير المرض منذ أسابيع ، ولم أفكر في عيادته لأني أكره رؤية الآساد وهي مراض .

سمعت أيضًا أن الأستاذ محمد الههياوي مريض ، وأن أطباء مستشفى الدمرادش قد احتجزوه عامدين بعد الشفاء ، لأنهم علموا أن أحد أبنائه مات ، وليس من المصلحة لمريض في د ور النقاهة أن يدخل بيتًا شعاره السواد .

هل يعرف أبناء هذا الجيل أن الههياوي كان أخطر مفنِّد لمشروع «ملنر» في السنين الخوالي ؟

عند الله جزاؤك يا صديقي ، لا عند الوطن ، فقد كدت أومن بأن الوطن المصري لا يحفظ الجميل .

الههياوي مريض ، وسيعافي بإذن الله حين يقرأ هذه الكلمات ، فلعل دواءه في أن يجد صديقًا يذكره بالخير وهو عليل .

ما هذا الجو العبوس ؟ وما هذا المطر الهتُون ؟

وما شقائي بمرض الأستاذ محمد الههياوي ومرض المسيو دي كومنين ؟

وأين الأستاذ محمد عوض جبريل ؟

أين إخوان عرفتهم يوم كانت الدنيا تسمح بأن يأنس صديق إلى صديق ؟

إن الأستاذ أسعد داغر مريض منذ شهرين ، وهو صورة من صور الوداد الصحيح ، فأين من توجع لعلته بقصيدة في جريدة الأهرام ، وهي تنشر قصائد في التوجع لمرضى الروس واليونان ؟

ثم ماذا ؟

ثم أنتهز هذه الفرصة لتوضيح حقيقة غفل عنها أكثر الباحثين فأقول :

ليس في مصر أحزاب بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون ، لأن جو مصر لا

يوحي بالاختلاف كما يوحى بالائتلاف .

وإذن يكون النجاح الحزبي في مصر مقصورًا على الجماعات التي تعرف كيف تأتلف ، وهذا هو الواقع بالفعل ، فما فازت جماعة في مصر إلا بمراعاة ما في الجو المصري من الثبات .

والفرد كالجماعة في مصر ، ففي مقدور كل فرد أن ينجح إذا مشى في طريق واحد إلى آخر الشوط ، أما التنقل من حال إلى أحوال فهو نذير الانحلال .

الإنسان ابن جوه ، وجو مصر لا يعرف التقلب ، ولو راجعنا تواريخ الفائزين في معترك الحياة المصرية لرأيناهم جميعًا من أهل الثبات في الأفكار والآراء .

إن المصري يتكلف ويتصنع حين يرائي ، لأن جو مصر لا يساعد على الرياء .

والحقد الأسود في مصر لا يقع إلا من رجل نَسبُه في مصر مدخول ، وبكلمة واحدة تصفى ما بينك وبين خصمك من أبناء هذه البلاد ، لأن فطرة المصري منقولة عن جوه وهو غاية في الصفاء .

ولكن ما هذا اليوم «الملخبط» ؟

إني أخشى أن يجعل مقالي هذا «لخبطة في لخبطة» !

هو ذلك ، فقد انتقلت من حديث إلى أحاديث بلا نظام ولا ترتيب .

سيصفو الجو ، سيصفو بعد ساعات ، لا بعد أيام

الإنسان ابن جوه ؟

كذلك قلت ، فما بالي أعاني شجونًا تحترب في جميع الأحايين ؟

ما حالي في دنياي ؟ وما نصيبي من الجو المفطور على الصفاء ؟

لا بأس ، فبحرف أو نصف حرف أبدد ما حولي من المصاعب حين أريد ، ولن أريد ، لأن الصراحة في الخصومة معنّى نقلتُه عن وطني ، وأنا لوطني أوفى

الأوفياء.

أعظم عيب في مصر هـو أنهـا لا ترضـى عـن التفـاوت في المواهـب فهـي لا تلتفت أبدًا إلى الأوساط من الرجال في أي ميدان

وهذا العيب فضيلة عبقرية ، ونحن به فرحون .

لن نترك فرصة تمرّ بلا رهان على صحة البنوّة لهذه السماء وما صَحتْ في غير مصر سماء ، فتقشّعى أيتها الغيوم الدخيلة على سماء هذه البلاد

هذا أظرف يوم ؟

نعم هو أظرف يوم ، لأني أسلمت فيه العنان للقلم الجموح .

عندما يوافيني الموت (*)

هذا موضوع مزعج ولكنه طريف ، والموت نفسه طريف لأننا لا نراه إلا مرة واحدة ، نحن الشجعان ، أما الجبناء فيرونه في كل يوم مرات !

يجب في مطلع هذا البحث أن نؤكد للقراء أن الموت أهون مما يظنون ، فإن الذين يعانون سكرات الموت لا يتألمون ، كما نتوهم ، وإنما تأخذهم غيبوبة عميقة لا يشعرون فيها بطعم الموت ، وإن ظن من يحيطون بهم أنهم يقاسون أعظم أهوال العذاب . ومن شك في ذلك فليجرب .

وما بعد الموت ؟ هو أيضًا أهون مما تظنون ، لأن الله أعظم من أن ينصب الموازين لمن ترون من المخلوقات ، ومن أنتم يا بني آدم حتى ينصب لكم ميزان؟ من أنتم وقد عجزتم عن إقامة العدل فشهدتم على أنفسكم بالضياع ؟ من أنتم حتى تفتح لكم أبواب الجنة أو أبواب الجحيم ؟ لقد عرفناكم وعتبنا على الله يوم جعلنا منكم ، وليته يتفضل ، فيذهبكم ويأتي بخلق جديد !

ماذا أقول يوم يوافيني الموت ؟ أترونني أخشع وأضرع وأضعف على نحو ما وقع للشاعر المسكين الذي خاطب صاحبيه ، فقال :

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا ترائبه إني مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي وردا على عيني فضل ردائيا

(*) الهلال – عندما يوافني الموت – زكي مبارك – ديسمبر 1936 ص 145 .

ولا تحسـداني بـارك الله فيكمـا من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خـذاني فجـراني ببـردي إليكمـا فقـد كنـت قبـل اليـوم صـعبًا قياديـا

أترونني أستوحش من الغربة فأقول كما قال هدبة العذري:

ألا علـلاني قبـل نـوح النـوائح وقبل اطلاع الـنفس بـين الجـوانح
وقبل غد يـا لهـف نفسـي عـلى غـد إذا راح أصـحابي ولسـت بـرائح
إذا راح أصـحابي تفـيض دمـوعهم وغـودرت في لحـد عـلى صـفائحي
يقولـون هـل أصـلحتمو لأخيكمـو وما القبر في الأرض الفضاء بصـالح

لن أقول شيئًا مـن ذلـك ، لأن النـاس أهـون مـن أن أشـعر بعـدهم بوحشـة الاغتراب . وهل أنست بهم وأنا أغاديهم في كل صباح ، وأراوحهم في كل مساء ؟!

كنت أجد للدنيا طعما قبل عشر سنين ، يوم كـان لي أصـدقاء وأحبـاب ، ثـم مرت أحداث تبينت فيها أن بنـي آدم لا يرعـون العهـد ، ولا يحفظـون الجميـل ، وأصبحت وأنا موقن أني أعيش في مسبعة لا ألفة فيهـا ولا صـفاء .. ولعـل الله عـز شأنه أراد بي خيرًا – وما أحسبه يريد إلا الخير – لعله أراد بي خيرًا فأراني مصـارع ما أحب من المعاني ، حتى لا يبقى لي يوم الموت شيء أبكيه ، ولماذا نبكي ؟

لقد استرحنا من عتاب الأصدقاء ، وأين الأصدقاء ؟!

ماذا أقول حين يوافيني الموت ؟

سأذكر أنني أديت واجبًا مهما حين حذرت الناس من الناس ، فأنـا مـن أكثـر الكتاب حديثًا عما يعتور بني آدم من الغدر والعقوق ، وسيذكر الناس ما كتبت وما نظمت ، فإن لم يقـرؤوا رسـائلي وأشـعاري فلأمهـاتهم الثكـل ، ولأبنـائهم اليـتم ، ولأزواجهم الأرمال !!

وسأذكر يوم أموت إني كنت غصة في حلوق الأدعيـاء ، فمـا تركـت دعيـا إلا كويت جبينه ، وأقذيت عينيه ، وأنمته على الشوك في رعاية الأفاعي والصلال .

وسأذكر يوم أموت أنني كنت أوفى صاحب وأكرم صديق ، فما جاملني إنسان إلا سقيته الشهد ، وظللته بسحائب العطف ، وأغدقت عليه نمير البر والحنان .

إي والله . سأذكر أنني كنت أوفى صاحب وأكرم صديق ، وستموت يوم أموت شمائل من المروءة لم يعرفها أهل هذه الأرض ، أنا الرجل الذي أعرف صاحبي في النعيم والبؤس ، والمحضر والمغيب ، أنا الرجل الذي أعرف معنى الصدق ، وأفهم معنى الوفاء ، وأجزم بأن الله خلقني خلقة نقية لا نظير لها ولا مثيل ، فإن كان لي ما أبكي عليه يوم وفاتي فهو ذلك المعنى ، سأذكر أن الدنيا كان فيها رجل واحد يشقى ليسعد الصديق ، ويموت ليحيا الصديق .

سأذكر ما بقى من أحبابي في المشرق والمغرب ، وسأهدي إليهم عند النزع آخر ما أملك من التحيات ، ولن يكون لي يومئذ ما آسى عليه إلا انقطاع المقت الذي أصبه على الأعداء ، ولكن هل يأمن الأعداء شري بعد أن أموت ؟ هيهات ، لقد خلدت تحقيرهم في صحائف لن تموت .

أنا أموت ؟ إنكم مخطئون !

لن يذهب من الوجود غير هذا الهيكل الذي يذرع الأرض من سنتريس إلى باريس ، أما زكي مبارك الكاتب والشاعر فلن يذهب أبداً ، ستبقى أفكاري لتعين الشيطان على إضلال الناس .

سأعيش ألوفا من السنين ، وسأغزو خلق الله بغير رفق ، فأثير فيه معاني الشر والإثم والطغيان ، ففي رسائلي وأشعاري ومؤلفاتي أقباس من الضلال هي وحدها خليقة بأن تغمس هذا العالم في أوحال الرجس ، وتلقيه فوق أشواك الارتياب .

فإن ارتاح إنسان يوم الموت لأنه كان رجل خير ، فسأرتاح لأنني كنت رجل شر ، وما يسرني أن أكون ملكا ، لأن الملائكة لطاف ظراف ، وإنما يسرني أن أكون شيطانا لأن للشياطين وجوها بشعة ترتعد منها الفرائص وتنخلع القلوب .

ومن يدريكم ؟ لعلي أجد «وظيفة» في جهنم بعد أن أموت ، أتظنون أن الأمر استقر في دار العذاب ؟ سأجعل هذا من همي فأبحث عن «وظيفة» عند الرجل الشهم الذي اسمه مالك ، ولن أفكر في صحبة الرجل الظريف الذي اسمه رضوان.

فإن وصلت إلى «وظيفة» في جهنم فسترون وستعلمون ، سترون يا بني آدم كيف أكبكم على وجوهكم في النار ، وكيف أعاقب اللصوص في عالم الشعر والنثر والتأليف ، وستعلمون كيف أنتقم من السفهاء الذين يكذبون ويفترون ويظلمون بلا تورع ولا استحياء .

سيمر هذا كله بخاطري يوم أموت ، وأنا لست بالرجل الهين ، فلي دلال على الله ، لأني أقرب إليه من جميع الناس بعد الأنبياء ، فإن كنتم في ريب من ذلك فتذكروا أن ناسًا حلا لهم أن أذوق البؤس ، فنصرني الله عليهم ، وكتب لي سعادة العيش ، وهم راغمون .

سيكون طريقي إلى جهنم بإذن الله ، وسأقيم هناك محكمة أؤدب بها من فاتني تأديبهم في هذه الدار ، وسأصدر هناك الطبعة العاشرة من كتاب « أكواب الشهد والعلقم» لأني لن أصدر منه في هذه الأرض غير تسع طبعات .

ثم ماذا؟ .. سأذكر حين أموت أنني كنت من أكرم خلق الله في رعاية الجمال!

وسأذكر أن الله اصطفاني لهذه الرسالة الروحية حتى صح لي أن أقول :

وكم حبيب براح الريق أسكرني   وكم جميل بورد الخد حياني

سأذكر أني كنت أصدق شاعر ساير نهر النيل ، ونهر السين ، وهل اتفق لشاعر قبلي أن يقضي في صحبة نهر السين ألف ليلة ؟ إن ميسيه نفسه لم يصنع ما صنعت ، ولا مرتين لم ينعم برحيق السين كما نعمت . لقد كان السفهاء يظنون أني أقضي الليالي على شاطئ السين لأفر من تكاليف المراقص والملاعب ، وفاتهم أن صحبتي لنهر السين كانت صحبة وجدانية تركت في فؤاد ذلك النهر أعنف

الأشواق إلى فتى سنتريس .

سأذكر يوم أموت أنني كنت شاعر الحب والجمال ، وأنني عبدت الله أصدق العبادة ، فقد أثنيت مخلصًا على ما صنع وما أبدع حين جعل الدنيا غرائب وعجائب من الصنع البديع .

وإن كان لي ما آسى عليه فهو الحزن الموجع على أن لم يتلطف الله فيجعل الدنيا كلها شارعا واحدًا اسمه «بولفار سان ميشيل» إي والله سأتحسر وأتوجع على مصير بني آدم الذين كتب عليهم أن يمشوا في شوارع لا تقع فيها العين على وجه أصبح ، ولا قوام رشيق .

سآسى عليكم يا بني آدم حين أموت فقد كان في نيتي أن أسعى لتحقيق فكرة السوبرمان لتعيشوا في دنياكم عيشة شعرية ، ولكن ماذا أصنع ؟ لقد أراد الله أن يكون في الدنيا قبح ولؤم وشح وإسفاف ، وأنا كما تعلمون لا أملك فسحة الأجل ولا طول البقاء .

سأتحسر يوم أموت على ضياع هذه الثروة الشعرية التي تمرح في قلبي ووجداني ، ولن يكون لي إلا عزاء واحد : هو أن الله شاء أن يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان ، لأن العالم لا يستحق أن يحيا فيه قلب مثل قلبي ، ولا يستأهل أن يعيش فيه رجل يملك ما أملك من عظمة النفس وقوة الروح .. والعالم بعدي هباء في هباء .

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

أترونني أبكي على أطفالي ؟ هيهات ! لقد ورثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة وحين أفهمتهم أن العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء ، فإن تسلحوا بالقوة فقد انتفعوا بما ورثتهم ، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة ، وأنا منهم برئ .

وقد عودت أطفالي أكل اللحم في كل يوم لينشأوا على قسوة الحيوان

المفترس ، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا ، وللضعيف الضيم والهوان .

وقد نشأت في قوم أقوياء ، وكان أبي أشجع رجل رأته عيني ، وكان أجدادي وأعمامي من نماذج القوة والبطش ، ولم يكن فيهم رجل مظلوم ، وإنما كانوا دائما ظالمين ، فإ، شاء أبنائي أن يكونوا لأبيهم وأجدادهم وأعمامهم ، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء ، وإن ضعفوا فليذهبوا غير مأسوف عليهم .. وفيهم بحمد الله فتيان يقرؤون هذا الكلام ، فليعرفوا أن أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوي النفس ، وليتذكروا أن أباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو أشجع الرجال .

أما بعد فسأذكر يوم أموت حقيقتين : الأولى أن الموت مظهر العدل ، لأن الناس جميعًا يموتون ، وسيستوي الحظ بيني وبين الرجل الظريف الذي كان يركب معي (المترو) وفي ثوبه وردة حمراء ، ثم دارت الدنيا فصارت سيارته تخطف بصري وأنا على قدمي في الطريق .

والحقيقة الثانية أهم وأعظم ، فسأستطيع الإفصاح عما لم أستطع الإفصاح عنه في مجلة الهلال وجريدة البلاغ ، سيرفع الحجاب بيني وبين الله ، وسأسأله بلا تهيب : كيف رضى أن يخلق بعض من خلق في هذا الوجود ؟ . متى أراك يا رب الأرباب . ليطول بيني وبينك الحساب ؟

أأنت الذي جعل هذه الدنيا وردًا سائغًا للكاذبين والخائنين ؟ أأنت الذي قضى بأن يكون في الدنيا شح ولؤم وغدر وعقوق ؟

أخشى أن تغلبني في الجدال والحجاج ، ولكن يعزيني أنه لم يغلبني أحد غيرك ، وأنا رجل كريم لا يسوءني أن ينتصر من أحب ، وإليك الثناء من أشرف من خلقت .

غراميات زكي مبارك

المرأة في حياة زكي مبارك

كان الدكتور زكي مبارك عاشقًا واله القلب قوي العاطفة قضى حياته يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة ، وقد طاب له أن يفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه فملأ الدنيا غرامًا وتشبيبًا ! ..

وقد جعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود ، فعاش إلى آخر نسمة من حياته يتشوف إلى أفنان الجمال ويغرد للحب ! ..

وقد أطال شاعر الحسن والجمال حديثه عن بلائه في الحب .. وكيف لا يشقى بالحب من ظل يهتف للحب ويغرد للجمال طيلة حياته ؟ ..

كان صادقًا في حبه غاية الصدق ، وقد رسم صورًا عذبة صادقة لخفقات قلبه وترانيم وجدانه ..

ولكن ما رأى زكي مبارك العاشق المفتون في «الحب» ؟

رسم صورة رائعة ساحرة للحب تفصح عن نفسية مشرقة مضيئة ، تفهم الحب فهمًا دقيقًا ، وتصوره تصويرًا قل أن يتاح إلا لمحب عركه الحب ، ولمس أعماقه وسبر أغواره ومس شغاف قلبه ! ..

وهذه هي فلسفة زكي مبارك في الحب كما صورها في هذه اللوحة الشاعرية الساحرة [1].

---

(1) الهلال : تجاربي في الحب : أول يناير 1937 .

«الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس » .

«الحب لغة روحية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح إلى الروح ، وتسري نشوتها في الأفئدة ، سريان الصبا في الغصن » .

«الحب معنى نبيل ، في لفظ نبيل ، الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس ، الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفيض به الوجود في ليلة قمراء ».

«الحب أرق وأنضر وأطيب من مطلول الأزهار ومنضور الرياحين » .

«الحب نغمة حلوة عذبة تناغي السرائر وتناجي القلوب» .

«الحب هو الكأس التي عناها سلطان العاشقين إذ يقول :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء

ونور ولا نار وروح ولا جسم

على عمره فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها نصيب ولا سهم

«الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ـ أو بؤس يلبس ثوب النعيم » .

«الحب عاطفة عاصفة ماحقة ما يدري الرجل أهي نعمة أم نقمة ، ولا يعلم أهي هدى أم ضلال ، وإنما يعرف أنها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الجبال ».

«الحب هو إئتلاف روحين وامتزاج قلبين ، وانسجام نفسين » .

«الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الحنان ، وأن تأنس الأسود إلى فتك الظباء » .

«الحب هو أن تصير قلبا شفافًا تجرحه النظرة ، وتفتنه الخطرة ، ويأسره الضلال » .

«الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب » .

«الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل الحب » .

«نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود ، وما قيمة الدنيا إذ خلت من الحب ؟ وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟

«الحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء .. وهو يساور قلوب الجنود ، في أصعب أوقات الحروب ، والجندي الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدا للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن الغالي لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب ».

«الحب جده جد وهزله جد ، ولا يتجاهل هذه العاطفة النبيلة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تكوين الوجود » .

«وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب » .

«إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية ، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب ، فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في كل ما أرى وأسمع » .

إن قوة العاطفة عند شاعر الحسن والجمال هي التي أملت هذه الأحاديث الوجدانية الصادقة ومنحتها الجمال والأصالة والعذوبة ، بحيث يعد هذا الأدب من أعمق وأجمل ما كتب أديبنا العاشق حتى بعد أن جاوز طور الشباب ، فقد ظل شاب القلب والروح حتى آخر نسمة في حياته .

إيفا

وهذه إحدى الحسان الألمانيات التي وقع زكي مبارك في غرامها أثناء دراسته في باريس وقد تعرف عليها في دروس المسيو (توتلا) أستاذ الأدب الألماني

بالسربون وكانت دروس هذا الرجل تستهويه كل الاستهواء . فقد كانت تنقله إلى آفاق من الفكر لا يصل إليها في صحبة رجل سواه وفي هذه الدروس عرف سيدة ألمانية لم تكن مع زوجها على وفاق وكانت فيما حدثته من شاعرات برلين ويقول زكي مبارك (وكانت ملامحها وشمائلها تشهد بأنها على صلة وثيقة بشياطين الشعر الجميل ويظهر أن الزوجية قيد لا يستريح إليه بعض هذا النوع من الجنس اللطيف ولم يكن للشاعرة بد من رجل تشكو إليه جهالة زوجها الغبي البليد ، فهدتها الفراسة على أن أذني أصلح الآذان للترحيب باغتياب الأغبياء والبلداء ، وكذلك أخذت تصب في أذني شكايات هي أعذب وأخطر من صهباء الرضاب .. كنت أعرف أن الغيبة من الكبائر ، وأن السامع شريك القائل في الإثم ، ولكن نسيت الأدب مع الشرع ، لأن تلك الكبيرة كانت تساق إلى أذني في لغة فرنسية ملحونة وأنا أعبد اللحن في اللغة الفرنسية إذا صدر عن الألمانيات الملاح ، وهل في الدنيا لغة أحلى وأعذب من لغة باريس حين تمضغها ظبية من برلين ؟ واتفق في تلك الأيام أني كنت مشغول الفكر والقلب بدرس طوائف الشعراء العشاق منهم ألفريد دي ميسيه ، وقد كتب في تأريخ هواه عشرات من المؤلفات الجياد ، فحدثتني النفس بأن أحج إلى قبر ميسيه مع تلك الألمانية الحسناء ولأذوق حلاوة النجوى في رحاب ذلك (الشهيد).

وكذلك مضينا إلى مقبرة بير لاشيز في صباح يوم مطير لا يدفع غيومه الثقال غير ما في قلبونا من صفاء ثم يقول :

(وما هي إلا لحظات حتى التفتت رفيقتي فرأت عيني مغرورقتين بالدمع ، ورأتني لا أطيق الجواب من فطر الحزن والذهول وصوبت الرفيقة بصرها إلى ما صوبت إليه بصري فرأتني أحدق في لوحة رقمت فوقها هذه العبارة الصارخة :

-فرنسا تذكري- وهي عبارة مسطورة فوق قبر رجل استشهد في الدفاع عن الإلزاس أيام حرب السبعين .

فقالت : وماذا يهمك من هذه العبارة ؟ فأجبت : أشتهي أن أوجه مثل هذه

العبارة إلى وطني) .

ماري

ومن مغامراته العاطفية في باريس تلك المغامرة الطريفة .. في ذات صباح جلس الدكتور زكي مبارك في قهوة الدوم في حي مونبارناس .

(فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلا فانيا ، فأخذت أداعبها بنظراتي ، وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ، وكانت الفتاة تفهم عني فتعبس تارة وتبتسم تارة وفقًا لسياق الحديث ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إلى أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟ .. وقد أزعجني السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت في كل أدوار شبابي أبغض الذهاب إلى الشرطة ، ولو لتأدية شهادة ، وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبي ، وأعفاني من ذل الاستجواب في مراكز البوليس .. وكنت في تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتعلثمت وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرني ماذا تريد ؟ فجمعت قواي وقلت : سيدي ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلا وقال : ومن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت : هو الذي يقول:

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال :

ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ قلت إن سمح سيدي ..

فقال : لا مانع

ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتي ركبتي الفتاه رباه ! متى تعود أيامي..؟

وفهمت أنه شاعر سويسري ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مصدر الوحي .

وتلطف فقال أنه يسمح لي بمصاحبتها حين أشاء .. فقلت : عفوا يا سيدي ، فجيبي يعجز عن تكاليف الحب .. فقال : لك الحب وعلى التكاليف .

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخي في الأزهر الشريف .. وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود .. ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل ، فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالي ؟ .. فكنت أقول مثلا : رأينا بارك سان كلو ، وطربنا لجمال الطبيعة هناك فيقول : ثم ماذا ؟

فأجبت : ثم رجعنا فيقول في ألم وسخرية : وهذا كل ما صنعتم ؟ .. وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول – أؤكد لك يا مولاي أن المسيو مبارك ليس من العقلاء .. وكان يدهشني أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما افترعنا من المغامرات .. رباه متى تعود أيامي ؟ ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر . ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف) .

***

مادلين

وهذه ملهمة أخرى اسمها مادلين عرفها في باريس وكانت بينهما قصة حب ويتحدث عنها فيقول :

(أتحدث عن روح لطيفة عرفتها في باريس .. روح جميلة لها في حياتي تاريخ وتواريخ وكان اسمها مادلين فسميتها ليلى ودعتني في محطة ليون ، وأرسلت لي برقية على الباخرة (شامبليون) ثم أخذت مادلين تواليني بالرسائل اللطاف ، وبلغ بها الوجد مبلغًا قضى بأن تنظم الأشعار في حبي حتى شاء هواها أن تزور القاهرة

لتراني .. فلما لقيتني قالت : متى نتزوج ؟ فقلت لها أنني متزوج ولي أبناء) .

***

سوزان

ويذكر أنه تعرف على فتاة غريبة الروح في باريس وقد تركت دينها لتعتنق الإسلام بعد مصاولات روحية عنيفة بينهما وقد أطلق عليها ليلي المريضة في باريس) . ويقول زكي مبارك :

ستأسو عذارى النيل آثار ما جنت عليك عذارى السين حين تعود

وغير هذه قصص ومغامرات عاطفية عاشها في باريس وسجلها بصدق وأمانة وحرارة حتى حق له أن يقول :

(لو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لي ضريح يزوره العشاق في باريس) .

جنية الشاطئ

وكانت للدكتور زكي مبارك غراميات عديدة في مصر موطن الهوى والجمال فكانت له محبوبات في الزمالك ومصر الجديدة والمعادي وجاردن سيتي والمنصورة والإسكندرية وستريس .

وفي الثغر الجميل في الإسكندرية كانت له غراميات وأحباب .. وهذه قطعة وجدانية رفيعة ترسم صورة لإحدى محبوباته في الثغر الجميل (غناء وغناء) ومنها يصور مبلغ إحساسه بالوحشة والاغتراب لغياب المحبوبة وهي تصوير لقلبه العاشق المفتون ويرحم الله أرباب القلوب .. يقول في تلك القطعة الوجدانية الرقيقة .. (في مكان يستبق إليه ضياء الشمس ونور القمر ، وهدير الأمواج وقفت أنتظر وفاءً بميعاد هو الميعاد .

وأقبلت الروح الملائكية في سمة إنسانية ، كما يطيب للملائكة أن تتشكل بصور الناس في بعض الأحيان .

ودار حديث أعذب من رنين الكؤوس ، وأرق من وسوسة الحلي ، في لحظات الصفا ثم دار عتاب ، كعتاب القلوب للعيون ، فماذا قلت وماذا قالت تلك الروح ، وقد أصغى البحر واستمع الوجود ؟ لو تجمع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال ، ولو اعتصرت الحياة ما يجري في أعوادها من رحيق الحب ، لكان هذا وذاك دون ما أضفينا على الكون من بهجة النعيم ولو دعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن تقضي العمر في شكران من قضت حكمته بأن يجعل الحب سيطرة روح على روح وانجذاب روح إلى روح .

كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب سرار القلوب ، وكان القمر بفضل عليائه أشرف من أن ينم عن خلوة حبيب بمحبوب ، في شهر يونيه تقوم غمامة تحجب القمر في لحظة لا تنتظر ظلال السحاب .. فنفهم أن للحب والشعر آلهة ، كما تقول أساطير القدماء .. كانت الدنيا كلها في يدي وكان هواي هو الهوى وزماني هو الزمان ، وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف ، وهل يعرف أحد ما لغة الأنفاس الحرار ؟ وكيف وما كانت اللغات إلا تعابير عما يجوز البوح به من سرائر الأرواح ؟ وأين اللغة التي تعبر فرضا بالحب في تلك اللحظة الوجدانية ؟ أين أين ؟ وهي لحظة ما ظفر بمثلها عاشق في قديم ولا حديث ؟ هي زاد العمر كله فليتمرد الهجر كيف شاء بعد ذلك الوصال .. لو مرت تلك اللحظة بالناس في ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف ، ولكن من السهل أن أشرح ما يوصى به ذرع (الرمل) على نعمات الموج في صمت الليل .. ثم نفترق ، فمتى نلتقي يا روحا لا يحيا بدونه روحي ؟ .. للوجود كله غناء ولنا وحدنا غناء ، وروحك هو غريد البلبل وحفيف النسيم ، وهدير الموج ، وعربدة الكهرباء ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق ، وهذه إشارة لا يفهمها غير أساري هذين النورين في (دار الوجد والمجد) عليها أطيب التسليمات .. فمن فاته أن يعرف سر هيامي بوطني فليقرأ هذه السطور بروحانية وإخلاص .

الإسكندرية هي المثال المصور لسرائر النعماء ومن لم يزر الإسكندرية فليس

من حقه أن يزعم أنه عاشق لحظة من زمان .

ولي في الإسكندرية دار تشكو جفائي ، ولم أكن من الجافين ، دار أساورها بلا استئذان حين أريد كأنها دار الهوى في سنتريس أو بغداد أو باريس .

في الصبح قرات مقالاً في جريدة الأهرام عن إيطاليا بعد ثلاث سنين فتذكرت أني عرفت تلك الروح في اليوم الذي أعلنت فيه إيطاليا الحرب قبل ثلاث سنين وما أبعد الفرق بين إيطاليا وبيني ! ..

مرت بها موجات هزمتها ومرت بي موجات نصرتني ؟ أفي الحق أننا لم نتعارف إلا قبل ثلاث سنين ؟

أنت يا جنية الشاطئ رفيقة روحي منذ أزمان وأجيال ، وأنت مناي من الهوى قبل أن يتنفس صبح الوجود .. لابد للإسكندرية من حبيبين ، فلنكن هذين الحبيبين ، ولتفرح بنا الإسكندرية فرح الليف بالأليف .. يا مثال الحسن ومثال اللطف ، ويا ريحانه مطلولة في صباح من أصبحة أذار ! ..

يا تلك الروح في تلك المدينة تذكري ثم تذكري .. تذكري (سبعة أبحر) في لغة العراق و(سبعة أرادب) في لغة السودان ، وتذكري الأبيات التي أمليتها من لغة الفرنسيين وإلى اللقاء في شباب الوجدان ...) .

ما رأيكم في هذه العاطفة الجياشة ؟ ألا تشمون عبيرًا غامضًا أخاذًا .. ارجعوا إلى هذا القصيد السيمفوني مرة أو مرتين أو مرات ثم اسألوا أنفسكم : كيف لون هذه اللوحة الفنية تلوينًا أخاذا قضت بأن نغيب في نشوة علوية سامية ؟

ملهمة الإسكندرية

وملهمة أخرى تعرف إليها في الإسكندرية وعشقها عشقًا مبرحا وأبدع الغناء .. وهذا الحب الجديد يصور حقبة من حياة الدكتور زكي مبارك عندما نشبت أوار الحرب العالمية الثانية في نهاية سنة 1939 فملأت هذه الملهمة فراغ حياته

وألهمته أن يبدع صورًا شعرية فريدة في هذه المحنة العصيبة .

كتبت إليه هذه الملهمة خطابا تقول فيه أنها مضت إلى الإسكندرية لتصطاف وأنها تحب أن تراه هناك وفي وسط الحرب والغارات الجوية تزعج المصطافين أشد الإزعاج أسرع الدكتور زكي فسافر وبحث عنها في الشواطئ إلى أن اهتدى إليها وهي تسبح في مياه البحر بقوامها الرشيق .. فقضيا العصرية في نزهات مختلفات . وبعد المغرب أشار إليها أن يقضيا السهرة في منزله ليسترها من ضجيج الجنود في أوقات الشراب وقالت وهي تنصرف : لقد شعرت بسعادة عظيمة لقاء الليل بالقرب منك وأرجو أن أظفر مرة ثانية بمثل هذا الحظ السعيد (رجعت إلى الإسكندرية بعد أشهر الشتاء في العنفوان ، رجعت وحدي ، فانقبض صدري ، وشعرت بوحشة تزلزل القلب أعنف الزلزال .. وأخذت أسرى عن نفسي بمطالعة كتاب (الأسمار والأحاديث) وفيه نسخة مقيمة بمنزلي هناك ولكنني أفاجأ بالعواصف تثور من جميع الجوانب وتكاد تقتلع البيت ، فأطفئ النور ، وأفتح الشبابيك ، لأرى كيف يكون هول الرعود والبروق والأمطار في ظلام الليل .. والمكان نفسه موحش لأنها ليست فيه فكيف لا يوحش مع تلك الأهوال .. ؟

وكانت أخبار هذه الملهمة انقطعت عنه ثلاثين يوما مع أنهما كانا يلتقيان في جميع أيام الثلاثاء .

(لقد عشقت تلك العصفورة عشقًا لم يسبق له مثال . كان تلاقينا بمصر الجديدة وفي أيام الثلاثاء تلاقى شخوص تتحارب بالعيون . ولكن التلاقي روحًا على روح لم يقع إلا بمنزلي في الإسكندرية بالقرب من هدير الأمواج .. إن الشوق إلى تلك العصفورة يعتصر قلبي . كيف كنت أعيش لو لم تنبت هذه الزهرة في صحراء حياتي ؟ وكيف كنت أعيش لو لم تلمع هذه النجمة في ظلماء وجودي ؟

رسائل الحب والجمال

رسالة وجدانية

ألوان وألوان «للكاتب المجهول» (*)

مولاتي !

كان الظن أن ينتهي ما بيننا بعد الجدال الذي ثار في الليلة الماضية ، أو السنة الماضية ، فما أدرى متى التقينا آخر مرة . وكيف أدرى واللحظة القصيرة من الفراق تتمثل لقلبي وكأنها أجيال وتواريخ ؟

كان الظن أن ينتهي ما بيننا فلا تعود أحلامه ولا أهواله ، ولا ترجع أيامه ولا لياليه ، ولا يمر بالخاطر في لحظة من زمان .

كان الظن أن نفترق ، بعد أن تشهينا أن نفترق ، ومعاقرة الكأس توحي بصدع الكأس فكيف أراجع هواك يا ظلوم ، بعد أن نويت المتاب ، على أعظم حال من الشوق إلى المتاب ؟!

قد تشهينا أن نفترق ، فمتى نفترق ؟ ومتى نذوق طعم الأمان من عدوان الأشجان ؟

كان اللقاء الأخير بلية من البلايا المواحق ، فقد تناظرنا بشراهة تفوق الوصف ، وكأننا نريد أن نلتهم ما بقى من زاد الحب ، وأن نتزود للأعوام البواقي ، وأن نقول إننا لا نواجه بيداء الصدود بغير زاد .

لقد أخطأنا فيما صنعنا ، والمحبون أطفال كبار لا يدرون عواقب ما يصنعون

(*) الكاتب المجهول وكاتب كبير : هو زكي مبارك .

من مرارة الافتراق ، وهو غير الفراق !

لن ينقضي ما بيننا أبدًا ، ولـن تبيـد تلـك الألـوان ، ألـوان الأثـواب وألـوان القلوب .

كنت تلقيني في كل مرة بثوب جديد ، وكنت ألقاك في كل مرة بقلـب جديـد ، وما أبعد الفروق بين ألوان الأثواب وألوان القلوب !

لن ينقضي ما بينا أبداً ، وبالرغم منى أن يكون ما بيننـا أوثـق ممـا بـين العـين والضـياء ، فلـك بـدوات تجعـل الإيمـان بحنانـك أضـعف مـن الإيمـان بأمانـة المحتالين .

لم تكن لي يدٌ فيما صرنا إليه ، فقد فررت من هواك ألـف مـرة ، وانتقلـت مـن محلة إلى محلة ومن إقليم إلى إقليم ، لأنجو بنفسي ، فهل نجوت ؟

إن الشمس تلاحقني حيثما توجهت ، فأين الفرار من وهَج الشمس ؟

لا المتاعب الشخصية تشغلني ، ولا الحوادث الدولية تشـغلني ولا شـيء في الدنيا يصرفني عن التفكير فيما صِرت إليه بعد الافتراق ، يا أجمل ريحانة في روض الوجود .

ألـوان أثوابـك لا تفـوق ألـوان قلبـي ، إلا أن يقـال إن المصـنوع أجمـل مـن المطبوع.

ألوان ثوبك لها أمثال ، وليس لقلبي أمثال ، وأنت تعرفين ثم تعرفين .

إذهبي إلى أبعد الآفاق ، واعرفي جميع الخلائق، فلن تكوني لغيري أبـدًا ، ولـن يكون للغواية سبيل إلى المليحة التي وسمت جبينها بغرامي .

لن أجود عليك يومًا بنعمة الحرية ، وستظلين في إساري إلى آخر الزمان .

جرّبي التحرر ، جربيه ، إن كانت لك بالتحرر ومن ثاقي يدان .

دنياك بعدي بئرٌ مسمومة ، فانظري ما تصنعين .

لن ينقضي ما بيننا أبدًا ، ولن يكـون لنـا غيـر مـا خُـطَّ في صـحيفة الخلـود ، وهيهات ثم هيهات أن يمحي سطرٌ خطَّته الأقدار في صحيفة الخلود !

ما في كل يوم ، ولا كل عام ولا كل جيل ، ينعطف قلب إلى قلب كما ينعطـف قلبك إلى قلبي ، فنحن الغاية المنشودة من الوفاق الصحيح بين الأرواح والقلوب.

دنيانا التي أعرف وتعرفين أصبحت قفراء ، فمتى نلتقي لتعود زهراء ؟

خبريني متى نلتقي ؟ ومتى نعلن الانتصار على عوادي الزمان ؟ لطف الله بـك يا ظلوم ، وحفظ عليك نعمة الوجه الوهاج .

متى نلتقي ؟ وهل افترقنا ؟ أنت بين يديْ وإن حجبتْك عني فيافٍ وسهوب .

«الكاتب المجهول»

لقد هان هذا الخطب ! (*)

للكاتب المجهول

لقد هان هذا الخطب ، وما كنت أنتظر أن يهون ، ولكن الدنيا بصروفها الغرائب تهوِّن الخطوب ، وكان من شيمتها أن تجسِّم الخطوب !

هان خطب القطيعة ، هان ثم هان ، واستشعرتُ رَوْح الخلاص ، وكنت أبغض الخلاص ، فيا عجبًا لزمن يجعل بعدي عنكم شهوة يطمح إليها فؤادي !

ما بكيت على نفسي حين ودعتكم ، وإنما بكيت عليكم بكيت على دولة الحسن التي ذهبت إلى غير معاد ، وبكيت على اللطف الذي حُرِمتموه كما تحرَم الزهرة من العِطر بعد الذبول .

ما تمثلتُ أيامكم إلا تعجبت مما تصنع الدنيا بأهلها ، فما كانت لكم نظائر في الحُسن واللطف ولا كانت لكم أشباه في سماحة النفس وصفاء الروح .

وبكيت أيضًا على نفسي ، فهذا مُلك ضاع من يدي ، مُلكٌ أضاعه الدهر الغادر الذي لا يُبقي على شيء ، والذي يستمد سطوته من قدرته على إدالة دولة اللطف والجمال .

حُرِمتُ بقطيعتكم آخر أمل يرجوه من يقف على المقابر ليؤدي التحية إلى أموات يحسبهم أحياء يتلقون تسليمات الأحياء .

(*) الرسالة : 28 فبراير 1944 .

المقابر تسمع ولا تجيب ، وأنتم تجيبون ولا تسمعون بدليل أنكم تخطئون في الجواب .

لو أنني كنت البادئ بهذا الحب لرأيت لكم عذرًا في الصدوف عني فما يتصدَّق الأغنياء على الشعراء في كل وقت ، وإنما كنتم البادئين وهذا فضلٌ لن أنساه إلى آخر الزمان ، فكيف تهدمون ما بنيتم ، وكان غاية في متانة البناء ؟

هل تعود ليالينا ؟ هل تعود ؟

لن تعود لياليَّ معكم يا غادرين ، لأنكم لم تعودوا صالحين لإدراك ما يشتجر في قلبي ، ولأن هواكم قد مات ، وما كنت أحسب أنه مما يجوز عليه الموت ، وقد كذبت على نفسي حين توهمت أن الهوى لا يموت .

وأنا مع هذا فرح جذلان ، لأني واثق بأنكم لا تعانون من آثار القطيعة بعض الذي أعانى ، ومن هواي أن تكونوا في عافية من ثورة الوجدان ، لتعيشوا في سلام .

هل كان حبنا مزاحًا جد به الزمن فانهزم ؟

أنا كنت أجد ، وما خطر في بالي أنكم كنتم هازلين وجِدَّ الهوى جد ، وهزله جد لو كنتم تعقلون .

هل كنت حين أناجيكم أناجي وثنا بلا روح ؟

لو ناجيت الصخر لأنطقته بألطف المعاني ، فكيف عجزت عن رياضتكم على الوفاء ؟

ما أشد حزني على ما ضيَّعتُ من لياليَّ وأيامي !

لم نكن نعرف ما النهار وما الليل

أيامَ لا أدري وإن سألتِ ... ما الفرقُ بين جُمعة وسبْت

ولم نكن نعرف أن للدنيا غدرات ينبو فيها جنب عن جنب ، وقلب عن قلب ، فترحلون عن مصر الجديدة إلى حلوان ، وهي بهجركم أبعد من أسوان .

لو كنت أعرف أن فيكم خيرًا لجعلت داركم داري ، ولو سكنتم في مقبرة تُشرف على عالم الفناء ، ولكن القدر أراد ما أراد فانتزع حبكم من فؤادي ، فأنا اليوم بلا حب وبلا فؤاد .

إن إقامة صرح فوق أثباج البحر أبقى وأثبت من الحب الذي أقمته فوق روحكم ، والرُّوح من الرُّوح وهو النسيم ، وليس للنسيم ثبات .

انقضى عهد الحب ، انقضى بالرغم منى ، فما فارقتكم إلا بعد أن صح عندي أن هواكم لم يكن إلا أسطورة لفّقها الخيال .

أينتهي غرامنا بمثل هذه النهاية فلا أسأل عنكم ولا تسألون عني ؟

وهل كان البهاء زهير ملهمًا حين عبَّر عما أريد فقال :

ملكتموني رخيصًا فانحط قدري لديكم
فأغلق الله بابًا دخلت منه إليكم
حتى ولا كيف أنتم ولا السلام عليكم

لن نتصافح إذا التقينا مصادفةً في شارع فؤاد ، فالمصافحة من الصفح ، ولن أصفح عنكم أبدًا، ولو ضمنتم أن تعود معكم أيامي السوالف ولياليّ الخوالي .

أنا فرح بما صرتم إليه ، فقد أنجاكم الله مما ابتلاني .

ولكني حزين مما صرتم إليه ، فلن تعانوا اشتجار العواطف بعد فراقي ، واشتجار العواطف هو أثمن ما تتغذى به القلوب .

وإني لأشكر لكم صنيعكم ، فقد رحمتموني من هاوية كنت سأتردى فيها إن طال حبي لكم ، وكان ثورة وجدانية تزلزل أقطار السماء .

انتهينا من العتاب ، أليس الأمر كذلك ؟

وانتهينا من ليالي مصر الجديدة وليالي حلوان ، وانتهينا من الظُّهريات الجميلة بحديقة الشاي في حدائق الحيوان .. هل تذكرون يا غادرين ؟

وانتهينا من جمع كُسارات الكأس المصدوع ، في تلك الليلة ، وهي ليلة لن تعود ، ويا ليتها تعود ، فلو صرتم رمة بالية لرجوت أن أستروح منكم روح العطر النفيس .

لا تسألوا عني بعد اليوم ، فقد تُبت توبة نهائية عن الغرام بالتماثيل ، وهي بلا أرواح .

أنا أحسنت الظن بمن لم يكونوا لحسن الظن بأهل ، فلتعاقبني المقادير بما تشاء ، وعدلٌ من الله كل ما صنع ، كما قال أستاذنا العباس بن الأحنف ، عليه رحمة الحب !

كانت غايتكم أن تستأثروا بقلبي ، وقد حاولت النجاة بقلبي فلم أفلح ، ثم كانت العاقبة أن نصير إلى ما صرنا إليه ، وما أفظع ما صرنا إليه ؟

الغدر مسخكم فأحالكم صورة ميتة برقشتها ريشة رسام جهول .

هل تذكرون تأريخ العيون الكحيلة ، وكانت أجمل ما رأت العيون ؟

استفتوا المرآة ، ثم حاسبوا ضمائركم ، إن كانت لكم ضمائر لتعرفوا أن سواد عيونكم لم يكن إلا منحة خلعها عليكم سواد قلبي ، وهو قلب يمنح الرهبة والسحر لسواد الليالي وسواد الخيلان .

وقد استرددت تلك المنحة بعد أن أيقنت أني خلعتها على من يكفر بالجميل ، ولست أغني من الله مع غناه عن الثناء يؤدب من ينعم عليهم فيطالبهم بالثناء .

تخطَّروا إن شئتم في شارع فؤاد ، وانظروا هل تلتفت إليكم عين أو يخفق لكم قلب ؟

أنا أبدعتكم إبداعًا لا نظير له ولا مثيل ، وغاب عنكم جميلي فجحدتم جميلي ، وغضبة الله والحب على من يجحد الجميل .

لن أبكي عليكم ، ولكني سأبكي على أخلاقي ، وهي جديرة بالبكاء .

كنت أعتقد أني من رجال الأخلاق ، ثم ظهر أن في صدري غريزة وحشية تشتهي الاقتتال والافتراس ، وإلا فما الذي يمنع من أن أنتصر على كبريائي فأسعى

إلى داركم لأسأل عنكم ولأخلع عليكم بياض الوجوه وسواد العيون ؟

كنت أبدع البشاشة في أرواح الملاح ثم صرت المنتقم الفاتك بأرواح الملاح ، فما أفظع جُرمي ، وما أسوأ صنيعي !

سأقتحم داركم بعد أيام أو أسابيع ، فما أدرى متى أنتصر على كبريائي .

انتظروني ، انتظروني ، لتعرفوا أن خطب الفراق لم يَهُن ولن يهون .

سأصافحكم بيدي ، ألم أحدثكم أن المصافحة مشتقة من الصفح ؟

غفرت ذنوبكم ، غفرت ، ثم غفرت ، وأنا أول من يغفر ذنوب الجمال .

عَرْبَدَ الحُسن بكم فأسأتموني ، والحسن عِربيد ، ومن واجبي أن أغفر ذنوب العرابيد .

كان لي منكم تاريخ هو أجمل التواريخ ، وكان رزقًا ساقه الله إليّ ، والله حين يتفضل يمنح بلا حساب .

أنا لا أعرف متى نتصافح ، لأن هذا لن يكون إلا بعد أن أتنازل عن كبريائي ، وهذا أملٌ بعيد المنال .

سلامٌ عليكم يا أحباباً وفَوْا ثم خانوا .

أنا أعبد الجمال ، على شرط أن يعرف الجمال حقوق الوفاء.

لن أزور داركم أبدًا ، ولن أراكم ولن تروني ، فقد حلّ عليكم غضبي وغضب العاشق الصادق نقمة تنزل من السماء .

شرِّقوا وغرِّبوا في طلب المستحيل ، فصفحي عنكم هو المستحيل .

سأبدع بدائع جديدة ، وسأخلق في دنيا الحب مالا تعلمون ، فتناسَوْا عهدي ، لتعيشوا في أمان ، من جزع الوجدان .

لن تستطيعوا الفرار من انتقامي ، ولن تتخطروا بعد اليوم في شارع فؤاد ، ولن تكونوا نهبة لأعين الحاسدين ، وألسن العاذلين ومن حق من يَخلق أن يُميت .

سلامٌ على الهوى وسلامٌ عليه ، وألف سلام .

***

أنتم تمردتم على سجن الحب ، فتمتعوا بالحرية التي اشتهيتموها جاهلين بالعواقب ، فما يتمرد على سجن الحب غير الصائرين إلى الفناء ...

كانت كلمتكم في ساعة التمرد : Vous disposez de moi

وهذا صحيح ، فقد كان من حق الهوى أن أتصرف تصرف الملك بالملوك .

لا تظنوا أنكم خرجتم من يدي ، ولا يخطر لكم في بال أني سأترك واجبي في دفن حسنكم الذاهب إلى غيابات الفناء .

هان خطبكم ، ثم هان ، وما كنت أحسب أنه سيهون، ألم أقل إن الدنيا تصنع الغرائب ؟

أنا واثق بأنكم سترجعون إليَّ قبل أن أرجع إليكم

الشعر عندي والجمال عندكم ، والشعر أفتن من الجمال .

أما بعد فمن أنتم ؟

أنا أعرفكم بأكثر مما تعرفون أنفسكم ، فقد كنتم الغاية لما تشتهي الأرواح والقلوب ، وما اشتهيت عيناي أفضل مما اشتهيت منكم ، يا نهاية النهايات في سحر العيون .

أنا بنيتكم بيدي ، ولن أهدمكم بيدي ، والباني لا يكون من الهدَّامين .

سلامُ عليكم ، فما ألقاكم إلا إن تنازلت عن كبريائي .

احرسيني يا ليلي ، احرسيني ، قبل أن أقول : « عليك مني السلام» .

«الكاتب المجهول »

إلى ....

مولاتي

إليك أقدَّم نجوى القلب وحنين الروح ، ثم أعتذر عنك إن سمحتِ ، ففي رسالتك الكريمة ألفاظ تحتاج إلى اعتذار ، فليس من الصحيح أني أصانع فلانًا وأتوسل إلى فلان ، كما تتوهمين ، وإنما أنا رجلٌ مرٌّ العداوةُ حلو الوداد ، ومن كان كذلك فهو خليقٌ بأن يوغل في مخاشنة أعدائه حتى يوصَم بالإفراط في القسوة والعُنف ، وأن يُكثر من محاسنة أصدقائه حتى يُتهم بالإسراف في الرفق واللين .

ومع أني أنزه نفسي عن اختلاق المعايب لأعدائي فأنا أترفق في ابتداع المحاسن لأصدقائي ، ولست من الذين يستبيحون إيذاء أصدقائهم باسم الحرص على منفعة المجتمع ، أو الصوالح القومية ، لأن الصداقة عندي مبدأ من المبادئ ورأى من الآراء وعقيدة من العقائد ، وأنا أعدّ الاستهانة بحقوق الأصدقاء جريمة روحية تعرِّض القلب لعقاب الله ذي العزة والجبروت .

أنا يا مولاتي أومن بأني مسئول أمام الله عن واجب التلطف مع أصدقائي ، بل أنا مسئول عن وجوب الاعتقاد بأنهم منزَّهون عن المآثم والعيوب ، فاحترسي من اتهامي بالتقرب والتزلف ، فلله غَضَبات تنصبُّ على رؤوس من يَتهمون الأبرياء ، حماكِ الله من التعرض لغضَبات السماء !

وقد يقع أن أصوِّب سنان القلم إلى زميل أو صديق ، ثم أظلَّ مع ذلك سليم القلب ، أمين الروح، لأن لي رأيًا في البِرَّ بأصدقائي ، وذلك الرأي يحتم الاهتمام بآثارهم الأدبية والعقلية من حين إلى حين ، لأني أومن بأن النقد البريء من

الغرض صورة جميلة من صور العطف والرفق والإعزاز ، وأصدقائي يرون في هـذا المسـلك مـا أراه ، إلا أن ينحرفـوا عـن القصـد فيـروه مـن مـذاهب الاسـتطالة والكبرياء، كالذي وقع من فلان وفلان وفلان . على أيـامي في صـحبتهم ومـودتهم سلام الروح وتحية الفؤاد !

أما بعد فما هذا الذي تقولين ؟

كنتِ مريضة منذ شهور طوال ؟؟؟

لله الحمد وعليه الثناء ، فما كان المرض أهول ما أخاف ، وإنما كنت أخـاف عيكَ بغى الغدر وعُدوان العقوق .

كان قلبي في تلك الشهور يهتف بالشوق إلى الروح اللطيف الذي كان يتصدق عليَّ بالسؤال من وقت إلى وقت ، ثم انقطع عني مع قدوم الصيف ، كأن لم يكَف ما حلّ بنا من المخاوف مع قدوم الصيف ! كان قلبي يقول ويقول ويقول ، لقـد قـال كل شيء ، ولم يقل إنك مريضة ، ولو أنه قال لقدمته فداء لأظرف فتاة فهمت أسرار قلبي وسرائر روحي .

كنتُ يا مولاتي أرجو دائمًا أن أصل من الهتاف بالحب إلى محصول نفيس من فهم ما في الوجود من تيارات خفية تصنع ما تصـنع في وصـل القلـوب بـالقلوب ، والأرواح بالأرواح ، بلا جهد ولا مشقة ولا عناء .

فهل أستطيع القول بأن قلبك الغالي كان من نفائس ذلك المحصول ؟

وأعيذك أن تظني – وبعـض الظـن حـق – أني أسـتهدي لمحـة جديـدة مـن لمحات العطف ، فأنا راض بأن تظلي محجوبة عنـي ، مـا دام لـك هـوَى في ذلـك الحجاب ، فهو على كل حال فرصة ثمينة لمن يزدهيها أن تقول : أتحداك أن تعرف من هي « ليلي من الليالي» .

وأنا يا مولاتي أعرف ، فلقلبي أرصاد وعيون يطَّلع بها على الذخائر التي تفـرَّد

بها وطني ، الوطن العظيم الذي ينجب عرائس لها أرواح في مثل روحك العذْب الجميل .

وهل خَفِى عني منك شيء ؟

في كل لفظة من رسائلك الكريمة عَروسٌ تتخطَّر وتميس في دلال وكبرياء ، وفي كل نبرة من صوتك الرنَّان – ولم أسمعه إلا عن طريق التليفون – في كل نبرة من صوتك لحنٌ ينقل قلبي برفق ولطف إلى أجواز الخلود .

فإن كنت فتاة حقيقية ، فأنت البشير بأملٍ معسول ، وإن كنت فتاةً خيالية ، فأنت المطلَع الجميل لأنشودة رائعة من وحيٍ الخيال ...

ولي غرضٌ من هذا التشكيك ، فما أحب أن تكوني أنتِ أنت ، لئلا يعرف السفهاء باب التطاول على نجمِ السماء .

إن الغرض الأصيل من نجوانا هو خَلق روح جديد في الأدب الحديث ، ولابدّ من أن نقول مثل هذا القول دفعًا لمكايد الرقباء ، وهل يكون السياسيون أعقل منا وهم يستبيحون تسمية الأشياء بغير أسمائها لغرضٍ مدفون ؟

المهمُّ هو أن تعرفي بالرغم من هذا الرياء المصنوع أن قلبي أبرُّ وأعطف من جميع القلوب ، ألم أقل ألف مرة إني أوَّل من تقرَّب إلى الله بالرياء ؟

وأنا مع ذلك أشهد بأني لم أكن أصدِّق أن في مصر فتاةً ترجع إلى مقالات صدّها عنها المرض في شهور طوال ، ثم تفكر في تقسيمها إلى لوحات فنية مختلفة الظلال والألوان .

ولكن ما السبب في أن أطرب لرأيك الجميل كل هذا الطرب ؟

أيرجع السبب إلى أنه يزدهيني أن أشعر بأن هناك قلوبًا يسرُّها أن أكون في دنيا الصبابة آمرًا يطاع ؟

أم يرجع السبب إلى أنها أول مرة أشعر فيها بقسوة الحرمان من نشوة

الافتضاح ؟

لو تعرفين أيتها الروح بعض ما أعرف لسرّك أن أكون في الحب من أبطال الرياء !!

ولو فهمتِ بعض الفهم لما آذاك أن أكون فيما تحدثت عن زيارة المنصورة من المرائين .

اسمعي ، أيتها الروح الطروب .

قِيل وقيل : إن طيارات الأعداء قد تنتفع من النور الضئيل إذا أضيف بعضه إلى بعض، لأنه عندئذ يكوِّن هالة نورانية تدلّ على المستور من المنازل والقصور .

وأنا كذلك أبخل بالكتابة عن الحب في جميع الأحاديث ، كما تقترحين ، لأن ذلك لو وقع سينتفع به الحاقدون من أعداء الأدب الرفيع .

ومن هذا الحديث تفهمين أني أعرف هُويتك الصحيحة ، فأنت طفلة بالتأكيد، لأنك تجهلين عواقب الافتضاح .

أنا افتضحتُ وسلمتُ – إن كنت سلمتُ- لأني أقمت أدبي على أصول من الرمز والإيماء ، فما هواكِ في أن أدلّ عليك بلا ترفق ولا استبقاء ؟؟

ومن يستُرنا إذا افتضحنا يا ظَلوم ؟

ومن يستر الشمس إذا أطلّت بوجهها على الوجود ؟

الحب هو الشمس ، والرياء هو السحاب ، وللشمس قدرة سحَّارة على تمزيق أردية السحاب ، فإن زعمتِ أنكِ مستورة بسحاب من فوقه ظلمات ، فاعرفي يا شقية أن ظلام الحب يعقُبه صباح ، وسنلتقي ولو بعد حين ، وسنتذوق أذى الناس ولو بعد أزمان !!

نحن أيتها الروح غرباء في هذا الوجود ، وآية ذلك أني لا أستطيع التسليم

عليك في صبيحة العيد ، لأني – وفقًا للعُرف- لا أمتَّ إليك بغير الوشيجة الروحية، وهي وشيجة مجحودة الأصول والفروع عند أكثر الناس .

فمن يعزِّي المحروم من طلعتك البهية وصوتك الرخيم في صبيحة العيد ؟

ومن يواسي الهائم الحيران وهو من الهُيام والحيرة في شقاء وعناء ؟

أمَا والله لو تَجدين وجدي جمحتِ إليَّ خالعَة العذارِ

وهل كانت الحياة إلا في الشعور بألا تعيش روح إلا مجذوبة إلى روح ؟

ما هذا الذي أقول ؟ وما الذي أجترح بهذا القول ؟

أمن الصحيح أننا لا نجد السعادة الحق إلا إذا تلاقينا في صبيحة العيد وجهًا لوجه ، وتصافحنا يدًا بيد ، وآذنا الناس بما نحن عليه من وداد وصفاء .

أشعر يا مولاتي بأن موازين الأحكام الروحية قد اختلت بعض الاختلال ، وإلا فما بالُنا لا نصدِّق بالتصافي التام إلا إذا تصافحت الأيدي وتلاقت الوجوه ؟

وماذا يصنع مثلي إذا ابتُلي بهوى فتاة روحانية ترى الأنس في أن تلقاني في مقالاتي ومؤلفاتي ، وأن ألقاها فيما تكتب إليَّ من رسائل معطَّرة بعَبير الرفق والحنان ؟

إننا غلبنا أسلافنا بكثرة الإنتاج الأدبي ، ولكننا لم نصل بعدُ إلى مسابقتهم في ميدان الخلود، لأن أدبهم على قلته مطبوع بطابع الصدق ، فقد كان فيهم من يقضي العمر وهو مجذوب إلى صورة لا تطمع في رؤيتها العيون ؛ أما نحن فنيأس وننصرف لأول بادرة من بوادر المنع ، ويكون من أثر ذلك أن تُحرَم أكبادنا قسوة اللوعة والاحتراق ، وهي قسوة لطيفة محبوبة لا يتذوق عُذُبتها غير الأديب والفنان .

ومن يدري ؟ فلعل لي غرضًا في العزلة يشبه غرضك في الاحتجاب ، والإنسان حيوانٌ لئيم . وهل أجد نفسي إلا حين أخلو إلى قلمي ؟

وما سرّ تلك الخلوة ؟ وما أخبارها ؟

هي خلوة أقترب فيها من نفسي بعض الاقتراب ، وأشعر بمواجهة اللهب المقدَّس الذي يمنّ به الله على أحد الأرواح في إحدى الأحايين ، وأسمع صرير القلم بلهفة وشوق ، لأن كتاباتي لها في أذني وقْع ، وفي قلبي وَقْع ، وما خططتُ حرفًا إلا وأنا مشغوف بتعرف ما يتسامى إليه من ألحان وأغاريد ، ولو شئت لقلت إن طاعة القلم هي التي تجذبني إليه ، فهو لا يَصدُر إلا عن أمري ولا يَصدح إلا بما أشاء ، وهو لا يخطئ حين يخطئ إلا وهو مؤمن، بأن أخطائي أصدق وأجمل من الحق ومن الصواب .

فمن كان في صدره عتاب أو ملام لانصرافي عن محضّره الأنيس فليذكر هذا القول ، فأنا لا أصادق من يتوهم أني رجلٌ يخطئ كما يصيب ، وإنما أصادق من يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن العيب حين يقع مني هو الغُرة في هلال شوال . وهل كانت لي عيوب إلا في أوهام الذين أبنيهم ليهدموني ؟ جزى الله بعض الزملاء «خير» الجزاء !

وماذا نصنع إذا التقينا يا شقية ، يا شقية ؟

سيهمُّك أن تعرفي الفرق بين زكي مبارك المؤلِّف وزكي مبارك المحدِّث (؟!)

وسيهمني أن أعرف الفرق بين الفتاة التي تكتب إليّ من بُعد والفتاة التي أراها من قُرب (؟!)

وعندئذ آثمُ وتأثمين ، لأن شريعة الحب تبغض هذا الفضول ألم تقولي في إحدى رسائلك إني أصانع فلانًا وأتوسل إلى فلان ؟

وأين كان التوسل والتصنع وقد صبرت على الحرمان من وجهك الجميل

أكثر من عامين ؟

وهل حُرِمت منك عامين أو شهرين أو يومين أو ساعتين ؟

الجواب عند ليلي ، فاسألي ليلي ، ليلي المريضة في العراق ، اسأليها تخبـرك أن صدها عني لم يكن إلا فنًّا من فنون الوصل ، والصدّ المقصود ليس قطيعـة ، وإنمـا هو آية من آيات العطف ، لا حَرمَنى الله تعتُّب ليلاي هنا وليلاي هناك !

أين أنا مما أريد ؟ وهل ترينني أفصحتُ بما أريد ؟

ما نظرت في رسائلك إليّ إلا زاغ بصري وطار صوابي ؟

فهل من الحق أنك تخافين عواقب التصريح باسمك المكنون ؟

أنا لم اجترح معك غير هفوة واحدة يوم استبحت تسجيل صـورة مـن خطـك البديع في الكتاب الذي تعرفين ، وقد نهيتني فانتهيتُ ، فما تحجُّبُـكِ عـن المحـب الذي «أدَّبَتْهُ عقوبة الإفشاء» فتاب وأناب ؟

على أنني راضٍ عمَا صرنا إليه من الاكتفاء بمصافحة القلوب ، أدام الله عليك نعمة العافية ، وجعلك مصباحًا وهَّاجًا لبيتك الرفيع ـ ولا أراني فيك إلا ما أحـب ، يا زهرة الشباب في الوطن المحبوب ، ويا أصدق شاهد على صحة مـا قـال قاسـم أمين وهو يُهدي كتاب «المرأة الجديدة» إلى سعد زغلول .

***

ثم ماذا ؟ ثم كيف العطف النبيل في منحي لقب «أمير البيان» فهل تـرين هـذا اللقب على سموّه يستوجب الـدخول في خصـومات كـالتي عاناهـا شـوقي «أميـر الشعراء» ؟

إن لقب «أمير البيـان» أضـيف إلىَّ أول مـرة عـلى سـبيل السـخرية في إحـدى مجلات لبنان ، ثم أضيف إلىَّ مرات على سبيل الإنصـاف في بعـض جرائـد مصـر

والعراق ، فماذا ترين أن أصنع في حراسة هذا اللقب الرفيع ؟

أنا أومن يا مولاتي بأنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني ، إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني ، ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق مني ، وهل هان الصدق حتى يكون لي فيه منافسون من أبناء الزمان ؟

الصدق يحتاج إلى تضحيات عظيمة جدًا ، ومن تلك التضحيات ما تعرفين وما تجهلين ، ولو علمت الغيب يا شقية لعرفت أن الصدق جرَّني إلى معاطب ومهالك لا يصبر على محرجاتها ومُؤذياتها إلا من كان في مثل إيماني ، وقد صبرتُ وصبرتُ حتى اتهمني الغافلون بالبلادة والجمود ، لأنهم لم يعرفوا أن دنيا الأدب فيها مبادئ تروض أهلها على الترحيب بمكاره الظمأ والجوع ، إن جاز القول بأن الله رضي لحظة واحدة بأن أحس مكاره الظمأ والجوع ، ولن أموت إلا مقتولاً بنعمة الترف في الطعام والشراب ، فليغفر الله ما أدّعيه زورًا من الترحيب بمكاره الظمأ والجوع وهو الغفور التواب .

وهل أنسى يا شقية أن الصدق حرمني نشوة الاستصباح بوجهك الوهاج؟

هل أنسى أن الصدق جعل لأعدائي حججًا دوامغ في مقاومة مؤلفاتي ؟

الصدق في الدنيا غريب ، وأنا في الدنيا غريب ، والله هو المسئول عن رعاية الغرباء !

أما بعد ، ثم أما بعد ، فسأظل إلى الأبد عند ظنك الجميل ، وسأغفر لك التطاول عليّ من حين إلى حين ، لأني آخر من يتذوَّق تجاهل المحبوب لأقدار الحبيب .

من نِعم الله أن نعيش قلبًا إلى قلب ، لا جنبًا إلى جنب ، فما كان الهوى العذريّ إلا الروح المكنون في قصيدة الوجود

وإلى اللقاء يا شقية في عالم الفكر والوجدان .

ولكن متى ؟ متى ؟ متى ؟ وأنت تؤمنين بأن البخل أشرف خلائق الملاح !

قالوا عشقتَ فقلت كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذي خلق الملاحة لم يشأ إلا شقائي في الهوى وبلائي

زكي مبارك

تلك الروح وذلك اليوم

بعد جفوة مسبوقة بنذير يئس القلبُ أثقل اليأس ، واليأس يتجسم أحيانا فيصير أثقل من الجبال ، وأبرد من الثلوج .

ثم بدت الحياة لعيني وكأنها بيداء قفراء ، ليس فيها نبات ولا ماء ولا ظلال .

كنت أسير في شوارع القاهرة فأراها تموج بالبِشر والإيناس ، وأرى القاهريين كما عهدت مسرورين منشرحين ، كأن الدنيا ليست في حرب شعواء ، وإنما هي حرب خفيفة الظل ، هي الحرب بين العيون والقلوب .

وكنت أنظر فأراني وحيدًا شريدًا ، وإن كان من يراني يتوهم أني ماض إلى ميعاد، فقد كانت القاهرة فيما سلف من أيامي ملاعب للمواعيد اللطاف .

لقد اغتربت أسابيع كانت لهولها أطول من الآباد ، بفضل الجفوة المسبوقة بنذير من تلك الروح ، وكنت أخشى أن يطول اغترابي فيما بقى من أطياف حياتي ، فما حياتي بعد تلك الروح غير أطياف .

هذا هو اليأس ، وذلك طعمه المرير ، وتلك أيامه السود وحاولت أن أعيش في ظلال الذكريات فتكدر عيشي ، لأن تلك الروح لا تزال بعافية ، وهي صائرة إلى غيري إن ضاعت من يدي ، فما في الدنيا جمال يعيش بلا عاشق ، ولو كان مقدودًا من الصخر الجلمود .

لابد من رجعة أعنف من رجعة السيل ، لابد من اقتناص تلك الروح من

جديد لأحميها من الضيم وأحمي نفسي من الموت .

قلت لنفسي : إن هناك غنيمة مضمونة وهي سماع صوتها في الهتاف ، فما نطقتْ كلمة «ألو» إلا تمثلتً أنها بُلبل جماله كله في الحَلْق .

وبكلمتين تواعدنا على التلاقي ، فأين النذير ؟ وأين الجفاء ، وأين اليأس ؟

إن عقول المحبين عقول أطفال !

كان يجب أن أنتظر في حديقة البيت ، وأن يكون في يدي كتاب ، مع أني لن ألقي تلك الروح في ضوء المصباح .

وتخفق أرواح في الطريق فلا ألتفت ، لأن الروح التي أنتظرها لن تغيب عني ، وإنني لأشعر بخطواتها على أبعاد الألوف من الأميال .

ما هذا الذي أراه ؟

إن الروح ثقيل وقد تجسمت في عروس من عرائس البحر في دمياط ، وأنا أتلقاها بقلب قبستُ ناره من كهرباء الوجود .

-أنت؟

-أنا ؟

-ومن أنت ؟

-أنا العاشق الذي صبر فظفر بعد صبوة دامت أكثر من عشر سنين .

-وتستحق عطفي عليك ؟

-إن رأيت يا روحي أن تؤدي زكاة الجمال

ثم يدور الحديث بما يعجزني ، لأن الروح تقول :

«لقد أوحينا إليك»

فما هو إيحاء تلك الروح ؟

أمرتني أن أصف لحظات التلاقي ولحظات العتاب ، وتلطفتْ فلم تأمرني بوصف وجهها الوهاج ، ولو أني أطعتها لاكتفيت بكلمة واحدة ، وهي أني بها أعيش ، ولها أعيش ، فما للحياة بدونها مَذَاق .

غنائمي من حياتي هي التعرف إلى تلك الروح ، وانتظار عطفها في أوقات الكروب ، وليس في الوجود بجانب عطفها كروب .

***

ثم صحونا فوجدتها تشكو عدوان أظفاري . كتب الله عليها أن تشقى إلى الأبد بعدوان أظفاري ! إن كنت جرحت جسمها فقد جرحت قلبي .. والجروح قصاص .

أنا صحوت ؟ هو ذلك ، وما الذي يمنع من أن أخادع نفسي ؟

قضيت اليوم التالي وأنا لا أصدّق أن ما وعته الذاكرة من وقائع الليلة التي مضت كان وقع بالفعل ، فما تسمح الدنيا النادرة بمثل ذلك النعيم ، إلا أن يكون حلمًا من الأحلام .

وأستنجد بالهتَّاف لأسمع «ألو» ولأعرف أن ما وقع حقيقة لا خيال ، فيكون الجواب بالإثبات مصحوبًا بالاستغراب من شطحات صوفية وأنها تلك الروح بوادر جنون .

وآخذ بتلابيب الفرصة فأدعو إلى لقاءة ثانية لأقيم البرهان على أني عاقل لا مجنون .

اللقاءة الثانية بالنهار لا بالليل ، وبالصحراء لا بالبيت ، ثم يدور الحديث :

-أنت مصرّ على أن الوجود ليس فيه فضاء ؟

-نعم

-وما دليلك؟

-الدليل حاضر ، وهو أن ما نراه فضاء هو في الواقع مسكون بالأربطة الكهربائية التي يتماسك بها الوجود ، وهو باعتراف الجميع مسكون بالهواء ، فهو ليس بفضاء .

-سلّمتُ إلى أن أجد ما ينقض رأيك ، ولكن الذي لن أسلم به أبدًا هو إصرارك على أن كل موجود فيه حياة حتى الجماد .

-الجماد كلمة اصطلاحية فقط ، ولكنه في الحقيقة يحيا ، كما يحيا الحيوان والنبات ، وأنا سأجد الشواهد من الحجارة المنثورة في الصحراء .. انظري هذه زلطة في حجم ثمرة الدوم وشكل ثمرة الدوم .

-أتظن أنها دومة تحجرت ؟

-هو بالفعل ... ثم انظري فهذه زلطة في حجم الخيارة وشكل الخيارة.

-هي أيضًا خيارة تحجّرتْ؟

-نعم

-ولماذا لا تتحجر جميع الثمار؟

-لأنها ليست جميعًا في قابلية متساوية ولا فاعلية متساوية

-والنتيجة ؟

-النتيجة أن الجماد الذي يتحول من وضع إلى وضع لا يتم له التحول بدون حيوية وقد جهل أبو العلاء حين قال :

والذي حارت البرية فيه   حيوانٌ مُسْتَخرجٌ من جماد

-وما رأيك في الآية الكريمة :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ .

-القرآن يعرض الظواهر التي تعارف عليها الناس لتكون الحجة على القدرة الإلهية أقوى وأوضح ، فمن العجب في نظر من لا يعرف أن تكون البذرة الخرساء أصلاً للدوحة الشمّاء ، وأن تكون البيضة الصغيرة أصلاً لطائر جميل يغرد أو يصيح ولكن البذرة قد تفسد فلا يصدر عنها شجر ولا نبات ، والبيضة قد تفسد فلا يصدر عنها طائر ولا حيوان .

-ليس في الوجود فساد ، وإنما هو تحول ، فالبذرة الفاسدة والبيضة الفاسدة تتعرضان إلى تعفن تعيش به خلائق .

-آمنت بالله وكفرت بفلسفتك

-لن تؤمني بالله إلا يوم تدركين حقائق هذه الفلسفة يا محبوبتي الغالية .

-وأصدْق أن الحجر فيه حياة ؟

-نعم ، في الحجر حياة ، وأثمانه تتفاوت لهذا السبب ، فالحجر الذي يباع رخيصًا في هذا اليوم لأنه لين ، سيباع غاليًا بعد ألف سنة لأنه صلب ، وإن صبرنا عليه مليون سنة فقد يتحول إلى جرانيت ، وهذا هو الفرق بين محاجر طره ومحاجر أسوان .

-بدأت أفهم

-وأنا لو شئت أفهمت جميع الأغبياء

-أنا غبية ؟

-اسمعي يا غبية ثم اسمعي ، هذا البناء الشاهق ممَّ يتألف ؟ إنه يتألف من جمادات يأخذ بعضها برقاب بعض ، لأنها جميعًا أحياء ، فالجبس يعشق الطوب والأسمنت يعشق الحديد ، وبفضل هذا التعاشق تنهض هذه البنايات الشواهق ، كما تبتسم الخمر حين يصافحها الماء .

-وأنت بالأمس أنكرت الموت ، وهذا أغرب ما سمعت من الآراء .

-ليس في الوجود موت ، فالدجاجة التي ذبحناها وشويناها ماتت في نظر الناس، فكيف تستطيع وهي ميتة أن تثير فينا النشاط حين نأكلها في صباح أو مساء ؟ واللحوم التي تَرِد إلينا من استراليا محفوظة في علب هي لحوم حيوانات بعضها ذُبح قبل أعوام طوال ، ونحن نأكلها فنشعر بنشاط وأريحية ، فكيف نصدق أنها ماتت ؟

-إننا نرى بأعيننا ناسًا يموتون ، وندفنهم ونترحم عليهم ، ونقيم لفراقهم الحِداد

-إنهم يموتون موتًا عُرفيًا ، وهم في الوقع أحياء ، فلو بدا لرجل أن يأكل قطعة متعفنة من جثة ميت لأصابته نوبة تؤدي به إلى الهلاك ، وهو نقله من حالة اسمها الحياة إلى حالة اسمها الموت في عرف الناس .. وهنالك صورة أوضح من هذه الصورة في تأكيد الحياة لمن نتوهم أنهم أموات وهي خلود الفكر وتأثيره الموصول من مكان إلى مكان على اختلاف الأزمان ، فأفلاطون لم يمت ، والغزالي لم يمت ، والمتنبي لم يمت ، لأن هؤلاء بتأثيرهم الروحي أحياء غير أموات .

-والدكتور زكي مبارك ؟

-هو أيضًا لن يموت ، وسيحيا بفكره وروحه حياة لا يعروها فناء، وسيقال فيما يلي من الأجيال إنه أول شارح لنظرية وحدة الوجود .

-ولكنها نظرية غير إسلامية

-قلت ألف مرة إنني أتكلم باسم الفلسفة لا باسم الدين ، فلا تثقلي عليَّ بأمثال هذا الاعتراض ، فأسلافنا ظلموا أنفسهم حين قالوا إن الفلسفة لا تخالف الدين ، وكانت النتيجة أن يعقّوا الفلسفة والدين .

-بدأت أفهم

-ألم أقل إني لو شئت أفهمت الأغبياء !

-أنا غبية ؟ أنا ؟

-لو لم تكوني غبية لما كدرت هذه الساعة اللطيفة بهذه الاعتراضات .

-وهل يؤذيك أن أدعوك إلى شرح آرائك الفلسفية ليرعوي من يتهمونك في عقيدتك الدينية ؟

-الناس لا يهمونني في شيء ، فمصايرنا جميعًا محتومة بصورة أزلية ، وليس للمؤمن ولا الكافر إرادة فيما صار إليه ، وليس هناك تعليل واضح لسحر هذه العيون .

-عيوني؟

-عيونك وعيون ليلي المريضة في العراق .

-يظهر أن تهمتك بالجنون لها أصل

-نعم ، ومجنون ليلي يتعجب من أن تغْزوه ليلي بعينيها الكحيلتين وبينها وبينه مسافات تعجز عن اختراقها الشياطين .

-اسكت يا مجنون!

-وهذا الفضاء الذي بيني وبين بغداد ليس بفضاء ، وإنما هو مجال لأسهم سحرية ترسلها ليلي في كل وقت ، وإني لأراها معي في هذه اللحظة كما أراك معي .

-اسكت ، اسكتْ ، فأنا أخاف أن تقتلني الغيرة

-تغارين من الوهم يا غبية ؟

-ليس هذا بوهم ، إن ليلي تطاردني في كل يوم وتحاول أن تسدّ طريقي إليك .

-ومن أجل هذا يا محبوبتي أنكر المكان وأنكر الزمان

-ماذا تقول ؟

-ليلي معنا ، أليس كذلك ؟

-بلى ، وأنا أغار منها أعنف الغيرة

-إذن فليس هناك مكان ، وهل تغارين مما وقع بيني وبينها في سنة 1937 ؟

-أغار ، أغار

-إذن فليس هناك زمان

-خبلتني ، خبلتني

-كذلك كانت تقول ليلي ، زادك الله وإياها خبالاً إلى خبال !!

-هذا الحوار ينتهي بنا إلى وحدة الوجود ؟

-إن فهمت مرادي يا أجمل غبية رأيتها في حياتي

-تلميذتك لا تكون غبية

-إذن فاسمعي ، ثم اسمعي ، ليس في الوجود فضاء ولا سكون ولا موت .

-آمنت وصدَّقت

-وليس في الوجود زمان ولا مكان

-آمنت وصدّقت

-وليس في الوجود ماضٍ ولا مستقبل

-ما معنى ذلك ؟

-معناه يا طفلتي أن الوجود كلهُ خلِق دفعةً واحدة ، فالماضي والحاضر

والمستقبل صور لحقيقة أبدية لا تُحول ولا تزول

-لم أفهم

-ستفهمين ، هل تؤمنين بالأحلام ؟

-أومن بالأحلام

-تؤمنين بأن الرؤيا قد تتحقق بعد سنين ؟

-هو ذلك ، ولي مع الرؤيا تواريخ ، فقد رأيتك في منامي قبل سنين ، وكـان في الرؤيا أنك تمزج بين المجادلة والمغازلة لأنخدع لك باسم العقل

-وأنا أيضًا رأيتك في منـامي قبـل سـنين ، وكـان في الرؤيـا أنـك تلميـذتي لا معشوقتي

-وانخدعت لك ؟

-تلك أضغاث أحلام !

-أسرع وحدثني عن رأيك في الأحلام

-اسمعي ، الأحلام واقعة بـلا ريـب ، ولهـا تفاسـير أختصـرها في تفسـيرين اثنين: التفسير الأول هو تفسير بعض علماء النفس ، وهو أنهـا تعبيـر عـن رغبـات مكبوتة نعبّر عنها في منامنا لنراها بعد أيام أو أسابيع ، والتفسير الثـاني : هـو تفسـير الدكتور زكي مبارك ، وهو أن لنا حاسة دقيقة تخترق المستقبل في بعض الأحـايين فتحدثنا بما سيكون بعد أزمان طوال .

-وكيف نعرف ما سيكون بعد أزمان طوال ؟

-كما يعرف علماء الفلك أن الشمس ستُكسَف أو أن القمـر سيُخسـف بعـد عدد من السنين ، ومعنى ذلك أن الوجـود كلـه خُلـق دفعـة واحـدة ، وأن الرجـل

الملَهم قد يرى في منامه ما سوف يقع ، لأنه سوف يقع ، ولو طال الزمان .

***

تلك الروح ، وذلك اليوم ، وآه ثم آه من تلك الروح وذلك اليوم ! تلك الروح ملك يدي ، وإن باعدت بيني وبينها مسافات لا أعترف لها بوجود .

وذلك اليوم ملك يميني ، وهو يومنا الهائم بمجاهل الصحراء إنه يوم تجسَّم فيه إيماني بوحدة الوجود ، وأعلنت فيه إشراكي بأوهام الغافلين .

قيل إنه يومٌ ذهب ، وأقول إنه يومٌ لن يذهب ، لأنه سيلاحقني إلى البواقي من أيامي ، وليس لأيامي نهاية ، لأني قَبَس من كهرباء وحدة الوجود .

ليلى المريضة في الزمالك

ليلي المريضة في الزمالك لها أحاديث وأحاديـث . لقـد عشـقها عشـقًا عنيفًـا مبرحًا وألهمتـه رسـائل وجدانيـة رقيقـة .. قيسـها مـن روحـه وأودعهـا أشـواقه ومشاعره وعواطفه وتلك الرسائل قطعة من الأدب الوجداني الرفيع .

نجد في تلك الرسائل اللوعة المحرقة والعاطفة القوية .

ولكن من هي ليلي المريضة في الزمالك .. ؟

هل تكون شخصية خيالية ؟ هذا مستحيل .. فما يقضـي شـاعر عاشـق مثـل الدكتور زكي مبارك الأعوام الطوال في التغني بمحبوبة من صنع الخيال ؟ وهو قـد روى لنا غرامة معها والليالي الساحرة التي كان يقضيها معها يقول :

(ما أجمل تلك الليالي القمراء وقد قال أخوها : أحب أن أقضي معكما السهرة لأرى كيف يتناجى العاشقان في الليلة القمراء ..

كان ذلك بعد لحظات قضيناها في (مدينة الملاهي) إن تلك الشقية تحبني إلى حد الجنون أهلا وسهلا ..) .

كتب زكي مبارك في سنواته الأخيرة يبكي ذكريات هواه مع زوزو فيقول[1] :

كان آخر العهد بدار الهوى في أيلول (سـبتمبر) سـنة 1937 قبـل الهجـرة إلى العراق ، وفي تسعة أشهر صنع الدهر بها ما صنع فلم أجدها حـين رجعـت في آخـر

(1) البلاغ ، 27 مارس 1950 .

حزيران سنة 1938 إلا أطلالاً باكيات لا أطلالا باليات فما يجوز البلى ، على دار محبوبتي ولو صنعت بها المعاول ما يصنع الناس بالقلوب .

هدمت الدار ، هدمت ، هدمت ، ولم يبق من معالمها الأصيلة غير صراخ الذكريات ، ذكريات الهوى النبيل الذي رفرف عليها بجناحيه الطاهرين عددًا من السنين هي في حكم الهوى لحظات أقصر من غفوة الرقيب !

«أفي الحق يا دار الهوى أني لن أراك ؟

«أفي الحق أن حديقتك الغناء ذهبت إلى غير معاد ؟

«أفي الحق أن الرقباء في شارع «...» قد استراحوا من تعقب خطواتي في أعقاب الليل ؟

«أفي الحق ، يا دار الهوى ، أن هذا آخر العهد ؟

«الدار باقية ، لأن ذكرياتها باقيات .

«الدار باقية ، لأني أطوف بها كل يوم ، وأتمثل هيامي بأرجائها في كل لحظة ، وأسوق إليها تحياتي وتأوهاتي مواكب خلود .

«هدمت الدار ، هدمت ، هدمت ، فابك ما طاب لك البكاء يا أليف الديار الباكيات .

«أين المال لأشتري قطعة من تلك الدار أدفن فيها يوم أموت ؟

«البلى أعجز وأضعف من أن ينالك بسوء يا دار الهوي والدنيا كلها فداء لماضيك المحبوب يوم كنت مرقص أحلام وملعب آمال ؟

«كيف صبرت أيتها الدار ، على كيد الليالي ؟

«كيف صبرت أيتها الدار ، على فراقي يوم هاجرت إلى بغداد ؟

«أنت صبرت على فراقي ؟ معاذ الهوى ، فقد كنت شغل القلب في يقظتي

ومنامي وكان مثالك سطورًا فوق أمواج دجلة والفرات ؟

«وهل أنسى أنك صاحبة الوحي لمحبوبك الغالي يوم كان ضيف باريس ؟

«أنت دنياي يا دار الهوي ، وطلولك المقفرات أعز عليّ من مؤلفاتي وأشعاري ؟

«رقمت صورتك الغالية بأصباغ من نور وخلود فوق سواد قلبي ، فلا خوف عليك من الفناء ، وعفا الحب عمن استغلوا غيبتي في بغداد فحولوك إلى أطلال باكيات » .

***

ليلى المريضة في الزمالك فنانة مشهورة وقتئذ ولكن لظروف ما حدثت قطيعة بينهما وافترقا بعد غرامهما العنيف وذكر أنهما افترقا لأنها لئيمة لا تحفظ العهد وقد أوحت هذه القطيعة إلى قلم الدكتور زكي رسائل وجدانية رقيقة هي صورة شعرية لونت بالشعر والفلسفة والكبرياء.

وهذه مناجاة حارة لمحبوبته الظلوم يقول :

(كنت أتشهى أن أرى النور المتوهج في جبينها المشرق كنت أتشهى أن أقضي معها سهرة في زورق يترنح فوق أمواج النيل كنت أتشهى أن أخاصرها في بساتين الجيزة الفيحاء .

كنت أتشهي أن نهيم على وجوهنا في حي القصر العالي الذي يسميه الجهلاء (جاردن سيتي) .. كنت أتشهي أن أرى معها البيت الذي كنا اصطفيناه بحدائق القبة : كنت أتشهي أن أهصر فودها بحي الزيتون .. كنت أتشهي أن نغرق معا في النيل عند القناطر الخيرية ولكن من الذي يدرك كل ما يتمناه ؟

أنا أعيش بروح سماوية وهي تعيش بروح أرضية ، مع أنها والله حورية نزلت إلينا من الفردوس ..

إن ليلاي بالزمالك لا تعقل لأنها حسناء ، والحسن يغري بالجنون ..

سأحارب ليلي بالزمالك .. سأحاربها بقلمي ، كما حاربت انجلترا بقلمي وأنا رجل يحارب الظلم في جميع الأشكال) .

وهذه بعض الرسائل النفيسة التي استوحاها من الفراق وقد قبسها من نار قلبه ونور وجدانه نرى فيها حرقة الوجد وصدق العاطفة وقوة الوجدان والحسرات في هذه الرسائل حسرات شاعر عاشق خلق ليكون أميرًا للعشاق .

وهو في تلك الرسائل الوجدانية عاشق متأجج يبكي حبه ويخشع أمام ذكريات الهوى والغرام .

وقد كتب هذه الرسائل سنة 1938 إلى ليلي المريضة في الزمالك بعد القطيعة التي حدثت بينهما بعد عودته من العراق .

رسائل إلى
ليلي المريضة في الزمالك

الرسالة الأولى

سيدتي :

أشكر لك الخطاب الرقيق الذي نشرته في مجلة الصباح ، وأتمنى أن أقرأ لك مثله من حين إلى حين ، فأمثال هذه الرسائل هي آخر ما أظفر به من نعيم الحب في الزمالك .

وما كنت أظن أن الدنيا ستصل إلى هذا الحد من الإقفار والإيحاش ، ما كنت أظن أن تفسد الدنيا حتى أحبس نفسي عن رؤية الزمالك أربعة أسابيع بعد أن طال اغترابي في العراق ، واشتقت إليك وإلى الزمالك أشد اشتياق .

كان الوهم يحدثني أن الأرض سترقص تحت قدميك حين تسمعين بقدومي، كنت أتوهم أني سأموت مقتولاً بأريج الأزهار في قصرك المنيف ، كنت أحسب أن حسابي سيطول على ما قدمت وما أخرت ، وأن العتاب سيقتل الليالي المطولة حين نلتقي .. فما الذي وقع من كل ما توهمت وحسبت وظننت ؟

لم يقع شيء . ولم تطأ قدماي أرض الزمالك ، لأني عرفت بوحي القلب أنك انتقلت من رياض الملائكة إلى حظائر الشياطين ، وأنا الجاني على نفسي حين تركت الثمرة الشهية لتنوشها البوم والغربان !

ليتك تعرفين يا سيدتي ما صنع الدهر بقلبي !

ليتك تعرفين أني لم أعد ضحاكًا بسامًا على نحو ما كنت في الليالي الخوالي !

كان هواك يا غادرة ينير الدنيا أمام روحي ، وكنت كلما تشكيت بلائي بليلى المريضة في العراق منيت النفس بالعيش السعيد حين ألقي ليلى المريضة في الزمالك ، ولكني عرفت فيما قرأت في بعض المجلات أن قصرك فتحت أبوابه فدخلته وجوه مشئومة لا تصلح لمجد ولا حب ، وعرفت أن الأكواب في قصرك العالي لمستها أفواه كان يكثر عليها أن تظفر بالماء القراح !

أترين أن الدنيا تصلح مرة ثانية فأرى أني حين اتهمتك كنت من الظالمين ؟

أيجيء يوم أرى فيه أنك لا تزالين نقية القلب طاهرة الوجدان ؟

أكتب هذا وأمام قلبي خيال اليوم الذي دفعنا فيه مرة حساب النور لقصرك العالي ، فقد عجبنا حين رأينا حساب الكهرباء يصل إلى عشرة جنيهات فنظرت إليك وقلت : ولكن قلبك يا شقية لا يزال ظلامًا في ظلام !!

كنا نلهو ونلعب ، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب ، وكان للقمر رقصات تميدها راسيات الجبال من الرفق والحنان .

فمن يعيد تلك الأيام السوالف ؟

من يعيدها لأرى جبينك المشرق وهو يتوهج ويتألق ؟

من يعيدها ، يا ليلى ، من يعيدها يا روح القلب الذي شرده الزمان !

إن قلبي يموج بالوساوس والأوهام والأضاليل .

فهل يكتب الله أن أراك وعلى وجهك نضرة الصيانة والوفاء ؟

هل يكتب الله أن أقف بين يديك لأستغفر من سيئات الظنون ؟

الأمر إليك يا ليلى ، إن كنت لا تزالين على كرم العهد .

لا تظني أبدًا أني سأعبر الزمالك بعد اليوم إلا حين يصح عندي أني كنت في سوء الظن من الخاطئين .

اعرفي يا ليلى وتيقني أني أصبحت أحمل كاهلي همومًا لا تحملها الجبال .

اعرفي أنك ملأت الدنيا سوادًا في وجه عاشق مخلص كان ملأ الـدنيا نـورًا في وجهك الوضاح .

اعرفي يا ليلى ما تعرفين ، وانكري ما تنكـرين ، ولكـن تـذكري أني لم أكـن إلا رجلاً كريمًا يحفظ العهود والمواثيق .

وتحدثك الغيرة بأني أحضرت معي ليلى المريضة في العراق .

فما الذي يمنع من أن تفاجئيني بزيارة في غسق الليل لتعرفي ما تضم داري من ملاح الليليات ؟ ليتك تحضرين مرة على غير موعد لتعرفي أن أنيسـي في داري هـو صورتك الباسمة التي انتهبتها منك انتهابًا في ليلة مقمرة من ليالي الربيع الأسبق !

تعالي مرة يا غادرة وانظري كيف صارت تلك الصورة وثنًا يعبده القلب .

تعالي ترى صورتك مصحوبة بصورة عزيزة غالية هي صورة أختـك العزيـزة الغالية صورة ليلى المريضة في العراق .

تعالي وانظري كيف جمعت بين الصورتين لينعم القلب بجحيمين !

تعالي مرة ، تعالي ، تعـالي واسـتغفري مـن ذنبـك في الصـدود لا في العقـوق ، فمازلت أرجو أن يكون ارتيابي في وفائك المعهود أضلولة من أضاليل الخيال .

تعالي ، يا ليلى ، تعالي ، تعالي نقرأ معًا بريد بغداد !

أحبك يا ليلى ، أحبك وأحب بغداد ، وليلاي في العراق .

أحبك بلا أمل ولا رجاء ، وإن كنت أشتهي أن أقبل ذلك الوجـه مـرة ثانيـة ، قبلة أثيمة تنزعج لها شياطين الأرض وملائكة السماء .

أحبك يا ليلى ، فتعالي خذيني ، خذي الطفل الكبير الـذي لم تؤدبـه الأيـام ولا الليالي ، ولم يعرف أن الثقة بعهود الملاح ضرب من الخيال .

تعالي يا عروس الزمالك تعالي إلى قلبي وروحي وضـميري تعـالي إلى الرجـل

العارم الذي لا يزال على ما تعهدين من العنف والجموح .

تعالى يا ليلى ، تعالي تعالي نقرأ معًا بريد بغداد لتعرفي أن ليلاي هناك تسأل عني وهي ترتاب في وفائي كما ترتابين ولكنها تقول فيمن أحب :

«أفوقهم بإخلاصي »

تعالي وانظري هذه الجملة «أفوقهم بإخلاصي» لتعـرفي أن الإخـلاص لـه في عالم الحب ميزان .

***

الرسالة الثانية

لم أكن أعرف ، وليتني ما عرفت !

لم أكن أعرف أني قادم على سعير العذاب حين فكرت في إغناء الأدب العربي ، بألوان من الصور الشعرية التي تصور عذاب الأرواح والقلوب .

لم أكن أعرف أني سأضع قلبي بيدي فوق جمرات الصبابة ثـم أنظـر إليـه وهـو يتنزى ويتوثب عساه يظفر بالخلاص ، ولا خلاص !

لم أكن أعرف أني سـأجد لـيلى في طريقـي ، لـيلى ، لـيلى التـي عـذبت روحـي وأحرقت قلبي .

لم أكن أعرف أن الهيام بالعيون السود سيسوقني إلى الهيـام في غيابـات الليـالي السود .

لم أكن أعرف أن الأقدار تدخر لي هذا النصيب الضخم من العناء والشقاء .

وهل يصـدق أحـد أني صـرت لا أعـرف غيـر الحيـرة والضـلال في يقظتـي ومنامي؟

هل يصدق أحد أن الدنيا تحولت أمام عيني إلى منادح من الهول والعذاب ؟

أين من يصدق أني أقضي الأيام والليالي في أحزان وكروب ؟

وفي سبيل من ؟

أحب أن أعرف في سبيل من ؟

في سبيل المخلوقة التي تقيم في الزمالك عليها غضبة الحب !

لم أكن أعرف أن ليلى التي نقلت قلبها من مكان إلى مكان ، وعلمتها كيف تناجي النجوم وتصافح الأزاهير وتباغم البلابل ، وتسامر الأحلام ، وتراود الأماني، لم أكن أعرف أن هذه الإنسانة الظلوم ستسقيني أكواب العلقم بعد أن سقيتها أكواب الشهد .

إنك يا ربي تعلم أني لم أكن سيئ القصد فيما صنعت .

كنت أحب أن أقيم في دنيا الشرف هيكلاً يعبد فيه الجمال .

كنت أحب أن تقوم دولة في عالم الأدب العربي للقلوب والأحاسيس .

كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لا تزال غنية وأن فيها كتابًا وشعراء يعرفون مواسم القلوب .

فكيف كان جزائي ؟

كنت كالطبيب الذي يحمل المشرط ليداوي جرحاه فينقل إليه المشرط جراثيم الهلاك .

ليتني أعرف كيف أصور بلائي بما أسلفت من جميل !

إن اللغات كلها تعجز عن وصف ما أعاني ، وما أخطر ما أعاني !

وما خفقت أرواح النسيم ولا برقت لوامع النجوم ، ولا هتف هاتف بالوجد في صباح أو مساء ، إلا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبي .

أمن أجل ليلى أصير إلى ما صرت إليه ؟

ومن أنت يا ليلى ؟ من أنت ؟ أتملكين شيئًا غير عينين سوداوين ، وخدين أسيلين ومبسم يتلألأ بسحر البريق ، وقوام يترنح وما سقوه الصهباء ؟

ومن أنت يا ليلى ؟ من أنت ؟

من أنت حتى تحولي دنياي إلى أمواج من الظلمات ؟

تذكري ما تملكين من شواهد الحسن التافه السخيف !

هل تملكين غير ذلك الدلال الذي يزلزل قلبي وعقلي ؟

هل تملكين غير ذلك الصوت المتكسر الناعم الرقيق المقتول الذي يذل الأسود ؟

اسمعي يا ليلى .. اسمعي .

سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين ، فإن دار رأسك من حيث لا تحتسبين فاعرفي أن روحًا شفافًا يزور ذلك الحي الجميل ولن يكون ذلك الروح غير روحي المشرد الذي أشقاه الغرام بالملاح .

ستطوف بالدنيا قلوب وأرواح ، ويبقى في عالم الخلود قلبي وروحي .

لن يكون لك أثر في الوجود إلا بفضل العاشق الذي تكوين فؤاده بنارك الحامية .

ستفنى محلة الزمالك ، ويبقى ما قلت في عروس الزمالك .

اصنعي ما شاء لك الغدر والجحود ، ولكن تذكري أن غضب الحب سيحل عليك وسيذلك الهوى فتسألين عني بعد حين .

أستغفر الحب :

فما أتمنى إلا أن تعيشي بخير وعافية وان تظلي ريحانة مطلولة تبسم للشروق والغروب ، وتطالع الدنيا بالنضرة والنعيم .

أحبك يا ليلى ، أحبك يا غادرة ، وأحب من أجلك جميع الملاح .

وسلام الحب على الجدائل المعطرة التي كانت ذكراها تؤنس وحشتي في أيام الاغتراب ، وسبحان من لو شاء لأرضاني وأرضاك عني .

هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذي يغرق الناسك في بحار الضلال ؟

هل تملكين غير تلك الطلعة البهية التي تخجل الأقمار والأزاهير ؟

ماذا عندك حتى أصير إلى ما صرت إليه من الجنون والفتون ؟

ماذا عندك وماذا تملكين ؟

***

أنا الذي خلقت بقلمي وخيالي كل ما وصفك به الواصفون من حسن وإشراق .

أنا الذي جعلتك ريحانة الدنيا ، وأنس الوجود .

أنا صاحب الفضل على ليلى المريضة في الزمالك وليلى المريضة في العراق .

ولكن أين جزائي ؟

أين جزاء العاشق المهجور الذي صار حظه أشد سوادًا من قطع الليل ؟

كل حظي أن أتلقى خطابًا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظي في غرامي .

كل حظي أن أصبح وأمسي مبلبل الخاطر ، مقروح الكبد ، مفطور القلب .

ولكن لا بأس .

فقد أومن بأني أواسي بحبي فتاةً لا تأنس بجمالها غوافل القلوب إلا كما تأنس العيون الرمد بضوء الشمس .

كنت أشعر أني أخلق هذه الفتاة خلقًا جديدًا ، وكنت أرى من الوطنية أن أشيد بمحاسنها ومفاتنها لتجد مكانها في عالم الصباحة والجمال .

أما أنا فقد كان مصيري في هواها مصير من يعبد النار ، وعابد النـار يؤججهـا بيديه لتحرقه حين يداعبها وأن ترفق وتلطف !

وما أنكر أني عرفت بفضل هذه الفتاة ما لم أكن أعرف .

عرفت أن النبات الجميل قد يكون أمر من الصاب .

عرفت أن البحر لا يروي الظمآن لأن ماؤه ملح أجاج .

عرفت أن الثقة بعهود المرأة تشبه الثقة بعهود الزمان .

وعرفت ما هو أعظم من كل أولئك :

كنت بالرستمية ذات مساء مع أعضاء «نادي القلم العراقي » ومضينا نستروح بسكون الليل حول نهر ديالة فراعنا أن تنبح الكلاب بنزق وطيش .

قال أحد الزملاء : ما أقبح نباح هذه الكلاب !

فقلت : هذا النباح صورة من صور الجمال !

فقال : وكيف ؟

فقلت : لأنه يكمل صورة الليل .

وكذلك تصنع المرأة الغادرة ، فهي تكمل صورة الوجود .

آه من زمني ومن دنياي !

***

ورجعت أسائل نفسي : ماذا غنمت من حب ليلى التي تقيم في الزمالك ؟

لقد ظفرت بمغانم كثيرة سأنتفع بها فيما بقى من حياتي .

والظاهر أني لا أخلو من لؤم ، لأني أحب اللئام من الملاح .

وإنما كان الأمر كـذلك لأني قضـيت أكثـر مـن عشـرين سـنة في الدراسـات الفلسفية ، فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسني إلا قليلاً ، لأن عقلي أكبـر مـن قلبـي ، وأنا أشتهي المرأة اللئيمة التي يكون غرامي بها فرصة لدراسـة القلـوب والنفـوس والعقول .

أردت مرة أن أساهم في نفقات البيت فقالت : أنت تريد أن تحتل بيتي .

وتلك نظرة دقيقة قد يغفل عنها السياسيون .

وهجمت عليها ذات مرة فدفعتني بعنف وهي تقول : إن مظهـر القـوة يـذكر الضعفاء بالذلة ويغريهم بالعصيان .

أشهد أن هذه اللئيمة على جانب عظيم من الذكاء ، واللؤم باب من الذكاء .

أحبك يا لئيمة حبًا لئيمًا ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

***

آه من زمني ومن دنياي !

أنا اليوم في خلاف مع ليلاي .

هي تريد أن تنتصر فتنقلني إلى الزمالك وأنا أريد أن أنتصـر فأنقلهـا إلى مصـر الجديدة وطن الملائكة والشياطين .

إن آدم عليه السلام انتقل في سبيل حـواء مـن الجنـة إلى الأرض ، فلأنتقـل في سبيل ليلى من مصر الجديدة إلى الزمالك .

ويظن الناس أن آدم باء بالخسران حين انتقل من الجنـة إلى الأرض في سـبيل حواء ، وهم والله جاهلون ، فلو بقى آدم في الجنـة لعـاش أغلـف القلـب ، خامـد الإحساس .

إن نزول آدم إلى الأرض كان فرصة لمعرفة الشهوات والضـغائن والأحقـاد ،

والعلم مع الشقاء أفضل من الجهل مع النعيم .

سأرجع إليك يا ليلاي ، سأنتقل من مصر الجديدة إلى الزمالك في سبيل البحث عن سرائر الروح الإنسانية .

وسترضين عنى يا شقية لأحترق في كوثر الوصال .

ولكن ما هو الوصال .

هو أن تكشفي الحجاب عن قلبك الغادر لأرى ما في الوجود من حقائق وأباطيل .

أحبك يا ليلى .

أحبك يا ليلاي .

وأستبيح الشرك ، فأحب معك الإنسانة النقية التي امتعتني بخطابين كريمين ولم تظفر بجواب .

لا تغاري من تلك الإنسانة، فبيني وبينها أهوال، ولن تراني إلا في عالم الخيال.

أيتها الإنسانة التي تخاطبني فلا أجيب !

أنت كل شيء في دنياي ، ولو كرهت ليلى المريضة في الزمالك .

وسأوقد نيران الغيرة في صدور من هنا ومن هناك إلى أن يقضي الحب بما هو قاض ، وأنا راض بحكمه وإن كان أظلم الحاكمين .

أكتب هذا وقد طلع الصبح ، ولا تزال ظلمات الهجران تسيطر على قلبي .

***

ودامت دنيانا في قبض وبسط وبؤس ونعيم ، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة 1937 .

ففي ذلك المساء تفضلت ليلى فدعتني إلى تناول العشاء لتمنحني القبلة

الموعودة قبل رحيلي إلى العراق .

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ما حييت وإن كدرتها ليلى بعد ذلك .

أحبك يا ليلى . أحبك لتلك اللحظة التي بلبلت نجوم السماء .

أحبك يا ليلي ، وإن صيرت حياتي بؤسًا في بؤس ، وشقاءً في شقاء .

أحبك يا صغيرة القلب ، ويا ضعيفة العقل ، ويا قليلة الوفاء .

أحبك يا مثال النزق والطيش والجنون .

أحبك لتلك اللحظة القصيرة التي بددت أضواؤها ظلمات قلبي .

***

وفي اليوم التالي رحلت إلى بغداد وأطياف الزمالك تؤنس روحي .

ثم سمعت ليلاي في الزمالك أنى تعرفت على ليلى المريضة في العراق .

فماذا صنعت الحمقاء ؟

أرادت أن تنتقم مني ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان ولم تكتف بذلك بل أعلنت غضبها في رسائل نشرتها في مجلة الصباح .. وأسرفت الشقية في الحمق فنشرت في مجلة المصور أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها أكواب الصهباء .

وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهم سيصيب صدر حبيبها في العراق .

ولكني تجلدت وتماسكت وكتبت إليها في رفق ولطف .

فأجابت الحمقاء :

«هل كنت تنتظر أن أضع يدي على خدي إلى أن ترجع من بغداد ؟ » .

خبر أسود !

خبر أسود !

خبر أسود!

كذلك هتفت كما يهتف الفلاح المصري حين ينزعج – وعبارات الفلاحين تسبق إلى لساني حين يثور غضبي – .

إن ليلى المريضة بالزمالك لا تريد أن تضع يدها على خدها حتى أرجع من بغداد ، وهي تعرف أني هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق .

وهل تفهم المرأة هذه المعاني ؟

آمنت بالله ، وكفرت بالحب !

***

أما بعد فقد انتهى ما بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك ، وقد حرمت على نفسي رؤية الزمالك إلى أن أموت ، فحدثوني يا رفاقي عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالي الزمالك ، حدثوني كيف يغني الكروان في الزمالك ، حدثوني كيف تكون أشجار الزمالك في الليل ، حدثوني كيف يثب النيل ليقبل أقدام الزمالك ، حدثوني كيف تصبر عني ليلاي في الزمالك ، حدثوني كيف تصبر عني ليلاي في الزمالك ، حدثوني كيف تغيب الشمس عن الزمالك ، وكيف يطلع القمر على الزمالك ، وكيف تثور عواصف الحب والبغض في الزمالك ؟

حدثوني ، حدثوني ، حدثوني .

انتهى حلم الحب ، وانتهت أيام الزمالك ، وانقضت ليالي الزمالك .

تلك الزمالك لم تكن إلا قطعة من وطني ، ولو شئت لقلت إنها قطعة من كبدي. في الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب .

وبالزمالك شقت روحي ومرض قلبي .

الرسالة الثالثة

صديقي ...

سألتني أن اكتب كلمة عن ليلى المريضة في الزمالك فأثرت في صدري لوعة محرقة كنت أرجو أن تصير بفضل الكتمان والتناسي إلى الخمود .

وماذا يهمني من أمر تلك الإنسانة الظلوم؟

إن الدنيا كلها سخف ، والحب كله بلاء في بلاء ، فلتمض تلك الذكريات إلى جحيم النسيان والجحود .

وقد تعلمت في حياتي أشياء ، وكان أثمن ما تعلمت هو اليأس من وفاء القلوب .

وأقسم بالله ، والحب، ما خططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع ، فمن الحسرة واللوعة أن أنفض يدي من العواطف بعد أن جعلت الكتابة في العواطف مذهبًا أدبيًا له أنصار وأشياع في سائر الأقطار العربية .

ولكن خيبتي في الحب لها أسباب .

وآه ثم آه من الاعتراف بالخيبة !

ليت ضلالي في هواي كان دام حتى أخرج من دنياي وأنا موصول العطف على الملاح !

فإن سألت عن أسباب القطيعة بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك ، فإني أحدثك بأن تلك الأسباب ترجع في جملتها إلى شيء واحد هو العظمة الحقيقية التي فطر الله عليها قلبي .

ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين، فلي قلب ما عرف الناس مثل جوهره النفيس في قديم أو حديث .

هو قلب فطر على الحب والعطف والوفاء .

وقد شاء هذا القلب أن يبسط حنانه على ليلى المريضة في الزمالك .

فماذا صنعت تلك الحمقاء ؟

***

لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة 1937 ؟

كنا عاشقين .

وما أسعد العشاق !

كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل !

كان قلب ليلى أصغر من قلبي .

ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبي ، وهو قلب يرضى بالقليل في بعض الأحيان.

وكنت أتلقى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء .

والذوق كل الذوق أن نفرح بالقليل من الملاح .

كانت ليلى تعد وتخلف ، وكنت أرى إخلافها من الدلال .

وكنت أروضها بنفسي على الإخلاف ، لأني كنت أحب أن أخلق منها دمية روحانية أعاقر في محياها كئوس النبل والصفاء .

وكان ما أردت وأراد الحب العذري حينًا من الزمان .

أردنا مرة أن نؤلف رواية ...

ليتنا ألفنا الرواية !

آه من ليلى ومن زماني !

فأين السبيل إلى الرجاء بل أين السبيل إلى اليأس ؟

أحبك يا غادة الزمالك ، أحبك يا غادرة ، وأعشق ضلالي في هواك النبيل وهواك الأثيم .

ليلاي ، ليلاي ..

ما زال روحي الظامئ يحوم على وردك ، فارحمي الطائر الذي يرفرف حول حماك في السحر والضحى والأصيل ، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذعه الشوق إلى صهباء الرضاب .

أنا مشتاق إلى الكوثر الممنوع الذي كانت قطراته تسكر روحي وتعقر فؤادي. أنا مشتاق إلى النار التي كوت كبدي ، فمتى أواجه النار العصوف ؟

سأقبل قدميك حين أراك يا شقية ، ولكن متى أراك ؟ متى أراك ؟

أفي الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان ؟

أفي الحق أن عربدة الهوى لن تعود ؟

لقد شمت فينا الشامتون فمتى يندحر الشامتون ؟

إنني واثق بطهارة قلبك يا شقية ، ولولا ذلك لأصليتك نار العقوق .

فحدثيني متى ترجعين إليّ ؟ متى ترجعين ؟ متى ترجعين ؟

***

ليلى ، ليلاي التي خرجت من حماها كما خرج آدم من الفردوس أجيبي .

مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان ، فأين تحية رمضان ؟

إن الناس يذكرون موتاهم في هذه الأيام يا معبودتي ، وأنا قتيل الهوى فمن يذكرني إذا صدفت عني ؟

لا تؤاخذيني بما جنيت في حب ليلى المريضة في العـراق ، فمـا كانـت لـيلاي هناك إلا صورة من صور الطهر والنبل والعفاف .

أحب ليلاي في العراق ، وإن تأذيت بذلك ، فاصنعي ما تشائين .

أيتها الحمقاء في الزمالك !

لا أحب أن أرك إلا يوم تعرفين أني صاحب الفضل على جميع الملاح ، فلـولا قلمي ، ولولا بياني لصارت الصبابة ألعوبة من الألاعيب .

أنتظر أن تكون دنيا الصباحة والملاحة طوع يدي .

فإن لم تفعلي – وستفعلين – فودعي دنيا الرفق والحنان .

ليلى ، ليلاي .

إلى صدري يا عروس الزمالك .

إلى صدري يا جارة النيل .

إلى صدر العاشق الوفي الأمين .

عاشق مصر

عشق «زكي مبارك » مصر عشقًا مبرحًا وظل طيلة حياته مشردًا في حبها مضللا في هواها .. يبثها أشواقه وحنينه وحبه يناجي مصر فيقول :

(أحبك يا وطني .. أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول .. أحبك يا وطني وأستعذب عذابي فيك لأنك في عيني وقلبي غاية في روعة الجمال فلم يعان أحد من الظلم في وطنه ما عانيت فما زادني ذلك الظلم الأثيم إلا عرفانا بجمال وطني وهل رأيتم جميلاً غير ظلام .. » .

وهو يرى أنه يخدم وطنه خدمة قومية حين يتغنى بما فيه من مفاتن وألوان الحسن وأطايب الجمال :

(دنيانا في مصر تخضع لخطوب وصروف خلقها الحقد على البلابل والعنادل فيخلو الجو لنعيب البوم مع أن البوم قد انعدم في مصر منذ أجيال وأجيال كما انعدمت الثعالب والذئاب .. وقد أردت أن أتغنى بأزهار الصباحة في وطني .. الوطن الذي لا تقع فيه العيون على غير ما يزيغ البصائر ، ويضل العقول فلم أظفر مع طهارة القلب بغير الاصطباح باللوم الاغتباق بالتثريب .. لابد لي من يوم أغر في خدمة وطني وهو اليوم الذي أهتف فيه بأن مصر هي الوطن الأول للشعر والجمال والفتون ..) .

ويفخر بوطنه قائلاً باعتزاز وزهو (لن تضام مصر ولن يضام أهلها ولن تجف أقلامها ولن يكون لها بين المظلومين مكان .. لا أقول أن مصر باقية ما بقى النيل

ولكني أقول أن مصر باقية ما بقى الوجود .

مصر شرعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأي والبيان وستظل بإذن الله مصدر الفكر والرأي والبيان) .

ويناجي زكي مبارك مصر مناجاة حارة يقول :

(وطني .. إن لم أحمل السيف في حمايتك فقد حملت قلمي في الدفاع عنك والقلم أبقى من السيف وفضلك في الدنيا هو فضل القلم قبل فضل السيف ، وقد أقسم الله بالقلب لا بالسيف فعش إلى الأبد حجة العالم وبرهان الزمان .. وطني .. أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرني في العصبية لك لأنك وطني وحدي ولأني لا أسمح لأحد بأن يسبقني في الوصول إلى مواقع هواك .

وطني .. وطني .. إن عشت لك فسأحمل رايتك في المشرقين والمغربين وسأكون سفيرك في كل أرض يصل إلى أسماع أهلها قلمي .

فإن مت قبل أن أدرك في خدمتك ما أريد فسأكون برغم الحوادث بطل الوطنية والإخلاص .. وسلام الله على أبرار الشهداء ..) .

ويقول : (متى أرجع إلى تدوين الملاحة في البلاد التي يسقيها النيل الوفي الأمين ؟ ..

متى يتسع الوقت لدرس ما في مرابع الوطن الغالي من غرائب السحر والفتون؟

ما هل بلد في وجه القطار إلا وثب القلب .. فما في وادينا بلد خلت أرباضه من آثار الحروب بين العيون والقلوب حتى كدت أومن بأن كل بلد في مصر هو صورة من صور سنتريس أو بغداد أو باريس ..وطني .. أنا أحبك أنا أحبك ..) .

ويبث أشواقه لوطنه فيناجي مصر قائلا في حرارة :

(وطني .. لقد شقيت بعظمتك ومن أجل هذا أحبك وأستعذب الصبر

والعلقم في هواك ! .. وطني ! .. إليك أسلمت قلبي وعقلي ، فخذ بزمامي إلى حيث تشاء يا أنضر دوحة تغنت فوقها البلابل ، ويا أجمل روضة رنت فيها القبلات، ويا أطهر بقعة أقيمت فيها المحاريب . ويا أشرف صحيفة أرهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ ..) .

وقد رسم زكي مبارك صورًا عديدة لكل بقعة جميلة من بقاع مصر فصورها تصويرًا جميلا خلابا وقد رسم العديد من الصور للقاهرة والإسكندرية والمنصورة وسنتريس وغيرها من مرابع الوطن الغالي وكان ينظر إلى القاهرة نظرة عاشق مفتون ويراها أجمل بقعة من بقاع الأرض يقول : (لم يبق شك في أن القاهرة أجمل مدينة في الشرق وقد تكون فيها خصائص لا تعرفها باريس ولا برلين وترجع تلك الخصائص التي تفردت بها القاهرة إلى ما فيها من اختلاف الألوان والأذواق فهي ملتقى للحضارات الشرقية والغربية ومجتمع للصحيح والعليل من العقائد والمذاهب) .

من الذي يصدق أن في القاهرة ألف خطيب في فصاحة سحبان ؟ ..

من الذي يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط في المنافسة والنضال ؟ ..

من الذي يصدق أن زكي مبارك سيؤلف كتابا في مثالب زكي مبارك ؟) .

وهو يرى أن القاهرة ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف يقول :

(ويسألونك عن القاهرة قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم .. اكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة في مساء العيد .. نعم هنا القاهرة ولكن أين الأديب في المدينة التي أصبحت عاصمة الشرق هنا في القاهرة زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدي ما أداه عشاق بغداد في القديم .. وعشاق باريس في الحديث .

وسأذكر بعد فوات الوقت أني جنيت على شبابي حين أضعته بين سواد المداد

وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب .

وهل يستطيع قاهري أن يمضي يومًا واحدًا بلا كفاح وهو يعيش في مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة .

في مثل هذا العيد من سنة 1932 كذبت على أبي وأمي ولم أكذب عليه غير تلك المرة .. كتبت إليه أقول أني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية ولم يكن ذلك إلا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت لأكتب فصلا من فصول (النثر الفني) وهو الفصل الخامس بتطور السجع في اللغة العربية .

إنما أنا قاهري يحبس نفسه في البيت يوم عيد ليحفر بسنان القلم ثقبًا يتطلع منه على ضوء العظمة في القاهرة عساه يقنع القاهرة بأنه رجل مجتهد يستحق أن يعيش) ويقول : (لو كان الماضي ينفع لرجل مثلي أن يعتمد على ماضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية .. ولكن القاهرة تعبس في وجه الرجل الذي يعتمد على ماضيه لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء .. أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق. هي حسناء لعوب لا تعرف حتى العاشق المزود بأطايب الثروة والعافية ..)

هذه هي القاهرة كما رآها زكي مبارك .

***

وأما الإسكندرية فقد كان مفتونًا بها وكان يسافر إليها دائمًا وأوحت إليه العديد من المقالات والقصائد ، وكان يرجع سبب عشقه للإسكندرية أنه أمضى فيها فترة من عمره أسيرًا بعد ثورة 1919 يقول عن السر في حبه للإسكندرية : (السبب يرجع إلى أني دخلت الإسكندرية أول مرة وأنا حزين دخلتها في قفص دخلتها في سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الإنجليزية في أيام الثورة المصرية ..دخلتها في الظلام فلم أر من جمالها غير أطياف .. ثم نقلت من ذلك السجن المتحرك إلى مقر الاعتقال في ضاحية نائية هي اليوم صبابة ومدارج فتون

ومن يصدق أن ضاحية سيدي بشر كانت معتقلا يسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال ؟ .. وفي سنة 1943 كتب الشيخ محمود أبو العيون يقول : أن زيارة الشواطئ تفسد الأخلاق ودعا إلى الثورة على شواطئ الاصطياف .

فامتشق زكي مبارك قلمه وكتب[1] ليرد على الشيخ أبو العيون بلهجة ساخرة (أن الشيخ أبو العيون يغرق في كوز ماء فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط ؟ ..

هل تعرفون أن الشيخ أبو العيون لم ير الشواطئ مع أنه يعيش في الإسكندرية منذ سنين ، ومع أنه أبو العيون ؟ ..

(1) الرسالة: الحديث ذو شجون، أغسطس 1943.

مأساة عاشق الجمال

لماذا تحطم زكي مبارك ؟

كان زكي مبارك صريحًا صادقًا في تصوير عواطفه وأحاسيسه وقد أفصح عن سرائر روحه وأسرار قلبه بصدق وصراحة وكان في ذلك «نسيج وحده » في أدبنا العربي ، لقد ترك لنا اعترافاته ومذكراته وأظهر لنا كل ما تخفي نفسه بصراحة وجرأة :

« إن الذي يخدعك هو أن الرجل الذي يخفي عنك أشياء ويظهر أخرى ، إنه الرجل الذي يداري أنيابه ويبدو لك في صورة الوقار والسماحة وهو مطوي الأضالع على الغل والحقد » .

لقد أراد زكي مبارك أن يغاير التقاليد فكره النفاق والخداع .. أراد أن يكون الأديب الصريح الصادق في أدبنا الحديث.. وبدأ التجربة ومن هنا كانت مأساته .

تعرض لمتاعب ومضايقات كثيرة في حياته ...

كان صريحًا في التعبير عن عواطفه ومشاعره الوجدانية ، وكان صريحًا في التعبير عن آرائه في الآخرين بغض النظر عن كونهم رؤساءه سواء كانوا في منصب كبير أم صغير .. لم يكن يلتفت إلى هذه الناحية .. فجرت عليه صراحته الكثير من المتاعب والمضايقات .. أتهم بأنه من أنصار الأدب المكشوف ، فعندما أصدر كتابه «مدامع العشاق » عام 1924 قال عنه الدكتور طه حسين في جريدة «السياسة» : « إنه كتاب يحرض على الشهوات » ووصف زكي مبارك بأنه حاد الشباب عنيفه» وكان الأدب عند ذكي مبارك كالفن يجب أن يسمو على الأوضاع

والتقاليد حتى لا يفتر ويضوي بوضعه تحت رحمة المتزمتين . ويصور مذهبه الأدبي الصريح فيقول :

«ما أردت إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ، ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون، لأني بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية ، ولأني رجل متأهل ولي أبناء .. قد يكون في القراء من يخفي عليه أني أدعو إلى مبادئ خلقية سامية أغشيها بالفتون ، كما يصنع الطبيب في تغشيه «البرشامة المرة» بغشاء من الحلواء » .

ثم يتحدث عن مذهبه الأدبي بصورة أوضح ، فيقول: [1]

«أنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره في ما أرى وأسمع .. إن سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعي النيابة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟ نحن نريد أن نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم . نحن نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل ، بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية ، نحن نفكر في خلق عصبية أدبية ولن نصل إلى ذلك إلا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول . وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ويطعمنا في الخلود » .

ولقد اتخذ خصومه مما كان يكتب في أدب الوجدان ومن اعترافاته ووجدانياته سلاحا في يدهم شهروه في وجهه لمهاجمته والنيل منه ، خاصة في أعوامه الأخيرة في ذروة مأساته بعد أن عجز عن الرد عليهم بنفس القوة والعرامة التي كان عليها في عنفوان شبابه ورجولته .

***

لقد قضى زكي مبارك جل حياته في التدريس وفي مجال التعليم ، وقد بدأ

(1) الرسالة : 19 فبراير 1940 .

حياته بالتدريس وظل يعمل في هذا الحقل حتى وصل إلى منصب مـدرس في كليـة الآداب . ثم أخرجه الدكتور طه حسين مـن الجامعـة عـام 1934 ، بسـبب انتقـاد الدكتور زكي مبارك لآراء الدكتور طه حسين في كتابـه عـن النثـر الفنـي ، فـرفض الدكتور طه تجديد عقده وقال : « أنـا لم أستشـر في تعيينـه فـلا أستشـار في تجديـد عقده». ومن هنا بدأت معركة عنيفة من جانب الدكتور مبارك فكتب يقول[1] :

«لقد ظن طه حسين أنه قد انتزع اللقمة من يـد أطفـالي ، فلـيعلم حضـرته أن أطفالي لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمـه ، ولكـنهم لـن يجوعـوا مـا دامت أرزاقهم بيد الله » . وتأثر لذلك كبـار الكتـاب والأدبـاء حـين رأوا الـدكتور مبارك الذي جاهد في الخارج حتى حصل على أرفع الشهادات العلميـة بمجهـوده الخاص ، يخرج من الجامعة وليس له أي مورد آخـر وأسـرته كبيـرة ومسـئولياته ضخام ، فكتب المازني موجهًا الكلمة إلى الدكتور طه حسين ، فقال :

«إني أرى الدكتور طه قد خرج من زمرتنا معشـر الأدبـاء الأحـرار ودخـل في زمرة الملقبين وذوي الجاه والسطوة والسلطان » ..

«يعز عليّ يا صاحبي أن أقول إنك ما كدت ترجـع إلى الجامعـة حتـى صـببت نقمتك على الدكتور زكي مبارك تلميذك القديم ، أنت إذن من أصـحاب السـلطان الذين يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها ، إنما أنت رجل يـدني ويقصـي ويضرب اليد التي ترتفع باللقمة إلى الفم فيطيرها ويوقعها في التراب .

«إني لأحدث نفسي أحيانا بأني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيـت طـه حسين ، فإنه يخيل إلى أنه مات طه حسين ، الذي عرفته وأحببتـه وأكبرتـه ، وجـاء غيره الذي أنكره » .

ومضى زكي مبـارك يجاهـد في حقـل الصـحافة الأدبيـة سـعيًا لرزقـه ورزق أولاده، ثم ما لبث أن عمل بوزارة المعـارف العموميـة ، ولكنـه لم يتـرك صـراحته

(1) البلاغ : 1934 .

وجرأته فلقي صدمات عنيفة من بعض وزراء المعارف ومن رؤسائه الذين لم تعجبهم صراحته وصدقه فلاحقوه بالاضطهاد وقبرت جهوده في وظيفة مفتش بالوزارة ، ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلمية يتخلف ، بينما يرى الآخرين من هم أقل منه يسبقونه في الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق والمداراة، فأحس بالظلم والألم وشعر بالمرارة وهتف يقول : « كيف فاتني أن أنافق في عصر لم يعش فيه غير النفاق؟ » ولاحقه وزراء المعارف بالاضطهاد ، فعندما وقع الخلاف بينه وبين السنهوري أخرج من وزارة المعارف لأنه موظف بعقد ، ثم لاحقه أيضًا عندما عمل أستاذًا للأدب العربي بالمعهد العالي لفن التمثيل، فكتب السنهوري كتابًا يقول فيه : إن التدريس بالمعهد العالي مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فأنت مفصول .

وقال زكي مبارك : «خرجت والدمع يتفجر من قلبي قبل أن يتفجر من عيني» كما لاحقه إسماعيل القباني أيضًا بالاضطهاد .. وكانت صراحته هي التي جرت عليه هذه المتاعب والمضايقات ...

«إن وزراء المعارف تكاتفوا على مخاصمتي لأني قلت كلمة الصدقِّ فنفوني من وزارة المعارف .. دخلت وزارة المعارف وأنا أعظم الرجال وخرجت منها وأنا أعظم الرجال .. من الوزر جاء اسم وزارة المعارف » .

وتركت تلك الصدمات العنيفة آثارًا سيئة في نفسيته فكفر بالكثير من القيم التي طالما آمن بها وأحس بالمزيد من المرارة وهو يرى أن كفاحه في سبيل الأدب ضائع وكفاحه في ميدان التعليم ضائع ورأى نفسه وقد أحاطته الدسائس والأراجيف من كل ناحية . حينئذ أحس بالمرارة والأسى وندم على تركه صحبة الفأس يوم كان فلاحا في سنتريس ، وقال إن الاتجار بالتراب كان أجدى له من صحبة القلم ، يقول :

«ليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ، ولكنه – بلا أسف – سيموت فقيرًا ، لأنه أنفق نشاطه في خدمة

الأدب العربي » .

ولقد أعيد زكي مبارك عندما عين على أيوب وزيرًا للمعارف إلى دار الكتب ، ثم أعاده الدكتور طه حسين إلى التفتيش في وزارة المعارف ، ورجع إلى التفتيش بعد تولي زكي العرابي الوزارة عام 1950 في الدرجة الثالثة ، كما كان وضعه عام 1937 ، وكان زكي مبارك إذ ذاك يقترب من الستين فغامت الدنيا في عينيه وسحقه اليأس، وقد هزته تلك الصدمات المتوالية هزًا عنيفًا ، وكان يتقاضى مرتبًا ضئيلاً لا يكفيه هو وأسرته الكبيرة .

وكانت مأساة زكي مبارك أنه لم يكن صنيعة حزب من الأحزاب ، ولم يكن له سناد من الأسندة التي رفعت كثيرًا من أدباء مصر ، فعرفوا راحة البال وعاشوا في حماية الأحزاب ، مثل المنفلوطي ، والعقاد ، وطه حسين وهيكل ، وغيرهم ...

***

وكان للمرأة أثر كبير في مأساة زكي مبارك .. لقد كان يحلم بالحب الكبير .. وبالمرأة التي صورها بصورة مثالية في أدبه .. وقد افتقد ذلك في الواقع ، فقد زوجوه في سن مبكرة وهو طالب في الأزهر وحدثت فجوة كبيرة بين الأديب الفنان المرهف الحس ، وتلك الزوجة الطيبة البسيطة ، ولكنه رغم ذلك ظل يفخر بزوجته الفلاحة التي حفظت عرضه مصونا ، وقلبه مصونًا ، ثم ذهب إلى باريس ورأى من صور الحرية والحياة والانطلاق ما رأى ، وهو الرجل المحافظ المتزوج .. وهنا أحس بالتناقض والأزمة ، وقد مر بنفس التجربة والأزمة بطل قصة «أديب» للدكتور طه حسين وهو صديق للدكتور طه اسمه « جلال شعيب» الذي أصيب بالجنون في نهاية حياته بعد تجربة عاصفة في باريس .. وأرى أن هناك ملامح من حياة زكي مبارك وجلال شعيب في كثير من نواحي حياتهما .

ولم يجد زكي مبارك في أزمته الأخيرة عاطفة حب كبيرة تعوضه عن إحساسه بالنقص في أوضاعه الاجتماعية والمادية والعاطفية كما أن الملهمة التي كانت

«الحب الكبير » في حياته وهي « زوزو » أو ليلى المريضة في الزمالك تخلت عنه في أعوامه الأخيرة ، واتجهت إلى أضواء السينما والمسرح بعد أن تعرض للاضطهاد في عمله .

وكانت هناك ظروف غدر وهجر من محبوباته فشرع قلمه يهاجم المرأة بعنف وقسوة ، وكتب في بداية مأساته في عام 1942 كتابًا بعنوان «بين آدم وحواء» في مجلة الرسالة هاجم فيه المرأة بأسلوب ملفوف ، ثم عاد وهاجم المرأة في أعوامه الأخيرة بأسلوب عنيف قاس ودعا إلى الحذر منها وعدم الاطمئنان إليها فكتب يقول عنها :[1]

« إن الخراب الذي ينتظر البيوت التي يسيطر عليها «الجنس اللطيف » ونعوذ بالله من شر هذا الجنس ، فهو في كل مكان وفي كل زمان مصدر البلاء .

«وخلاصة القول أن الرجل لن يذوق طعم السعادة أو الشرف إلا إن كان السيد الأول والأخير في البيت » ! وقال في أسى ومرارة :

«إن الحب تجارة خاسرة ، وأرض موات ... »

(1) الرسالة / 2 فبراير 1942 .

مأساة زكي مبارك

أحس زكي مبارك بالمرارة والضياع ، وهاله أن يجد نفسه في المؤخرة وقد كافح كفاحًا علميًا دؤوبًا ونال أرفع الشهادات من جامعة القاهرة وجامعة السربون، وكانت صراحته وصدقة سبب بلائه ، فقد جرت عليه الكثير من المتاعب .. يقول أحمد حسن الزيات :

«لو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئًا من «فن الحياة» لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة » .

بعد أن تعرض زكي مبارك للاضطهاد في عمله وتخلى محبوباته عنه ، وتخلى بعض أصدقاء عمره الذين طالما دافع عنهم ، وأحسن إليهم . ومما زاد محنته ، وأثار أساه وأحزانه ، أن صديقه أحمد حسن الزيات فتح صفحات «الرسالة» عام 1944 لنفر من المتعصبين الجامدين أمثال محمد أحمد الغمراوي ، والسباعي بيومي ، ومحمود قراعة للهجوم على زكي مبارك ، فاتهموه بالإلحاد والمجون والتخبط ، فتناوبوا الهجوم عليه ، وحاولوا تأويل كتاباته خاصة من كتابيه «النثر الفني » و« التصوف الإسلامي » لمحاولة تحطيمه ، وإثارة الرأي العام عليه ، متمسحين بالدين الإسلامي فكتب الغمراوي عن القرآن في كتاب النثر الفني » وجه في مقالاته التهم جزافا للدكتور زكي مبارك واعتسف في أدلته ، فاتهمه بالدعوة لوحدة الوجود ، وإنكار إعجاز القرآن ، وبالتناقض ، وشارك في تلك الحملة المنظمة السباعي بيومي ، ومحمود قراعة ، وعبد المتعال الصعيدي وامتدت حتى سنة 1945 ، وكتب زكي مبارك ردًا على جوقة الحاقدين يقول لهم

فيها ممثلين في الغمراوي :

«آرائي في إعجاز القرآن بكتاب النثر الفني آراء تقنع المستنيرين بإعجاز القرآن ، وهم الفئة التي تخاف عليها من الارتياب في إعجاز القرآن .

«لا خوف من إلحاد العوام ، فإيمانهم لن يتعرض لأي زلزال ، ولكن الخوف من إلحاد الخواص ، وقد أقنعتهم في كتاب «النثر الفني » بصحة إعجاز القرآن هؤلاء الخواص كانوا في بالي وأنا أؤلف كتاب «النثر الفني » أ فأشبعتهم إيمانًا بإعجاز القرآن ، ولن يرضيهم كلام غير كلامي .

«ثم ماذا ؟ لم أترك محاسبتك على حقدك ، ولا أرجو الله أن يغفر لك ، فما لمثلك مكان في فردوس الغفران .

«وإن بدا لك أن تعاود الإصرار على اتهامي في إسلامي فأقول بعبارة صريحة إن إسلامك مدخول ، وإنك تستر جهلك بدعوى الغيرة على الدين الحنيف

«وما غرامك بأن تفهم قراء الرسالة أني أحارب القرآن ؟

«وما هذا الغرام الأثيم بإيذاء المؤمنين يا هذا الشخص المسلم بالصورة لا بالوجدان ؟

«إن آرائي في إعجاز القرآن شرحت صدور الألوف من المسلمين ، وأقنعتهم بأن القرآن قوة روحية لا قوة لفظية ، وأن روحانيته هي السر في ظفره بالخلود

«اترك تكفير الدكتور زكي مبارك ، وتكفير الدكتور طه حسين .

«يا هذا الفلان ، واشغل نفسك بمصيرك ، يا شخصًا لن يكون له نصير ، ولو اعتصم بالخيوط الفانية مما ينسج السراب .

«أنا أقنعت المثقفين بإعجاز القرآن ، فماذا صنعت أنت ؟

ثم يختتم د. زكي مبارك كلمته في مواجهة تلك الحملة الشرسة الظالمة للتشكيك في إسلامه فيقول :

« أما بعد ، فهذا جوابي لقرائي ، وهو جواب رجل يقال إنه ملحد ، ردًا على مفتريات يذيعها عني جهول يدعو إلى اتهامي في إسلامي .

«فلن أترك الرد عليك ما دامت مجلة الرسالة ترى أنك أهل لنشر ما تسوق من المفتريات .

«رأيي هو الرأي ، ويكفيني مجدًا وشرفًا أني أقنعت المثقفين بإعجاز القرآن ، وعند الله جزائي ، وما عند الله أخلد من الخلود » .

وغض الزيات نظره على هذه الحملة الشرسة ضد صديقه زكي مبارك الذي طالما سانده ، وقامت الرسالة على أكتافه ، وكان الهدف هو إخراج زكي مبارك من الرسالة ، وبالفعل توقفت مقالات زكي مبارك في الرسالة في مطلع عام 1945 ، وانتقل للكتابة في صحيفة «البلاغ » حتى رحيله .

وقيل أن الزيات قد استجاب لوزارة المعارف بإخراج زكي مبارك من الرسالة بعد مساجلاته مع وزراء المعارف وحملته الصريحة عليهم، لحرص الزيات على اشتراك الوزارة في الرسالة.

وإذا كان الزيات قد فتح صفحات الرسالة بلا رقيب لهذه الحملة على زكي مبارك ، وإثارة البلبلة والشكوك حول إسلامه من خلال كتابيه «النثر الفني » و«التصوف الإسلامي» ولكن هل نسى الزيات ما كتبه عن زكي مبارك حين أصدر كتابه «التصوف الإسلامي » عام 1939 ، حيث كتب الزيات يقول[1] :

«وفي رأينا أن هذا الكتاب «التصوف ألإسلامي » يؤرخ طورًا جديدًا من حياة صديقنا الدكتور : هو طور التأمل والتعمق والنفوذ إلى صميم الجد في الموضوع .

«وهو خليق بأن يسدل على ما تقدمه من مغامراته الجريئة في الرأي والفعل ستارًا من الصفح الجميل .

(1) الرسالة / 1939 .

«وإذا كان الله قد عود الشعراء والأدباء أنه يغفر لهم ذنوبهم ما تقدم وتأخر لبيت من الشعر أو خاطرة من الرأي ، فما أحرى زكي مبارك أن يُدخل معه الجنة على حساب كتابه ألفًا من الأدباء المحرومين » بعد تعرض زكي مبارك للاضطهاد في عمله بوزارة المعارف وتخلى محبوباته عنه ، وتخلى الأصدقاء عنه في أعوامه الأخيرة ، لجأ إلى الشراب يتخذه ملجأ وملاذًا يهرب به من واقعه المر الأليم لينسى مأساته وواقعه ، ولم يستطع أن يخوض المعارك والمساجلات ليرد على الذين استغلوا انهياره وهاجموه في ظروف محنته .

وفي أعوامه الأخيرة هام بالعزلة ، وكلف بالوحدة ، وانطوى على نفسه بعيدًا عن المجتمع في وحدة ممضة قاسية ، ولم يعد يكتب سوى خواطر متناثرة مشتتة في جريدة «البلاغ» تحت عنوان «الحديث ذو شجون» ليس فيها خفة ظل زكي مبارك ورقة بيانه .

ومن هنا كانت مأساة إنسان مرهف الإحساس رقيق العاطفة ، ومفكر كبير كان ضحية لظروف وعوامل قاسية عملت على تحطيمه وهدمه .. لم يفهم واقع المجتمع .. واتخذ من الصراحة الكاملة مذهبًا .. لقد أراد أن يغاير التقاليد ، وأراد أن يخلق فنا في أدب الحب والجمال ، وظن أن أحاديثه الوجدانية المستمرة عن الحب والجمال ستمر بلا عقابيل ، ولن تكون لها آثار مدمرة ..

لقد اتخذ خصومه من هذه الأحاديث الصادقة في الحب والجمال سلاحًا ناجعًا ليحطموه به في أعوامه الخيرة ، والحق أن أكثر هذه الأحاديث الوجدانية كانت من وحي أحلام قلبه وأوهام عاطفته ..

وفي إبان محنته القاسية (1944 – 1952) هاجم المرأة بعنف وقسوة ، ودعا على الحذر منها ، فازدادت الحملة عليه ضراوة ، وظن البعض أنه يتناقض في أقواله ويتذبذب في مواقفه ، فكيف يصرح بهذا الكلام من ملأ الدنيا غرامًا وتشبيبًا، ومن كان يقدس الحسن ويعبد الجمال .. هاجموه لتلك الخواطر الحزينة اليائسة وغاب عن بالهم ظروف محنته ومأساته ..

ويحس مبارك بالمرارة والندم على اشتغاله بالأدب (لو كنت اتجرت بالتراب لصرت اليوم من أكابر الأغنياء ، ولكني اشتغلت مع الأسف بالأدب فذرعت فضاء الله في فرنسا إلى أن سبحت في بحر المانش وذرعت فضاء الله في العراق إلى أن سبحت في شط العرب واشتغلت بالتدريس عشرين سنة فكانت صراحتي تقطع رزقي فأخرجني الأستاذ محمد حسن العشماوي من عملي وأخرجني الأستاذ عبد الرازق السنهوري من وزارة المعارف) .

ويصف عبد الله حبيب الدكتور زكي مبارك فيقول أنه (خلق بغير فرامل أو هو كالسيارة الضخمة التي لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة سيرها فهو إن سار لابد من حادثة تصادم) .

لن يموت زكي مبارك

كتب الأديب إبراهيم عبده سنة 1945 مقالا في مجلة الاثنين[1] أراد أن يداعب فيه «زكي مبارك » فكتب تحت عنوان « زكي مبارك في ذمة الله» قال فيه :

«قضى اليوم المرحوم الدكتور «زكي مبارك» انهار بقضاء الله فيه ركن من أركان العلم والفضل والأدب .

«قضى الأديب الكاتب وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب مأسوفًا عليه من الخصوم والأصدقاء على السواء .

«استغفر الله ، فإن أديبنا العظيم لم يكن له خصوم في هذه الدنيا وأكبر الظن فلن يكون له خصوم في دار البقاء !

«قضى درة عصره وأطروحة عصره ، وقد خلف ميدان الأدب يتيما ، ينعي علمه الذي أقامه وبناه وشيعه الأدباء وقد أصبحوا من بعده ثكالي أو كالثكالي وفطر قلبنا بكاء الأستاذ أحمد أمين الذي كانت تربطه بالفقيد أوثق روابط الود والوئام .

«فإن زكي مبارك وظف قلمه الرقيق في الدعوة لزميله وتقريظ مؤلفاته وذكره بالخير في كل مكان ، وكذلك هزت عواطفنا تعليقات الدكتور طه حسين على هذه الوفاة ، فإن الفقيد الكبير كان صديقًا باراً لم يسيء إليه مرة أو يهون من مكانته بين العلماء .

«وكانت شهقات الأستاذ عباس محمود العقاد تثير في نفوس المشيعين

(1) الاثنين والدنيا 3 أبريل 1945 دار الهلال .

الأسى والعقاد قليل الحزن قليل البكاء ولكنه بكى وأبكانا معه على الفقيد الذي منحه العقاد احترامه الشديد وسماه «كاتب الشرق» وخلع عليه عمادة الأدب القديم والحديث .

«كان الدكتور زكي مبارك أديبًا متواضعًا جدًا لا يتحدث عن نفسه ويأبى على الصحف أن تذيع اسمه مهما تكن المناسبات !

«وكان يكره الألقاب العلمية كراهة التحريم ، وقد أصدر عدة كتب في الأدب والاجتماع وأغفل اسمه من أغلفتها ومن بواطنها .. ولولا تلاميذه ومريدوه لأسقط التاريخ اسمه الكبير .

«لقد عرضت إحدى دور النشر على الفقيد مقابل كبير أن تصدر كتابًا له بصورته الجميلة ، فأبى لأنه كان يكره أي لون من ألوان الدعاية مع أن صورته عند القارئ الفطن أعز من الكتاب .

ثم يمضي إبراهيم عبده في دعابته الثقيلة بادعاء وفاة زكي مبارك باعتبارها كذبة إبريل فيقول :

«كان رحمه الله ، فتى غض الإهاب ، إذا نظرت إليه أخذك الوجه النضر ، وجذبتك العينان الساحرتان ، وهزت قلبك الابتسامة الرقيقة ، وصرعك الدر المنفرجة عنه !

(وحسبنا الله ونعم الوكيل في شعره المجعد المصفف الذي أخذ طربوشه المصفى إلى الشمال قليلا . «ولم يكن صديقنا يؤثر في الشباب بأدبه فحسب ، بل كانوا يأخذون عنه بأساليب الأناقة فيتأثرون في اختيار رباط الرقبة وينهجون نهجه في تفصيل الثياب المحبوكة وتخير ألوانها .

«ويعجبون بأحذيته المثالية فينتعلونها مثلما ينتعل ، ويعتبرونه أسوة صالحة إذا ما تحدث أو أكل !

«كان الفقيد شديد الإيمان بربه ورسله واليوم الآخر ، ويكره الخمر ولا يحب أن يتذوقها ويكره البيرة خاصة .

(وكان مفتشًا في وزارة المعارف يحبه المدرسون حبًا جما ، وكان كريمًا سخيًا ينافس حاتم الطائي في كرمه وسخائه ، محسنًا بعيد الصيت ، مسرفًا في إحسانه لا تعرف يده اليسرى ما أعطت يده اليمني.

«نرثيه والقلم يرتعش في أيدينا ونذكره والخوف يملأ قلوبنا ، فأننا نخشى أن نكون قد أسأنا الرثاء » ولابد يومًا من لقاء في دار البقاء » !

وقد أثارت هذه الدعابة القاسية التي اتضح أنها كذبة أول أبريل ضجة واسعة، فعلق العقاد على هذه الدعابة بقوله : لو تقدم نعي د. زكي مبارك أسبوعًا لصدقناه ، ويا ليته تقدم أسبوعًا فقد كتب « زكي مبارك قبل نعيه بيومين مقالا حمل فيه حملة عنيفة على العقاد .

وقد اتصل الكثيرون بمنزل الفقيد ليستوضحوا موعدا الجنازة وكانت المفاجأة أن الدكتور زكي مبارك يرد عليهم بنفسه ويذكرهم بأنهم في أول أبريل » .

وقد حضر من سنتريس كثيرون من أقاربه منزعجين لهذه الوفاة المفاجئة كما انهالت عشرات البرقيات في رثائه .

وعندما ذهب د . زكي مبارك لإلقاء محاضراته في معهد التمثيل بعد إعلان وفاته المزعومة . وجد طلبته مجتمعين وبينهم خطيب يؤمن الفقيد فظهر د . زكي في وسطهم وقال لهم: «لقد أتيتكم من جهنم حيث تطيب الحياة لأمثالكم وكل سنة وأنتم طيبون في أول إبريل » .

وامتشق الدكتور زكي مبارك قلمه وكتب تحت عنوان «لن يموت زكي مبارك قال فيه[1] :

---

(1) الاثنين والدنيا 9 أبريل 1945 .

«قرأت الدعابة الطريفة التي تشرها د . إبراهيم عبده في مجلة الاثنين الصادرة في «أول أبريل » فتذكرت أشياء وقعت في أول «الأباريل» الماضية أشياء كانت أجمل ما وقع في حياتي ، وهي أسرار مجدي في حياتي » ففي شهر أبريل من سنة 1924 تقرر قبول الرسالة التي قدمتها للظفر بالدكتوراة في الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة عن الأخلاق عند الغزالي .

«وفي اليوم الخامس والعشرين من أبريل سنة 1931 ظفرت بالدكتوراة من جامعة باريس عن النثر الفني » .

«وفي اليوم الرابع من إبريل سنة 1937 ظفرت بالدكتوراة في الفلسفة مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية الجديدة عن «التصوف الإسلامي» .

«وفي اليوم الأول من أبريل سنة1945 نعاني الناعي مداعبًا في مجلة الاثنين فكانت فرصة أختبر فيها أخلاقي ، ولكن كيف ؟

«إن الدعابة قضت بأن يمشي في جنازتي حضرات الأساتذة أحمد أمين وطه حسين ، والعقاد !

«إنها لدعابة قاسية ، ولكنها مردودة على المداعب الظريف ، فما يجوز وهما أن يشمت هؤلاء الأساتذة يوم أموت ، فما أنصفهم قلم بمثل ما أنصفهم قلمي ؟

«ثم ماذا ؟

«ثم تكون كذبة إبريل شاهدًا بعظمة إبريل ففي هذا الصباح تنزعج روح غالية فتسأل بالتليفون عن موعد تشييع الجنازة فيكون المخاطب لصوتها هو صوتي ويكون الجواب :

لقد خفت أن يغتالني الموت بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيا

«وأنا لن أموت قبل أن أظفر بما أريد من تلك الروح !

«وما هو الموت ؟

«وما هو تكريم الأموات ؟

«إن كان الموت أن يتهدم جسمي يوما فهذا سيقع ، وإن كان الموت أن آرائي ستموت فتلك أكذوبه من أظرف الأكاذيب ، فأرائي ستسيطر على النـاس إلى آخـر الزمان !

«قد أموت ، فما هي وصيتي لأبنائي ؟

«وصيتي إليهم أن يتخلقوا بأخلاقي العلمية !

نجوت من الموت

في سنة 1948 تعرض الدكتور زكي مبارك للموت بالتسمم في الإسكندرية لولا لطف الله وكان في تلك الحقبة من حياته يعاني من مصاعب عدة ويصور زكي مبارك تلك الحادثة بأسلوبه الطريف وخفة ظلة فكتب يقول : [1]

(لقد نجوت من الموت ولله الحمد والله يكرم من عباده من يريد خطر في البال أن يكون طعامي في إسكندرية من الأسماك فطلبت من المطعم الفلاني سمكة فقدم سمكة مشوية اسمها (المياس) وثمنها عشرون قرشًا . لقد تشاءت من السمكة فقد كان فمها مفتوحًا ولكن مدير المطعم أقسم أنها جديدة فأكلت منها قطعتين .

رجعت إلى البيت وأنا أشعر بالتسمم وهجعت لحظات ثم صحوت وأنا أقول لن يرثيني أحد يوم أموت فيجب أن أعيش لأغيظ أعدائي ! ..

ما الذي كانت تكتبه عني جريدة البلاغ ؟..

أظنها تقول : مات الدكاترة زكي مبارك واستراح منه القراء ! ...

حين شعرت بالتسمم تذكرت اختلاف النحويين في إعراب (أكلت السمكة حتى رأسها) فما بعد السيدة (حتى) يجوز جره ونصبه ورفعه وحتى اسم امرأة أعرفها ...

(1) البلاغ . الحديث ذو شجون . 23 فبراير 1948 .

ولم أصدق أنني نجوت ولكن المؤكد أنني نجوت من الموت ولله الحمد وعليه الثناء سألت نفسي : هل يكون في الجنة جريدة اسمها البلاغ وفيها صفحة أدبية أحررها بقلمي وهو قلم عجزت عن شرائه الدعاية البريطانية في أعوام الحرب ؟ أكتب هذا وأكرره على صفحات البلاغ فما استطاعت دولة أن تشتري ضميري وهو قلمي .

الفقر في الجيب ليس بعيب وإنما العيب هو الفقر في الأخلاق.

إنني أعتز بنفسي وبأخلاقي، فما رأيت أشرف مني وعلى خصومي أن يموتوا بغيظهم إن كانوا صادقين !

أنا نجوت من الموت ؟ .. نجوت ونجوت ونجوت ولله الحمد وعليه الثناء ، لقد عرفت السماء أنني مريض بالتسمم وقد أموت .. فقضت الليل والنهار في بكاء! ..

أنا متشكر أيتها السماء ! .. من الذي يصف ليالي الإسكندرية لو قضت الأقدار بأن أموت ! ؟ ..

وسألت نفسي من جديد : هل تكون في الجنة جرائد ومجلات ومطابع وقلم مطبوعات وأشعار نظمتها للتغني بالحور العين ! ؟

وهل يكون فيها محاكم ومحامون !؟ وهل يكون فيها مجمع لغوي !؟

أنا لا أستريح إلى حياة خالية من المشاغبات ، فإن كانت طريقي إلى الجنة فسأنشئ فيها جريدة ! .. وإن كانت طريقي إلى جهنم فسأنشئ فيها ثلاث جرائد ! .. والمنهاج مرتب منذ اليوم وقد اخترت المحررين المخبرين والمترجمين وجعلت الأفضلية لزملائي في جريدة البلاغ ! ..

أنا لا أكاد أصدق أنني نجوت ولكني بحمد الله نجوت وهذه الصفحات تشهد بنجاتي من شماته أعدائي !..

كنت أتوهم أن الجد في طلب العلم لا يظفر صاحبه بغيـر الإعـزاز والتبجيـل ويوم كنت أتخيل أن الكفاح في سبيل الأدب قد تنصب له الموازيين .. كنت طالبـا وكنت مدرسًا بالجامعة المصرية من سنة 1913 إلى سنة 1937 ودرت معهـا مـن ميدان الإسماعيلية إلى ميدان الفلكي ومن حي المنيـرة إلى قصـر الزعفـران ثـم إلى حديقة الأورمان ولم يزاحم هواها في فؤادي غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس) .

***

أضاعوني .. وأي فتى أضاعوا !..

كتب زكي مبارك يقول في سنواته الأخيرة تحت هذا العنوان :[1]

«آه ثم آه ! .. وآه ثم آه .. ثم آه !

أضاعوني .. وليتهم عرفوا أي الفتيان أضاعوا ؟

«أضاعوا الأديب اللوذعي والكاتب الألمعي والبحاثة الذي لا يشق لـه غبـار .. وصاحب القلم الذي كتب «ألحان الخلود» وسجل لنفسه كل آيات الخلود» .

«آه ثم آه !

«أضاعوا الدكاترة زكي مبارك ولو كان الأمر مقصورًا على دكتور واحد لهـان الأمر ولكن الأمر يشمل الدكاترة الثلاثة الخالدين !

«بالله عليكم .. هل يصح هذا أيها الناس ؟

«أهكذا تضيع القيم ؟!

«وهكذا تضيع العبقريات ؟!

أنا ما ضـيعت في الأوهـام عمـري .. ولكنـي ضـيعته في الأبحـاث ولـيس في الشرق ولا في الغرب ولا في الهند ولا في السند رجل له جلد على البحث والـدرس مثلي وكان أستاذي في السربون يقول لي :

(1) مجلة مسامرات الجيب ، 25 ديسمبر 1949 .

«أنا أحسدك على نشاطك يا دكتور أنت لك مـن الجلـد مثـل مـا لعشـرة مـن الرجال !

«واسألوا عني ليلى المريضة في العراق تخبركم عني الخبر اليقين .

«ثم يأتون بعد ذلك .. ويضيعوني !

«آه ثم آه يا بلد !

«ولكن من الذين أضاعوني ؟

«هل فيهم من كتب مثل ما كتبت ؟ ونظم مثـل مـا نظمـت ؟ أو دون مثـل مـا دونت ؟ أو بحث وحقق في العربية مثل ما بحثت وحققت ؟

«أنا رجل ذو ضمير ولو افترى المفترون !

«أنا رجل له ماضٍ وله حاضر وله مستقبل في الحياة . وفي التاريخ .

فهل لك أن تحدثني عن خصومي وعن أي ماضٍ لهم أو حاضر أو مستقبل ؟

«لن تجد إلا اسمي .. وأفعالي الغر الخالدات ؟

«أنا أسهر الليل كله ولا يستطيع الشبان أن يسهروه ثم أصل بالليل النهار !

«وأنا أستطيع أن أمشي عشرات الكيلو مترات وأين من هـذه القـوة الهرقليـة من ميوعة شبان هذا الزمان .

« أضاعوني ! أضاعوني وأنا القائل :

يــا لــيلى يــا يلــيلى يــا ليــل يــا لــيلى يــا لــيلى يــا ليــل

آه ثم آه وآه !

ولكن زكي مبارك اسم لن يضيع !

وكان آخر مقال كتبه د . زكي مبارك تحت عنوان الحـديث ذو شـجون نشـر

بعد رحيله يقول فيه :[1]

«كان يقال من علمني حرفًا صرت له عبدًا والدكتور طه حسين علمني ثلاثة حروف ألم تسمعوا أنني دكاترة ؟!

«الدكتوراة الرابعة من الإسكندرية وقد أعددت البحث وسأنجح ، فإن تجاهل الأساتذة منزلتي فسأهجوهم في «البلاغ» ، وهي فرصة لمقالة آخذ بها دنانير تنفع في استدعاء سعدية لقضاء ليال سود في إسكندرية ، ومن سعدية ؟

«يقال إنها فتاة تقيم بالزيتون، أتوكل على الهوى وأمضي إلى هناك لأقضي لحظات مع فتاة ألهمتني أجمل أشعاري ، فهي أوحت هذين البيتين :

أكاتم القلب وجدًا لو نطقت به ... لثار يسأل ما خطبي وما شاني

يا قلب دعني لكتماني أنادمه ... لم يبق لي من نديم غير كتماني

«إنها جمال يوحي ، والجمال الموحي هو الجمال .

«قضينا في الإسكندرية أسابيع نلهو ونلعب ، وأبو نواس يقول :

«رب جد جره لعب ! هو نفسه الذي قال :

لن أذود الطير عن ثمر ... قد بلوت المر من ثمره

«أنا مسافر إلى إسكندرية فهنئوني يا قرائي ، وسأرسل إلى البلاغ مقالة أصور بها آلامي في حياتي .

«فعل «مسافر» معناه بالفرنسية قطع الرجل أجزاء من حياته ، وأنا بهذا أقطع أجزاء من حياتي ، لأني مفتش المدارس الأجنبية بمصر ، وسأذرع فضاء الله من الشمال إلى الجنوب فأزور أسوان وأسيوط وإسكندرية والمنيا ومنفلوط .

قال زكي مبارك :

(1) البلاغ: الحديث ذو شجون، 26 يناير 1952.

بقيـة مـن صـباك الغـض باقيـة وجذوة من غرامـي وقـدها بـاقي

تعـالي نحيـي شـهيد اللهـو ثانيـة ونصرع الهم بين الكأس والساقي

«وهذا خطاب من أحمد فؤاد يذكر فيه أن زوجته تستغرق في الضحك حين تقرأ مقالاتي ثم تبكي بعد ذلك ، ويطلب توضيحًا لهذه الحالة الغريبة ! ..

الجواب عند زوجتك ، يا سيد فؤاد ! ..

وقد لقى زكي مبارك صدمات عنيفة من بعض وزراء المعارف الذين لم تعجبهم صراحته وجرأته فلاحقوه بالاضطهاد والظلم وقبرت جهوده في وظيفة مفتش بوزارة المعارف ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلمية من جامعة القاهرة وجامعة السربون يتخلف بينما يرى أنداده ومن هم أقل منه يسبقونه في الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق فأحس بالظلم والألم وشعر بالمرارة في أعماقه فقال : كيف فاتني أن أنافق في عصر لم يعش فيه غير النفاق ورغم أن جهوده وعبقريته قد قبرت في هذه الوظيفة ورغم ثورته إلا أنه كان يريد أن يعيش لأنه فقير فصبر على خدمة الحكومة على مضض (اعلموا أن أخاكم مكره لا بطل وأنه لم يتمرغ في تراب الميري إلا وهو في فاقة وإملاق .

«وهل خلق الشعراء لهذا الاستعباد .. وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب ؟ .. ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذي أخضعه الفن للقوافي والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع .. وما قيمة الفلسفة إن لم تحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع؟ ..)

واصطدم زكي مبارك ببعض وزراء المعارف مثل السنهوري وإسماعيل القباني وفهمي النقراشي وكثرت الدسائس من حوله وأثيرت الأراجيف وانتهى الأمر بإخراجه من وظيفته .. ونقله السنهوري إلى وظيفة صغيرة بدار الكتب فكتب زكي مبارك يقول له : لن أطيع أمرك إلا يوم يقوم الدليل على أنك وزير فقد أسلمت أمور الوزارة إلى (قباني بلا ميزان) (يقصد إسماعيل القباني) فأراد الوزير

أن يقيم الدليل على أنه وزير بالفعل فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتي ..)

وقد قابل الأديب محمود تيمور زكي مبارك في تلك الفترة ويروي محمود تيمور ذكرياته يقول أن الدكتور زكي مبارك قال له :

-اسمع مني مصداق ما تقول ماذا تعلم من أمر وكيل الوزارة فلان (إسماعيل القباني) الذي قلت فيه أنه قباني بلا ميزان ؟ ..

-هل جد في أمره جديد ؟ ..

-ترحم عليه ؟ ..

-لم أعلم بالنبأ .. متى ؟ ..

-ذهبت روحه أو قل ذهبت ريحه وأنا الذي قتلته وكفنته وواريته الثرى .

ثم استل إضمامة من الرزمة التي حملها وبسطها في يده فإذا هي تجربة لمقال عليها إصلاحات بقلمه وقال :

-هذه شهادة وفاته ستظهر غدا على رأس موضوعات مقالي (الحديث ذو شجون) .

فقال محمود تيمور : إنا لله وإنا إليه راجعون .. ولماذا لم تتركه يطول عمره قليلا يا دكتور ؟ ..

-لقد طويته ونشرته وهكذا أراد لنفسه أنه جحد حقي .. وتعرض لسخطي على أني أكرمته بهذه الميتة الأدبية الرفيعة .. من يمت بسيف زكي مبارك ناله شرف عظيم ..)

في تلك الفترة العصيبة كثرت الدسائس حوله وبعثت الضغائن وتربص له أعداؤه وقد قاضاه بنك مصر في تلك الفترة الحرجة لدين عليه وشركه مصر الجديدة وكان قد اشترى منها منزلا وامتنعت وزارة المعارف عن دفع إيجار مدرسته في سنتريس المقامة في منزله وكان الغرض تجويع زكي مبارك وإذلاله

ومحاربته في رزقه ليحني هامته ويخضع .

ولاقى المزيد من المتاعب حينما نقد خطبة العرش في افتتاحية الرسالة سنة 1939 وحقق معه وطلب إليه أن يعتذر على صفحات الرسالة فرفض وقال : (لا أعتذر عن مقال كتبته وأنا أعتقد أنه حق) فألغى عقده مع وزارة المعارف .

وقال له الزيات : يعز على يا دكتور أن تخرج من عملك بسبب مقال في الرسالة وأرجو أن تقابل العقاد صديق النقراشي وقال العقاد أن النقراشي لن يستطيع إخراج زكي مبارك من التفتيش خوفًا من ألسنة الجرائد الوفدية ولكنه سيتعقبه بالتفتيش لعله يجد تقصيرًا يفسخ العقد .

(وفي تلك السنة ذرعت فضاء الله من الشمال إلى الجنوب وفتشت جميع المدارس الأجنبية وكتبت تقارير لم يسبق لها مثيل ..) ويقول زكي مبارك أنه عمل في دار الكتب سنة 1924 فشرح الجزء الأول من الأغاني ثم دعاه الدكتور طه حسن لتدريس اللغة العربية في كلية الآداب فلما وقع الخلاف بينه وبين السنهوري أخرجته وزارة المعارف لأنه (موظف بعقد) ورأى السنهوري أنه ما زال ينتفع بأموال وزارة المعارف لأنه أستاذ الأدب العربي بالعهد العالي لفن التمثيل فكتب السنهوري كتابا يقول فيه : أن التدريس بالمعهد العالي مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فأنت معزول .

يقول زكي مبارك : (خرجت والدمع يتفجر من عيني ...)

وكانت صدمة حياته ..

وكانت صراحته هي التي جرت عليه المتاعب والمضايقات يقول :

(إن كان وزراء المعارف تكاتفوا على مخاصمتي لأني قلت كلمة الصدق فيمن رأيت من وزراء المعارف فنفوني من وزارة المعارف ويقول :

(دخلت وزارة المعارف وأنا أعظم الرجال ، وخرجت منها وأنا أعظم

الرجال) .. من الوزر جاء اسم وزارة المعارف) .

وقد أحس بالمرارة في أعماقه لمحاربته في رزقه وعيشه يقول (إن الحكومة المصرية سخرت وزراءها ليخرجوني من أعمالي بلا مكافأة وبلا معاش ..) وكان الغرض هو تجويعه ووضع أنفه الأشم في الرغام ولكن زكي مبارك لم يهن وظل صلب القناة .

يقول : (وإن كان النقراشي والسنهوري استطاعا أن يخرجاني من عملي بوزارة المعارف لأجوع فليعرفا جيدًا أنني لن أجوع فالله القادر على كل شيء يعجز عن إخراجي من الملكوت وفيه أطايب الطعام والشراب) .

ودعاه محمد حسن العشماوي حينما عاد وزيرًا للمعارف إلى العودة فقال له بإباء : (لن ندخلها ما داموا فيها ...) .

وأعاده المرحوم على أيوب عندما جاء وزيرًا للمعارف إلى دار الكتب ثم أعاده طه حسين إلى التفتيش في وزارة المعارف ورجع إلى التفتيش سنة 1950 في الدرجة الثالثة كما كان عينه المرحوم على زكي العرابي (باشا) عام 1937 وكان إذ ذاك يقترب من الستين فغامت الدنيا في عينيه وسحقه اليأس وقد هزته تلك الصدمات العنيفة هزًا عنيفًا وأحس بالمرارة من محنته في حياته .

وخرجت رؤوس الأفاعي تثير حوله الأراجيف وتكيد الدسائس ورموه بتهم عديدة ونعتوه بالزنديق والملحد .. والفاجر ! ..

وتركت تلك الصدمات العنيفة آثارًا سيئة في نفسيته فكفر بالكثير من القيم التي طالما آمن بها وأحس بالمزيد من المرارة وهو يرى أن كفاحه في سبيل الأدب ضائع وكفاحه في ميدان التعليم ضائع .. ورأى نفسه وقد أحاطته الدسائس والأراجيف من كل ناحية حينئذ أحس بالمرارة والألم وندم على تركه صحبة الفأس يوم كان فلاحا في سنتريس وقال إن الاتجار بالتراب أجدى من صحبة القلم يقول :

(.. ليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو كـان أنفـق نشـاطه في الاتجـار بـالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه – بلا أسف– سيموت فقيـرًا لأنـه أنفـق نشـاطه في خدمة الأدب العربي ..) .

وبعد حصول زكي مبارك عـلى الـدكتوراه الثالثـة سـنة 1937 مـن الجامعـة المصرية أمل أن يتحسن وضعه فقالوا له لا يمكن أن تحصل عـلى الترقيـة إلا بعـد طبع الرسالة وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعـد منهـا خمـس نسـخ خطية فكيف يطبعها وهو فقير الجيب ولكن لم يتحقق شيء من ذلك يقول :

(حالي في مصر حال عجيب فقد عشت دهري مظلومًا وكان الظـن أن يخـف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراة من أنياب الأسود ؟ .. هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطيني غير مرتب مؤقت إلى أن يطبع ذلك الكتـاب ؟ .. هل يصدق أحد أنني لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلـك المرتـب لـئلا يشـمت في أعدائي ولئلا يعرف النـاس أن رجـال الأدب في مصـر قـد يعيشـون عـيش الفاقـة والإملاق ؟ ..

هل أستطيع أن أخبر بأن وزارة المعارف في مصر قدرت لي مرتبًا لا يكفـي أن يكون مصروف جيب ولمن ؟.. لرجل متهم بالغنى ولا يصبح ولا يمسي إلا وهـو مطوق بأغلال من التكاليف ؟ ..

وكانت مأساة زكي مبارك أنه لم يكن صنيعة حزب من الأحـزاب ولم يكـن لـه سناد من الأسندة التي رفعت كثيرًا من أدباء مصر فعرفـوا راحـة البـال وعاشـوا في حماية الأحزاب . ويرى أن أحدًا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلـول أدب المنفلـوطي والعقاد وكما أعز عبد الخالق ثروت باشا أدب طه حسين ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية ولم يصل إلى مركزه الأدبي بفضل الحزبية المعروفـة إذ ذاك وعاش نظيف القلم نظيف القلب عف النفس لم يؤجر قلمه لحكومـة مصـرية أو غير مصرية ولم يسخر أدبه لحزب من الأحزاب فعاش فقيرًا رغم مكانته الأدبيـة

الرفيعة يقول : (إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود ثم أنى أنفق نصف مكافأة البلاغ على كتب فرنسية وعربية ، فما الذي يبقى لأنفقه على نفسي وعلى أبنائي ؟ ! ..)

ودفعه هذا إلى الكتابة عن الذات وأيضًا في الوجدانيات وكتب رسائل غرامية وهمية إلى ملهمات مثل ليلى المريضة في العراق وليلى المريضة في أسيوط ومصر الجديدة وحلوان وغيرها .. هذا الانفصام بين الحقيقة والخيال في البيت ، وفي العمل وبين الصورة المثالية المتمثلة في مجال الحب قد سدت أبواب العمل أمامه ودفعته إلى العنف والأسى والحزن العميق .

ثم راح يذوب تدريجيًا .. وأصبح حطامًا يدب على الأرض ، وأخيرًا خبت هذه الشعلة المتأججة بالقوة والجمال والوفاء والحب في 23 يناير عام 1952 ، عن ستين عاما ودفن في بلدته الأثيرة «سنتريس » بالمنوفية .

وأخيرًا .. صمتت القيثارة الشجية التي أبدعت لنا أحلى ألحان الخلود ..

صمت القلب الذي غنى لبدائع الحسن ..

لقد عاش زكي مبارك للحب والجمال ..

ومات شهيد الحب والجمال !

ألوان من أدب الاعتراف

إلى الدكتور طه حسين بك

تشريح عاطفة الحب

أيها الأستاذ الجليل :

سألتني يوم لقيتك بوزارة المعارف في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامي بالحديث عن الحب ، وقد جرى ذكر كتاب «ليلى المريضة في العراق » ، وكانت الابتسامة التي شعّ ضوءها في ملامح وجهك ، تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بأن أعيش بقلب المحب المتيَّم المتبول !

فأجبتك بأن شواغلي في الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبي . ولكن حديثي عن الحب صار مذهبًا أدبيًّا أشرّح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوًّا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان !

فابتسمت ابتسامةً لها معنى وقلت : اخلق البشاشة في الزمن إن استطعت !

ثم خضنا بعد ذلك في شجون من الأحاديث سأرجع إليها بالتدوين بعد حين.

ويهمني اليوم أن أشرح ما كان يجب أن أقول في جواب سؤالك لو رأيتك منشرح الصدر لا تشكو تدخّل بعض الناس في شؤون قد يجهلونها كل الجهل ، أو يتحمسون لها بعقيدة مدخولة وإيمان مصنوع .

ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود

الوجود ، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب ؟ ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبتْ أفئدتهم بالاعتلال فلم تحسْ ذلك الروح اللطيف ؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟

إن المتوقرين والمتزمتين يتوهمون أنهم وجدوا الحجج الدوامغ حين استطاعوا أن يقولوا : إن الدنيا في حرب ، وإن الظروف لا تسمح بالحديث عن الحب !

وأقول : إن ما هتفوا به لم يصدر إلا عن صدور مِراض ، فالحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء ، وهو يساور قلوب الجنود في أصعب أوقات الحروب . وهل كان عنترة بن شدَّاد ما جنًا حين قال :

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فودِدتُ تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسَّم

وما هتف به عنترة هتف به ضابطٌ مصريٌ سمحت له لجنة الأناشيد العسكرية بأن يقول :

مين زيّك عندي يا خضْرة ... في الرقة يا غصن البان
ما تجودي علىَّ بنظرة ... وأنا رايح عَ الميدان

وهذا الضابط اسمه عبد المنصف محمود(*) ، ولا أعرف كيف اهتدي إلى هذه الفكرة الطريفة وهو يعيش في زمن مثقل بآثار التصنع والرياء .

لقد قيل إن هذا النشيد لا يصلُح للجنود وهم يتأهبون للقتال وأقول إن هذا النشيد من شواهد العافية ، فلكل جندي في الجيش أوطار روحية يحن إليها حنين الأصحّاء ، وتلك الأوطار الروحية هي الحافز الأعظم للاستبسال في ميادين

(*) عبد المنصف محمود (1896-1972) : ضابط مصري وشاعر تغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب بأغنيته «مين زيك عندي يا خضرة» من مؤلفاته: خير سني العمر - 30 عامًا في مكافحة الجريمة - بحيرات مصر الشمالية .

الشرف والوطنية والجنديُّ الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبدًا للاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، لأن الوطن لا يغلو إلا في صدور أرباب القلوب .

وأنا أنتظر أن يسود ذلك النشيد على سائر الأناشيد ، فقد هتف به جنديٌّ سليم الجسد والروح ، وهو أفضل من الأناشيد التي ينظمها شعراء لم يعرفوا الفرق بين السيف والرمح ، ولم يسمعوا صوت المدفع إلا في ليالي رمضان !

من الفضول أن أحدثك عن أهمية الحب ، ولك فيه تاريخ ، ولكني أحب أن أعرف كيف يندُر أن نجد بين كتابنا من يهتم بتشريح عاطفة الحب ؟ وكيف يرانا من سيدرسون آثارنا الأدبية بعد جيل أو أجيال حين يظهر لهم أننا كنا نحسب الحديث عن الحب فنًّا من فنون المزاح ؟

الحب جِدُّه جدّ ، وهزله جِدّ ، ولا يتجاهل هذه العاطفة إلا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ في تلوين الوجود .

الحبُّ جِدٌّ صُراح ، والاهتمام بدرسه يؤدي خدمات عظيمة لعلم النفس ، فكيف نسكت عن درسه وله قدرة قاهرة على الضر والنفع ، وله تأثير شديد في توجيه مصاير الرجال ؟

وبأي حق يخلو أدبنا من تشريح عاطفة الحب ؟

وكيف يجوز أن يقهرني العيش في عصر التزمت على الدفاع عن كتاب «ليلى المريضة في العراق» وهو كتابٌ أردت به خلق الحيوية الأدبية بين أبنا هذا الجيل ؟

إن التوقر الذي يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتفون بغير أوطار القلوب .

وأين نحن من العصر الذي عاش فيه عمر بن أبي ربيعة ، أو العصر الذي

عاش فيه العباس بن الأحنف ، أو العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي ؟

وهل يمكن القول بأن الحاسة الدينية في هذا العصر تفوق الحاسة الدينية في أعصر أولئك الشعراء ؟

لا يمكن القول بذلك فنحن بشهادة رجال الدين أقلُّ حرصًا على الواجبات الدينية من الرجال الذين عاصرهم أولئك الشعراء ، والله يغفر لي ولك ولسائر أهل هذا الجيل !

الفرق بيننا وبين أسلافنا لا يحتاج إلى توضيح

كان أسلافنا أصحاء ، فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال ، وكان الرجل الدِّيان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزَل والتشبيب ، وكان هناك توازن بين حقوق القلوب ، وحقوق العقول ، فكانت الحياة أشبه بالحديقة الغنية التي تجمع في شِعابها بين حياض الأزهار والرياحين ومسارب الأفاعي والصِّلال .

وأين نحن اليوم من أولئك الأسلاف ؟

في مساجدهم رُوِيت طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزيغ بلا تحامل ولا إسراف ، وفي بيوت أتقيائهم دُوِّنت أوهام القلوب والعقول ، وعلى ألسنة أصفيائهم جرتْ أحاديث الشك والارتياب ، وبفضل ذوقهم الأدبي والفني عاشت أضاليل لها صلات بحيوات الآداب والفنون .

أما عصرنا الذي أعرف وتعرف فهو عصر الرسوم والأشكال ، وأخشى أن يمر بلا أثر ملحوظ في خدمة العقل والقلب والذوق وإلا فأين الرجل الصالح الذي يقهرك روحه على التزام حدود الدين ؟

وأين المفكر الذي يقهرك إخلاصه للفكر على التزام حدود العقل ؟

وأين الأديب الذي يحدثك عن نفسه فتشعر بأنه صادق كل الصدق .

ومن أجل هذه الرخاوة الفكرية والأدبية والدينية فترتْ حماسة النـاس للفكـر والأدب والدين وأصبحت القلوب في مثل حال الشراب المقتول .

وهنا أجد الجواب عن سؤالك ، أيها الأستاذ الجليل

فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية وأتعقـب أخبـاره وآثـاره في كـل مـا أرى وما أسمع ، وآية ذلك أني لم أنته ولم أنزجر بعد أن رأيت غضبتك في جريدة السياسة يوم ظهر كتاب «مدامع العشاق» وقد قلت إنه يحرض عـلى الشـهوات ، سـامحك الله وغفر لك !

وأنا أجِدُّ في كل شيء ، أجد في الصداقة والعداوة، وأجد في الشـك واليقـين ، وليس أمامي مجال المزاح، وكيف يتسع وقتي للمزاح وما قضيت يومًا خاليًـا مـن الشقاء بالدنيا والناس ؟

فما أرضاك عني فهو حق ، وما نفَّرك مني فهو حق ، وما خصصـتك بغضـبي ورضاي إلا لأني أعرف أنك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعـض مـا أعـاني ، وأنا موقن بأنك تفهم عني ما أريد ، لأنك تعرف من سريرتي مالا يعرف سواك

فما رأيك في الحب ؟

ألا ترى أنه عاطفة تستحق أن نتأثرها في جميع المسالك ؟

وإذا سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن نـدِّعي النيابـة عن الجمهور في تشريح النوازع والأهواء ؟

وهل يرضيك أن نصيرَ إلى ما صار إليه مـن يختـارونْ المحفوظـات لتلاميـذ المدارس ، وقد تحاشوا جميع الأشعار التي تفصح عن أوطار القلوب .

لو كان جميع المعاصرين من «العـارفين بـالله » لخَـفَّ الأمـر وهـان ، ولكـن معاصرينا من الأساتذة يسمعون حديث الحب مـن المـذياع ، ويـرون آثـاره عـلى الشاشة البيضاء ، وفيهم من يتمنى لو سارت أشعاره بـين أغاريـد أم كلثـوم وعبـد

الوهاب !

يجب أن تعرف أني أخاطب الدكتور طه حسين الذي نقل أروع أحاديث الحب عن أهل الغرب ، الذي يحاول أن يطبع الجمهور المصري على تذوق الموسيقى الأوربية ، لأنها في رأيه من أصلح الأدوات للتعبير عن العواطف والأهواء .

والأوربيون الذين تعرفهم لا يرون الحب من المزاح ، وإنما يرونه عاطفة تنقل القلب من مكان إلى مكان ، وتسبغ عليه أثواب الصحة والعافية ، وتشريحُ عاطفة الحب هو عندي باب لتربية العواطف .

تربية العواطف ؟

أعوذ بالله من الجهل بأخلاق زماني ومن التعرض لسفاهة الأقاويل وشناعة الأراجيف !

نعم ، أنا أدعو إلى الاهتمام بتربية العواطف ، وليقل من شاء ما شاء .

كل شيء في بلادنا موضع اهتمام إلا العواطف ، وإهمالُ العواطف ستكون له آثام أيسرُها رياضة الشبان على رذيلة «عدم الاكتراث» وهي أقبح الرذائل وأشدُّها تأثيرًا في قتل حيوية الشعوب .

وهل تستطيع القول بأن الرأي العامّ عندنا يحس هذه المعاني ؟

وما الرأي العام ؟ أليس صدًى لآراء الباحثين والمدرسين وهم عندنا قومٌ هيّابون خوَّافون يرون الحديث عن العواطف من فضول القول ؟

وخمود العواطف هو الذي قتل الشاعرية في مصر ، وهو الذي جعل المصريين أقل الناس إحساسًا بمعاني الوجود، وإلا فحدثني عما أقيم على شواطئ النيل من ملاعب ، وما أقيم فوق عبابه من سهرات يغنَّى فيها الشعر ويرقص الخيال ؟

هل عندك نبأ عن حدائق القناطر الخيرية ؟ وهل سمعت أن إحساس المصريين بالحياة حمل بعض الشركات على أن تنشئ فندقًا هناك ؟ ولن تقام الفنادق في تلك الضاحية السحرية وليس فينا رجل يشوقه قضاء الليل وهو يسمع هدير النيل في شهر آب ؟

وهل عندك نبأ عن حديقة الأزبكية ؟

ألم تسمع أن حديقة الأزبكية ليس فيها مكان تشرب فيه فنجانًا من القهوة أو الشاي إذا بدا لك أن تقضي فيها ساعة أو ساعتين لمحاسبة نفسك أو مداعبة خيالك ؟

ويتحدث الناس هذه الأيام عن بحيرة قارون بمناسبة زيارة جلالة الملك لإقليم الفيوم ، فهل تعرف أنه لا يمكن قضاء ليلة بجوار تلك البحيرة إلا في فندق أقامه هناك أحد الألمان ؟

وهل سمعت أو سمع أحد من أصحابك أن شاعرًا مصريًا قضى ليلة أو بعض ليلة وهو يداعب سمكات تلك البحيرة ؟

وما رأيك في (بحيرة التمساح) ؟

هل سمعت لها خبرًا في قصيدة أو رسالة أو كتاب لأديب من أهل هذه البلاد.

وهل خطر لك أن تقضي ليلة بجوار تلك البحيرة عساك تعرف شيئًا من أخبار مدينة الإسماعيلية ؟

ولا موجب لتذكيرك بالأقصر وأسوان : فالناس جميعًا يعرفون أن الأجانب هم الذين تشوقهم تلك المغاني ، وإليهم يرجع الفضل في إقامة أسواق الحياة بتلك المناسك ، على أيامها ولياليها أطيب التحية وأزكى السلام !

ومالي أبعد بك فأنقلك إلى تلك البقاع النائية ؟

هل أتفق لك أن تُلقي درسًا من دروسك بين الأشجار التي تحدق بكلية

الآداب ؟

وهل فكر أستاذنا لطفي باشا في محادثـة طلبـة الجامعـة عـن أرسـطو لـيس تحت الدوح كما كان يصنع فلاسفة اليونان ؟

ذلك يشهد بأن إحساسنا بالحياة يكاد يكون في حكم المفقود، فما رأيـك في الدعوة إلى الطب لهذا المرض العضال ؟

وكيف نطب لهذا المرض ونحن نرى الحديث عن الحب ضربًا من المزاح ؟

كيف وقد تهيبت تقديم كتاب «ليلى المريضة في العراق» إلى محرري الجرائـد المصرية لئلا أقرأ لأحدهم كلمة تؤذيني بلا موجب معقول ؟

وما رأيك إذا حدثتك بأني عجـزتً في مصـر عـن بعـض مـا قـدرت عليـه في العراق ؟

كنت أحب أن أؤلف كتابًا عن «ليلى المريضة في الزمالك » أفصـل بـه أسـرار المجتمع وسرائر القلوب في هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحًا مـن أرواح الوجدان ، ولكني خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء .

فهل أرجو أن يصرْ قلمك بما تهيَّب منه قلمي ؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب «ليلى المريضة في العراق» . فأرني كيف تصـنع وكيف تصوَّر عصرك وزمانك كما صوَّرتُ عصري وزماني . نحن نريـد أن نشـغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم ، نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعـد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية .

فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان ؟

نحن نفكر في خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبية ولن نصل إلى ذلك إلا يـوم يـؤمن الجمهـور بـأن الأدب هـو الترجمـان الصـادق لشـهوات العقـول ، وللعقول شهوات أعنـف وأخطـر مـن شـهوات الأحاسـيس وتثقيـف الشـهوات

العقلية يصل بنا إلى منازل الحكماء ، ويطمعنا في الخلود .

ليتني أستطيع مصارحتك بكل ما أريد في خلق الحيوية الأدبية والفنية !

وكيف أستطيع وأنت كثير التلوَّم والتعتب ، ولا يصل إليك الرأي الصريح إلا مشوبًا بتهمة التحامل عليك ؟

أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية ، وأنا أقبلك على علاتك كما تقبلني على علاتي .

فهل يكون من الفضول أن أصارحك بأنك لا تُقبل على حياة الوجدان إلا وأنت خائف ، مع أنك قويٌّ العبارة في الإفصاح عن وساوس نفسك ، ونوازع قلبك؟

وما خوُفك وقد استقام لك أمر مصيرك الأدبي وصار اسمك من أظهر الأسماء ؟

ما خوُفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح ؟

وما الذي يدعوك إلى الاحتراس حين أقترح عليك تأليف كتاب عما أحس شعراء العرب من النوازع الوجدانية ؟

أتخاف أهل الجمود ؟

اطمئن ، يا سيدي الدكتور ، فهم في شغل عنا بمصايرهم الدنيوية ، ولن يفرغُوا لنا إلا بعد أن تفرُغ من إعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب.

***

أما بعد فأنا أعلن عتبي عليك ، لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيفٌ من الاعتراض على اهتمامي بتشريح عاطفة الحب ، وأصارحك بأن هذا مذهبٌ أدبيٌّ

سأحرص عليه ما دمت أملك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس .

فافتح قلبك ، يا سيدي الدكتور ، لوحي الحياة والحب ، واعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال .

وقد شاءت المقادير أن أستطيع مقابلتك في كل يوم بعد أن صرت معنا في وزارة المعارف ، وسأحوِّلك إلى حزبنا ، حزب الأخوة الأدبية الذي يرى أقطار العربية جسمًا واحدًا إذا شكا منه عضو أسعدته سائر الأعضاء بالسهر والأنين .

وستُريك الأيام بعد قليل أن الميزان الذي كنت احتكمت إليه في تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين ..

والله المسئول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح .

أعوذ برب الفلق من شر ما خلق

للكاتب المجهول

صحوت مع الفجر بعد ليلة حمراء ، وهي الليلة التي ولد فيها هذا العام الجديد ، صحوت ظمآن ، ولكني لم أستسغ الماء ، فقد شعرت أنه ذوَّبٌ من ثلوج الشمال ، وعند ذلك هتفتُ :

«أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق» !

ولكن ما هو الفَلَق ؟

أهو الصبح ؟

وكيف وما كان ليلى إلا صبحًا في صبح ؟

هو إذن «واد في جهنم» ، كما قال بعض المفسرين ، وبالله أعوذ ، فما يدفع شرَّ جهنم غيرُ من خلق جهنم .

وجهنم التي أخاف هي الجنية التي أرادت أن تأسرني إلى آخر الزمان ، بالعقد الذي لا ينقضه الأحرار وهو عقد الزواج .

في عصرية الأمس قال خالها الفرنسي وهو يراني أضحك معها وألعب :

Je vous souhaite detre aussi heureux a Ioccasion de vos fiancailles que moi Durant les 42 annees de mon marriage .

وقد اعتصر الحزن قلبي في تلك اللحظة ، لأني كنت اعتزمت فسخ الخِطبة ،

بعد أن رأيت أن خطيبتي تنقلني إلى وطنٍ غير وطني ، وبعد أن رأيت أن أهلها صاروا أعزَّ عليّ من أهلي .

ومن حالي معها أدركت السر في أن تحرم الدولة المصرية على سفرائها أن يتزوجوا من أجنبيات .

وهل أنسى أني رفضت المشاركة في الاحتجاج على ما صنع الفرنسيون في بعض البلدان ؟

من أجل حبها أبيت أن أكتب حرفًا واحدًا في تقبيح ذلك الصنيع ، فقد بدا لي غير قبيح ، لأنه صدَر عن أهل سوزان ، وصدق شاعرنا العربي حين قال :

ومن بينات الحب أنْ كان أهلها   أحبَّ إلى قلبي وعينيَّ من أهلي

إن الدرس الذي تلقيته عنها يفوق جميع الدروس ، فقد بدأت أومن بأن من يتعلم لغة أجنبية يهاجر عن وطنه بطريقة خفية ، وبدأت أفهم كيف صارت الوطنية شريعة عند الفرنسيين والإنجليز والألمان واليابانيين .

أولئك أقوام لا يعرفون غير لغاتهم ، فهم في أمان من احتلال الأفكار والآراء

وهل كان من العبث أن يقول جماهير المشرِّعين من المسلمين بعدم جواز الصلاة بغير اللغة العربية ؟

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يقبل الصلاة بأية لغة وبأي صوت ، ومن المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يسمع دبيب النمال كما يسمع قعقعة الرعود .

فكيف أوجبوا أن تكون الصلاة باللغة العربية ؟

إنهم أرادوا إنشاء قومية لها لغة واحدة ، ودينٌ واحد ، لتأمن احتلال الأفكار والآراء .

ذلك درس تلقيته عن خطيبتي ، الخطيبة التي ودعتها عند انتصاف هذا الليل، وإن لم تتلق مني أي جزاء

قالت ونحن نفترق : لن تراني بعد هذا الليل !

فقلت : سنلتقي بأقرب مما تظنين ، فلابد للجمر من وقود وأنت الوقود .

وماذا تريد أن تأخذ مني ؟

ألا يكفي أنها صيرتني أشهر الدعاة لوطنها الغالي . الغالي عليّ وحدي من أجل حبها ، فما تألم روحها يوم سقوط باريس كما تألم روحي . ولا هفا قلبها على فرنسا الجريحة كما هفا قلبي

وأنا برغم بخلها مُثنٍ على روحها اللطيف ؛ فقد علمتني كيف أدرك قيمة الصورة التي ساقها شاعرنا العربي حين قال :

تعطيك شيئًا قليلاً وهي خائفة   كما يمس بظهر الحية الفِرقُ

لن ينقضي عجبي من الفروق بين الأرض والناس

أرض فرنسا هادئة من قديم الزمان ، وهي قليلة التعرض للزلازل والبراكين ، وقد رأيت بعيني كيف جَلَّودا عِرقًا نبض من نهر السين وهم يُمرُّون من تحته قطار المترو بوليتان ، فكيف يكون أبناء تلك الأرض الهادئة الثابتة ثوَّارًا ومتقلبين في أكثر الأزمان ؟

وأرض اليابان معرضة في كل وقت للزلازل والبراكين ومع هذا عُرِف اليابانيون بالقرار والاطمئنان ، على اختلاف الأحداث والزمان ، فما هذا الذي نرى من الفروق بين الأرض والناس ؟

ولكن كيف عرفتُ أن اليابانيين أهل قرار واطمئنان ؟

كيف عرفت ذلك ولم أزر اليابان ، ولم أعرف من أوصاف أهلها غير أشياء لا تتصل بأعماق النفوس ؟

لو كان لي حظ التعرف بصديقة يابانية لأدركت شيئًا من السريرة اليابانية ، على شرط أن أتكلم لغتها الأصلية .

اللغات أنفاس ، فلا تصدقوا من يزعم أنه صافح روح شاعر وهو يقرأ شعره مترجمًا إلى إحدى اللغات ، ولا تصدقوا من يتحدث عن بلاد زارها وهو يجهل لغتها كل الجهل أو بعض الجهل ، وإنما نصصت على «بعض الجهل » ليفهم ناس من خلق الله أن الذي لا يتعمق في لغة من اللغات لا يجوز له أن يقول إنه يعرف تلك اللغة ، فالمعرفة الناقصة أخطر من الجهل لأن الجاهل يقف عند حده فلا يتزيد ولا يستطيل ، أما ناقص المعرفة فقد يوهمه الغرور أنه أعلم العلماء ، فيؤذي نفسه قبل أن يؤذي الناس .

وخطيبتي التي فارقتها بالأمس هي إحدى بنيّات لطيفات من اللواتي عرفت في القاهرة أو في باريس ، وحالي معها كان عجبًا من العجب ، فقد رضيت عنها ورضيت عني ، مع أن حياتنا سلمت من جميع الأسواء الروحية والوجدانية ، في زمان لا تأنس فيه روح إلى روح إلا بمعاقرة الأهواء .

كان الزواج هو الغاية التي تريد ، وقد كان يجب أن نسارع قبل أن تفضحنا الأقاويل ، فما الذي وقع في تلك الليلة الحمراء ، وقد سبقته تماهيد ؟

بدا لي أن لجاجة العاطفة وصلت إلى أبعد حدود العنف فرأيت أن أستعير خيالاً من العقل الذي عشت به سنين . وهل بقى لي من العقل إلا طيف من خيال؟

فكرت فيما تمناه لنا خالها العزيز ، وقد عاش اثنين وأربعين عامًا وهو سعيد بالزواج ، ثم افترضت أن سعادته الزوجية دامت لأنها بُنيت على الهدوء ، والعاطفة الهادئة تبني برفق ؛ فمالي أتعرض لعاطفة مجنونة الجموح ؟ وكيف أسمح لهذه الجنية بأن تزلزل الخيال الباقي من عقلي !

لقد راعني بكاؤها فبكيت

قالت بصيغة الاستفهام لا التقرير : ? Tout est fini enter nous

فأجبت بالصمت

ومن قال إني سأرجع ؟ ومن قال إني سأراجع ؟

ذلك فراق ، ليس بعده تلاق

لن يؤذيني أن تخرجي من سمائي ، فإني واثق بأني سأجد هواي حين أشاء ، وإنما يؤذيني أن أتصور أنك يئست من وفائي ، وأنك صرت يتيمة بعد أن خمدت نيران أشواقي ، ولن تخمد نيران أشواقي .

لن يصلح ما بيننا إلا إن سمعت شكواي : هذا الصدر يسير عاريًا في كل يوم ، كسائر النساء في هذا الجيل ، فكيف يهادن جميع الرجال ، ويحاربني وحدي ؟ وهذه العيون توجه نظرات وغمزات ، ولا تأسر أحدًا ، مع أنها تخاطب جميع الخلائق، فكيف تأسرني وحدي ؟

قلبي هو القلب ، وجمالك هو الجمال ، والناس ما عَدانا خيال في خيال .

لا تسأليني عن حالي ، فأنت حالي وأحوالي ، وأنت ماضي وحاضري ومستقبلي، وأنت ضميري المركوز في ضمير الوجود .

لن أيأس منك ، ولن تيأسي منى ، ولن يقول قائل إني فارقت هواي في لحظة من لحظات الغضب أو العناد أو العتاب .

أنا حاربت فرنسا وهي صحيحة ، وسالمتُها وهي جريحة ، وأنت الخيال الزائر من ذلك البلد المحبوب .

لن أشمت بفرنسا مع الشامتين ، ولن أذكرها بغير الجميل ، وإن جانبتِ الجميل .

قال الجنرال دي جول : لبنان وديعة في يدي وسأسلِّمه لفرنسا .

يقول هذا القول وهو مغلوب ، وتلك غاية الغايات في صدق الوطنية وأنا أمجِد هذه الوطنية ، وأتمنى مثلها لنفسي .

إن الاستعمار من أَنِصِبة الأمم القوية ، فمتى نكون من المستعمرين ، كما كان الآباء والأجداد ؟

آفة الاستعمار هي التسلط الغاشم ، تسلط الحاكم الجاهل الذي يقول كما قال بعض حكام فرنسا في الهند الصينية : Je suis le maitre

ولابد لنا من استعمار نجرّب فيه أخلاقنا السياسية ، وفي السياسة أخلاق ، إذا تولاها عظماء الرجال .

والاستعمار لم يَعْد صعبًا كما كان قبل أعوام قصار لاطوال ، كان الاستعمار يحتاج إلى جيوش برية وبحرية ، وهو بعد اليوم سيكون في ميدانين اثنين : ميدان الأدب وميدان الاقتصاد ، وسلاح الأدب هو الصدق ، وسلاح الاقتصاد هو الأمانة ، فلنحرص على أن نكون الصادقين الأمناء .

***

أما بعد ، فأنا لا أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، وإنما أعوذ برب الفلق من خير ما خَلق ، وهو الجمال .

ومعنى هذا أني سأراجع خطيبتي الغالية ، وهي الفتاة الملثوغة الراء .

إنها تحاول أن تنقلني إلى وطنها ، وأنا أحاول أن أنقلها إلى وطني ، وسنرى بعد قليل من الغالب ومَن المغلوب .

للشَّعر في رأسها بريقٌ سرقت شعاعه من نيران قلبي .

والتموج في خدودها مسروق من تموج أشعاري .

وسحر عينيها الزرقاوين منهوبٌ من سحر عينيّ الخضراوين .

وتبارك الذي تفضَّل فجعل لون عيوني مما يهيج الحيات السُّود .

سنفترق ؟ سنفترق ؟

هو ذلك إن جاز أن تزهد العيون في الضياء

يا بنت فرنسا الغالية ، تذكّري ليالِيَّ وأيامي ، وارحمي مَنْ يصعب عليه أن تجرحيه ، وهو الصديق الأوحد لوطنك الجريح لن نفترق .

لن نفترق ، وهل نستطيع أن نفترق ؟

وإذا أرادت الطبيعة أن نكون خائنْين ، فلنكن خائنين ، لنتحرر من مواثيق الجهلاء ، وما هي الطبيعة التى يتحدثون عنها جاهلين ؟

الطبيعة هي الصدق في تلوين ما خلق الله من حقائق الوجود .

وسيكون هوانا تعبيرًا أبديًّا عن ضمير الوجود .. ومقالتي هذه تصويرٌ لمحنة روحية لن تخمد قبل أن تخمد النيران الصوارخ في ضمائر الجبال.

«الكاتب المجهول»

لقد هان هذا الخطب!(*)

للكاتب المجهول

لقد هان هذا الخطب ، وما كنت أنتظر أن يهون ، ولكن الدنيا بصروفها الغرائب تهوِّن الخطوب ، وكان من شيمتها أن تجسَّم الخطوب !

هان خطب القطيعة ، هان ثم هانْ ، واستشعرتُ رَوْح الخلاص ، وكنت أبغض الخلاص ، فيا عجبًا لزمن يجعل بعدي عنكم شهوة يطمح إليها فؤادي !

ما بكيت على نفسي حين ودعتكم ، وإنما بكيت عليكم بكيت على دولة الحُسن التي ذهبت إلى غير معاد ، وبكيت على اللطف الذي حُرمتموه ، كما تحرَم الزهرة من العِطر بعد الذبول ما تمثلتُ أيامكم إلا تعجبت مما تصنع الدنيا بأهلها ، فما كانت لكم نظائر في الحُسن واللطف ، ولا كانت لكم أشباه في سماحة النفس وصفاء الروح .

وبكيت أيضًا على نفسي ، فهذا مُلك ضاع من يدي، مُلكٌ أضاعه الدهر الغادر الذي لا يُبقي على شيء ، والذي يستمد سطوته من قدرته على إدالة دولة اللطف والجمال .

حُرِمتُ بقطيعتكم آخر أمل يرجوه من يقف على المقابر ليؤدي التحية إلى أموات يحسبهم أحياء يتلقون تسليمات الأحياء .

المقابر تسمع ولا تجيب ، وأنتم تجيبون ولا تسمعون بدليل أنكم تخطئون

(*) الرسالة : 28 فبراير 1944

في الجواب .

لو أنني كنت البادئ بهذا الحب لرأيت لكم عذرًا في الصدوف عني ، فما يتصدَّق الأغنياء على الشعراء في كل وقت ، وإنما كنتم البادئين وهذا فضلٌ لن أنساه إلى آخر الزمان ، فكيف تهدمون ما بنيتم ، وكان غاية في متانة البناء ؟

هل تعود ليالينا ؟ هل تعود ؟

لن تعود ليالِّي معكم يا غادرين ، لأنكم لم تعودوا صالحين لإدراك ما يشتجر في قلبي ، ولأن هواكم قد مات ، وما كنت أحسب أنه مما يجوز عليه الموت ، وقد كذبت على نفسي حين توهمت أن الهوى لا يموت .

وأنا مع هذا فرح جذلان ، لأني واثق بأنكم لا تعانون من آثار القطيعة بعض الذي أعاني ، ومن هواي أن تكونوا في عافية من ثورة الوجدان ، لتعيشوا في سلام .

هل كان حبنا مزاحًا جد به الزمن فانهزم ؟

أنا كنت أجد ، وما خطر في بالي أنكم كنتم هازلين، وجِدَّ الهوى جد ، وهزله جد ، لو كنتم تعقلون .

هل كنت حين أناجيكم أناجي وثنًا بلا روح ؟

لو ناجيت الصخر لأنطقته بألطف المعاني ، فكيف عجزت عن رياضتكم على الوفاء ؟

ما أشد حزني على ما ضيَّعت من لياليَّ وأيامي !

لم نكن نعرف ما النهار وما الليل

أيامَ لا أدري وإن سألتِ … ما الفرقُ بين جُمعة وسبْت

ولم نكن نعرف أن للدنيا غدرات ينبو فيها جنب عن جنب ، وقلب عن قلب، فترحلون عن مصر الجديدة إلى حلوان ، وهي بهجركم أبعد من أسوان .

لو كنت أعرف أن فيكم خيرًا لجعلت داركم داري ، ولو سكنتم في مقبرة تُشرف على عالم الفناء ، ولكن القدر أراد ما أراد فانتزع حبكم من فؤادي ، فأنا اليوم بلا حب ، وبلا فؤاد .

إن إقامة صرح فوق أثباج البحر أبقى وأثبت من الحب الذي أقمته فوق روحكم ، والرُّوح من الرَّوح وهو النسيم، وليس للنسيم ثبات .

انقضى عهد الحب ، انقضى بالرغم مني ، فما فارقتكم إلا بعد أن صح عندي أن هواكم لم يكن إلا أسطورة لفَّقها الخيال .

أينتهي غرامنا بمثل هذه النهاية فلا أسأل عنكم ولا تسألون عني ؟

وهل كان البهاء زهير ملهمًا حين عبَّر عما أريد فقال :

ملكتموني رخيصًا ... فانحطَّ قدري لديكم

فأغلق الله بابًا ... دخلت منه إليكم

حتى ولا كيف أنتم ... ولا السلام عليكم

لن نتصافح إذا التقينا مصادفةً في شارع فؤاد ، فالمصافحة من الصفح ، ولن أصفح عنكم أبدًا، ولو ضمنتم أن تعود معكم أيامي السوالف ولياليّ الخوالي .

أنا فرح بما صرتم إليه ، فقد أنجاكم الله مما ابتلاني .

ولكني حزين مما صرتم إليه ، فلن تعانوا اشتجار العواطف بعد فراقي ، واشتجار العواطف هو أثمن ما تتغذى به القلوب .

وإني لأشكر لكم صنيعكم ، فقد رحمتموني من هاوية كنت سأتردى فيها إن طال حبي لكم ، وكان ثورة وجدانية تزلزل أقطار السماء .

انتهينا من العتاب ، أليس الأمر كذلك ؟

وانتهينا من ليالي مصر الجديدة وليالي حلوان ، وانتهينا من الظُّهريات الجميلة بحديقة الشاي في حدائق الحيوان .. هل تذكرون يا غادرين ؟

وانتهينا من جمع كُسارات الكأس المصدوع ، في تلك الليلة ، وهي ليلة لن تعود ، ويا ليتها تعود ، فلو صرتم رمة بالية لرجوت أن أستروح منكم روح العطر النفيس .

لا تسألوا عني بعد اليوم ، فقد تُبت توبة نهائية عن الغرام بالتماثيل ، وهي بلا أرواح .

أنا أحسنت الظن بمن لم يكونوا لحسن الظن بأهل ، فلتعاقبني المقادير بما تشاء ، وعدلٌ من الله كل ما صنع ، كما قال أستاذنا العباس بن الأحنف ، عليه رحمة الحب !

كانت غايتكم أن تستأثروا بقلبي ، وقد حاولت النجاة بقلبي فلم أفلح ، ثم كانت العاقبة أن نصير إلى ما صرنا إليه ، وما أفظع ما صرنا إليه ؟

الغدر مسخكم فأحالكم صورة ميتة برقشتها ريشة رسام جهول .

هل تذكرون تأريخ العيون الكحيلة ، وكانت أجمل ما رأت العيون ؟

استفتوا المرآة ، ثم حاسبوا ضمائركم ، إن كانت لكم ضمائر لتعرفوا أن سواد عيونكم لم يكن إلا منحة خلعها عليكم سواد قلبي ، وهو قلب يمنح الرهبة والسحر لسواد الليالي وسواد الخيلان .

وقد استرددت تلك المنحة بعد أن أيقنت أني خلعتها على من يكفر بالجميل ، ولست أغني من الله وهو مع غناه عن الثناء يؤدب من ينعم عليهم فيطالبهم بالثناء.

تخطَّروا إن شئتم في شارع فؤاد ، وانظروا هل تلتفت إليكم عين أو يخفق لكم قلب ؟

أنا أبدعتكم إبداعًا لا نظير له ولا مثيل ، وغاب عنكم جميلي فجحدتم جميلي ، وغضبة الله والحب على من يجحد الجميل .

لن أبكي عليكم ، ولكن سأبكي على أخلاقي ، وهي جديرة بالبكاء .

كنت أعتقد أني من رجال الأخلاق ، ثم ظهر أن في صدري غريزة وحشية تشتهي الاقتتال والافتراس ، وإلا فما الذي يمنع من أن أنتصر على كبريائي فأسعى

إلى داركم لأسأل عنكم ولأخلع عليكم بياض الوجوه وسواد العيون ؟

كنت أبدع البشاشة في أرواح الملاح ثم صرت المنتقم الفاتك بأرواح الملاح، فما أفظع جُرمي ، وما أسوأ صنيعي !

سأقتحم داركم بعد أيام أو أسابيع ، فما أدرى متى أنتصر على كبريائي ؟

انتظروني ، انتظروني ، لتعرفوا أن خطب الفراق لم يَهُن ولن يهون .

سأصافحكم بيدي ، ألم أحدثكم أن المصافحة مشتقة من الصفح ؟

غفرت ذنوبكم ، غفرت ، ثم غفرت ، وأنا أول من يغفر ذنوب الجمال .

عَرْبدَ الحُسن بكم فأسأتموني ، والحسن عِربيد ، ومن واجبي أن أغفر ذنوب العرابيد .

كان لي منكم تاريخ هو أجمل التواريخ ، وكان رزقًا ساقه الله إليّ ، والله حين يتفضل يمنح بلا حساب .

أنا لا أعرف متى نتصافح ، لأن هذا لن يكون إلا بعد أن أتنازل عن كبريائي ، وهذا أملٌ بعيد المنال .

سلامٌ عليكم يا أحباباً وفَوْا ثم خانوا .

أنا أعبد الجمال ، على شرط أن يعرف الجمال حقوق الوفاء.

لن أزور داركم أبدًا ، ولن أراكم ولن تروني ، فقد حلّ عليكم غضبي وغضب العاشق الصادق نقمة تنزل من السماء .

شرِّقوا وغرِّبوا في طلب المستحيل ، فصفحي عنكم هو المستحيل .

سأبدع بدائع جديدة ، وسأخلق في دنيا الحب مالا تعلمون ، فتناسَوْا عهدي ، لتعيشوا في أمان ، من جزع الوجدان .

لن تستطيعوا الفرار من انتقامي ، ولن تتخطروا بعد اليوم في شارع فؤاد ، ولن

تكونوا نهبة لأعين الحاسدين ، وألسن العاذلين ومن حق من يَخلق أن يُميت .

سلامٌ على الهوى وسلامٌ عليه ، وألف سلام .

***

أنتم تمردتم على سجن الحب ، فتمتعوا بالحرية التي اشتهيتموها جاهلين بالعواقب ، فما يتمرد على سجن الحب غير الصائرين إلى الفناء ...

كانت كلمتكم في ساعة التمرد : Vous disposez de moi

وهذا صحيح ، فقد كان من حق الهوى أن أتصرف تصرف الملك بالملوك .

لا تظنوا أنكم خرجتم من يدي ، ولا يخطر لكم في بال أني سأترك واجبي في دفن حسنكم الذاهب إلى غيابات الفناء .

هان خطبكم ، ثم هان ، وما كنت أحسب أنه سيهون، ألم أقل إن الدنيا تصنع الغرائب ؟

أنا واثق بأنكم سترجعون إليَّ قبل أن أرجع إليكم.

الشعر عندي والجمال عندكم ، والشعر أفتن من الجمال .

أما بعد فمن أنتم ؟

أنا أعرفكم بأكثر مما تعرفون أنفسكم ، فقد كنتم الغاية لما تشتهي الأرواح والقلوب ، وما اشتهيت عيناي أفضل مما اشتهيت منكم ، يا نهاية النهايات في سحر العيون .

أنا بنيتكم بيدي ، ولن أهدمكم بيدي ، والباني لا يكون من الهدَّامين .

سلامُ عليكم ، فما ألقاكم إلا إن تنازلت عن كبريائي .

احرسيني يا ليلي ، احرسيني ، قبل أن أقول : « عليك مني السلام» .

الخطاب الذي احترق بسعير الأنفاس

«للكاتب المجهول»

هو خطاب تلقيته من «فلانـة» في سـنة 1919 فمـا صـبرُ القلـب عـلى غـرام مشبوب يدوم ثلاثة وعشرين عامًا هي كألف سنة مما تعدّون ؟ ما صبر القلب على «فلانة» وفي مثلها قال المجنون:

وشـاب بنـو لـيلى وشـب بنـو ابنهـا   وأعـلاق لـيلي باقيـاتٌ كمـا هيـا

كان الدهر سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق ، ثم اسـتيقظ الدهر فعرفت ما لم أكن أعرف ، عرفت أني لن ألقاها بعد ذلك ولـو انتظـرت إلى أن تشيب ناصية الزمان .

فمن يبيعني مثقالا من الصبر الجميل عساني أتناسي أحزاني وأشجاني ؟

وهل يباع الصبر في هذه البلاد ؟

وهل ترك الاتجار فيها فيما تحدث عنه القرآن من عدس وبصل وفول مجالا للاتجار بالصبر الجميل ؟

خذوا أملاكي وخذوا حياتي في سبيل لحظة واحدة أقضـيها في حضـرة «فلانـة» لأجدد التوبة من ذنوبي ، ولأجدد العهد ، إن كانت ترتاب فيما بيني وبينها من عهد .

أكان ذلك اليوم آخر أيامي ؟

أفي الحق أني لن ألقاها بعد الوشاية اللئيمة التي نفرتها مني ؟

دنيا من الأحلام تقوّضت في لحظـة أو بعـض لحظـة بفضـل كلمـة نقلهـا أو

اختلقها نمامُ أثيم ، فما ذنبي ولم أقل في «فلانة» غير الصدق ؟

ما ذنبي ولم أقل إلا أنها كانت على تطاول الأيام أحب إلى قلبي من سائر عرائس الشعر والخيال ؟

ما ذنبي ولو أوجه إليها في حياتي كلمة واحدة تجرح الذوق ؟

إنما الذنب ذنب من ائتمنته فخان ، وكنت أحسبه أهلاً لتلقي سرائر الروح الحزين ، وهل كنت أول عاشق خدعه الواشون والرقباء ؟

الله يعلم كيف انخدعت ، فقد حسبت أن طهارة القلب تُعدي ، وظننت لجهلي أن في الدنيا ناسًا يتذوقون أخبار الحب العفيف ، ولم أكن أدري أني أكتب لنفسي صحيفة الاتهام وأنا برئ ، وكم في السجن من أبرياء !

لن أرى ذلك الوجه الأصبح بعد اليوم لأن صاحبته لا تريد أن تراني .

وكيف أراها وهي تصدر أمرها المطاع بأن أرد إليها الخطاب الوحيد الذي طلَّت به قلبي سنة 1919 ؟

ومن يصدق يا فلانة أننا كنا رفيقين في ذلك التاريخ ؟

هو خطاب أحرقته أنفاس الوجد ولم يبق منه غير أطياف ، فما حرصك عليه وهو خيال في خيال ؟

سأردّ ذلك الخطاب بلا تسويف

لا ، لا ، لن أردّ ذلك الخطاب ولو قُطِّعت أوصالي ، فهو الوثيقة الباقية على أنك كنت رفيقة صباي ، يا مثال الشرف والطهر والعفاف .

سيوضع ذلك الخطاب ، في كفني يوم أموت ، فانبشي قبري وخذيه إن عرفت طعم الحياة بعد موتي ، يا قريبة العذول الذي أفسد ما بينك وبيني ، وهي أول مرة عرفت فيها عن تجربة أن الدخان القريب يُعمي العيون .

لو كنت فاجرًا لعرفت ذنبي واسترحت .

وهل يكون الفجور أشنع مما وقعت فيه ؟

أنا أسلمت زمام أسراري لمخلوق توهمته يدرك شرف الحب ، فكان منه ما كان ، فمن يصلح ما بيننا وقد ضاق في وجهي صدرك الرحب ، ونقلك الغضب إلى الوقوف في صف الزمان.

أنا حزين ، حزين ، حزين .

وما أحزن على نفسي ، فقد شبعت من الزمان وشبع مني ، ولم يبق لي ما أخاف عليه بعد أن عانيت في دهري ما عانيت ، وإنما أحزن لارتيابك في أمانتي ، وعنك تلقيت دروس الأمانة والصدق والوفاء .

فإن فقدت عطفك فقدًا أبديًا فقد خسرت بجانبه مودة ذلك العذول ، وكنت أحسبه أشرف الناس ، وهو لك قريب ، وظلم ذوي القربى أشد من وقع الجراز المصقول كما قال بعض القدماء .

الوداع ، يا رفيقة صباي ، وداع الزهر الظامئ لقطرات الغيث .. أما الخطاب فقد أحرقتْه أنفاسي ، وأما العذول فسيحل عليه غضب الله ولعنة الحب ، ولن يلقى في دهره غير الشتات ، وسيكون هو وأهله ومن يحيط به طعامًا لنيران الوشايات والأباطيل .

الوداع ، يا رفيقة صباي ، وداع الطفل لأمه الرءوم ، وداع الموجة المتكسرة على الشاطئ الأمين ، وداع الوليد للحياة وقد أعجله الموت في يوم الميلاد !!

لقيتك بعد يأس يا رفيقة صباي ، فكاد يقتلني الجنون ...

فما الذي سيجني الواشي وقد أفسد ما بينك وبيني بكلمة أقصر من ومضة البرق وأطول من كيد الزمان ؟

ومن أعجب العجب أن يكون ذلك الواشي أنضر من ظلمة الصباح في عين الشريد الذي طال شقاؤه بظلمات الليل، فما معنى ذلك ؟

هو الحية الملساء التي تسربت إلى رياض الفردوس لفتنة أبينا «آدم» وأمنا

«حواء»

هو السم المدُوف في طيات «البرشام» الملفوف

هو العذول الذي استعاذ من شره أقطاب الصبابة والوجد والحنين .

لن أراك ، يا رفيقة صباي ، بعد اليوم ، لأن قلبك أرق من أن يحتمل فظاظة الأراجيف ، ولأن لك زوجًا يؤذيه أن يكون لزوجته في العشق تاريخ

الوداع ، وداع القلب الخائف لأطياف الأمان

الوداع ، وداع الجسد للروح

الوداع ، وداع الشاعر لديوان من أشعار الوجدان أكلته النار في يوم عاصف

الوداع ، وداع المحب للمحبوب على غير أمل في اللقاء

الوداع ، وداع المحكوم عليه بفراق الأهل إلى أن يموت في غيابات السجون

لن نلتقي بعد اليوم ، يا رفيقة صباي ، إلا في الفردوس .

وأين أنا من الفردوس؟

وهل لمن باح بأسرار الحب أملٌ في الجنة والرضوان ؟

زعم الإنسان أنه أعظم من سائر الحيوان بفضل النطق ، وبالنطق هتكتُ أسرار الحب ، فضاعت مني رفيقة صباي ، فمتى أعرف فضل الصمت ؟

الوادع ، الوداع ، وداع الكاتب لبياض الورق وسواد المداد .

الوداع ، الوداع، وداع الشاعر لعباب النيل في ليلة قمراء من ليالي الصيف ، وإلى غير ميعاد ..

«الكاتب المجهول»

القلب الغريب في ليلة العيد

أخي الأستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة أن توجِّه إليّ خطابًا على صفحات البلاغ عنوانه «من غريب إلى غريب» وكنتَ الغريب في بغداد وكنتُ الغريب في باريس ؟

ولم تحدثني عما أوحى إليك أن تفكر في إنشاء ذلك الخطاب ، فهل أستطيع أن أرجِّح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة «من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس» تلك الرسالة التي فضحتُ بها مكتوم صدري ومكنون هواي » ؟

على أنني لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة، وقضي الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلي إلى العراق .

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلَّ عهد الاغتراب عن القاهرة فمن يردّني إليها ليلة أو ليلتين لأقضي حق التحية ، تحية المغاني الآهلة التي كانت تتشوق إلى العيد، لتراني مع العيد !

ليتك يا صديقي تعرف نعمة الله عليك في بلد فيه أهلٌ وأحباب ، ولا أراك الله حسرتي وعذابي وأنا أتجرع كأس الغربة في ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتي في بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهلاً بأهل وجيرانًا بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أني لاأعاني غربة العقل ، وإنما أعاني غربة القلب .

وكيف أعاني غربة العقل ومحاضراتي يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ، ولا أدخل ناديًا إلا تلقاني أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفي مثلي بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كُتِب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ، وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقة إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهي بها أرباب القلوب وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلي حين يعود وحيدًا إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟

هل يعزِّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأي ويلقي محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء .

ليتك تراني وأنا أدخل إلى غرفتي شارد اللب فأزيح الستائر من على النوافذ ثم أطفئ الصباح لأقف وجهًا إلى وجه مع ظلام بغداد .

ويا رحمة الله من ظلام بغداد في لياليها الطوال !

ولكن ما الذي يدعوني إلى معانقة الظلام في بغداد ؟

لا أعرف ، ولكن يُخَيَّل إليّ أن الظلام يؤنسني بعض الإيناس ، لأنه يوهمني أني في فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام في غرفتي فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور في منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضجيج المرح في ليالي الوصال .

***

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكاني على المائدة في المطعم الذي تخيرته بشارع الرشيد ، وهذه أطياف تَرِدُ على القلب ، من أحباب القلب ، أطياف من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التي لم تر فيها

النجوم قلبًا مثل قلبي ، ولم تُسدل ستائرها على هوى أعنف من هواي ..

ولِيقُلْ من شاء ما شاء .

وأسأل جاري على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين

وأخرج فأتصفح الوجوه في شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطي أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف فأدمدم : برقية من النجف ؟ وهل يَسرُّ من في النجف أن يفطر من في بغداد ؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين وأذهب إلى نادي المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائي ويسألون : كيف غبت أمس؟ فأجيب: غبت أمس لأحضر اليوم ولكن حدثوني هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة فأقول : والشمس تغرب في الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تُحوَّل إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تُباغِم المستمعين فتقول : سادتي وسيداتي ، هذا آخر العهد برمضان : فأقول : يا إخواني ، يا حضرات الأساتذة ، يا مسلمين يا أولاد الحلال ، هذه مصر ليلة العيد .

فيجيب أحدهم وهو يبتسم : علمت شيئًا وغابت عنك أشياء.. ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتمًا يسبقوننا إلى العيد؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت في كل شيء فلها السبق في الصوم ولها السبق في العيد . وأنصرف محزون الفؤاد .

هذه غرفتي موحشة لا يؤنسني فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ، وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه في بغداد ، وإذن فسأعطي غدًا درسًا في التفسير ، وهو درس متعب لأنه في الكشاف ، وفي آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال .

وكيف أُعدّ هذا الدرس، يا رباه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد في مصر الجديدة وفي الزمالك ، ويا ويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ؛ وغضبة الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام وأنا أردّد أسماء تلك المغاني ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نَضرة النسيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

قال جار الله الزمخشري ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر في الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفِّق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة ! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع ، وإنما هي مدافع العيد .

وأطفأت المصباح ، وتلفتُّ إلى النافذة لأرى ظلام بغداد وقلت : هذه ليلة

عيد بالإجماع ، فَلأرحْ نفسي من الكشاف ، ولجاجة صاحب الكشاف ، ولأقبل على قلبي أتبينُ ما فيه من فُطور ونُدوب .

وتذكرت أنني كنت أكتب رسالة وجدانية في كل ليلة عيد ، ثم انقطعت رسائلي بعد إذ مات أبي يرحمه الله ، لأنني أَنِفتُ أن أبكي بعده على غرض مُضَيَّع أو هوى مفقود (*).

ثم بدا لي في هذه الليلة أن أبي لا يسره في قبره أن تعيش مهجتي بلا لوعة ، ومقلتي بلا دمعة ، وكان يرحمه الله جذوة من الوجدان

وعُدتُ إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم جد من أحاور غير الرجل الحزين الذي اسمه أحمد ، أحمد حسن الزيات .

صديقي !

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدّث إخوانك أنك عرفتني أول مرة عن طريقي البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفةً ، ثم رأيت أن الخطب هيِّن لأنك دُعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكي مبارك الذي اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضي عليك ألا تتلقى مني رسالة إلا في ظروف تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى في عهد ثورة فهذه أيضًا في عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد في ليلة عيد.

صديقي !

لأتعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء ،

(*) قبض على زكي مبارك أثناء ثورة 1919 في القاهرة، ورحلته السلطات الإنجليزية إلى معتقل سيدي بشر بالإسكندرية (رضوان).

فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام لا تُلهي الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن القلب ادق ميزانًا من العقل ، وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدي العقل إلا بالبراهين، وهي في الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل

صديقي

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت في ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب في بغداد ، الغريب الذي يوحي الحزن إلى أشقياء الغرباء والآن أطفئ المصباح لأعانق الظلام في المدينة السحرية التي شقى بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطئ دجلة، فأفهم أنني أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لا تدل على شيء ، ولا يهتدي بها غير لصوص الجيوب .

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذي لا يعرف ربيع القلب ولا نعيم الجفون .

في هذه الليلة تهدأ جُنوب ، وتَقَلق جُنوب ، وجنبي هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد

في هذه الليلة تتلفت عيون فلا تراني ، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، في هذه الليلة تشتاقني أكبادٌ رقاقٌ علمتها كيف تطيب ليالي الأعياد .

ولكن لا بأس ، فسنعيش حتى نردَّ ديون الهوي ، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع ، وسنرجو ألا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد .

أخي الأستاذ الزيات

لا أنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لي إليك رجاء فاحفظ عهد أخيك ولا تمش في شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين ، فليس في تلك المدينة بقعة إلا ولي فيها صَبَوات ، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولي فيه أحباب وخُلان

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية على أصفياء القلب في مصر الجديدة ، وفي الزمالك ، ولكنَّ مثلك واأسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولي إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلي إلى العراق والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين .

زكي مبارك

منهاج الذاتية الأدبية

صديقي...

كتبت إليَّ تسأل عن المراد من « الذاتية الأدبية» وهي كلمة يكثر ورودها على سنان قلمي ثم تدعوني إلى رسم المنهاج إن كان لها منهاج .

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هي أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول ، بحيث يشعر من يقرأ لك، أاو يستمع إليك ، أنك تنقل عن قلبك وضميرك، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك ، وأنك لو نشرت مقالا بدون إمضاء لنمَّ عليك الروح قبل أن ينم عليك الأسلوب ، فإن الأساليب قد تتشابه في كثير من الأحايين تشابهًا يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب ، أو شاعر إلى شاعر ، أو مؤلف إلى مؤلف ، عند طيّ الأسماء .

أما التشابه في الأرواح فهو نادر الوجود ، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح ، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان .

ولتوضيح هذه النظرية أذكّرك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبيد ، فمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء ، ويمكن لأي شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء ، أما معلقة لبيد فهي شعر لبيد ، ولن يحاكيه فيها شاعر ، ولو قضى العمر في رياضة النفس على الاقتداء .

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلةٌ عجز عن حلها من تحدثوا عن المنحول من الشعر الجاهلي ، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح ؛ فرقة

الأسلوب هي عندهم خصيصة حضرية ، وجزالة الأسلوب خصيصة بدوية ، وعلى هذا يقاس ، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين .

الروح هو الأصل في تقدير القِيم الأدبية ، وعن الروح يتفرع الأسلوب ، ولو شئت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء ، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث ، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب ، ثم يبقى الروح الذي يدل على صاحبه في جميع الحالات بلا استثناء .

فانظر أين أنت من هذه الحدود : أينمّ عليك روحك ؟ أينمّ عليك أسلوبك ؟ أتنمّ عليك التبعيّة الذليلة في الروح والأسلوب لأحد الكتّاب أو أحد الشعراء .

انظر أين أنت ، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب ، وافهمْ جيدًا أنه لا قيمة لأديب بلا روح ، روح أصيل تعرفه بسيماه ، ولو أقبل عليك ملثمًّا مع ألوف من الأرواح .

هل قرأت سورة يوسف ؟

في تلك السورة الكريمة آية صريحة في أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص ، وأنه شُفِي من عماه عند وصول القميص .

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف ؟

هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس ؟

هذا هو الروح الذي أُحب أن تلتفت إليه في حياتك الأدبية ؛ الروح الذي يدل عليك من أول سطر ، أو من أول حرف ، قبل أن يرى القارئ اسمك في خاتمة مقالك ، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية .

ولكن كيف تصل ؟

هنا يبدأ الحديث عن المنهاج :

يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر في جميع الأشياء وجميع المعاني نظرة استقلالية منزهه عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال ، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح ، وهي لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط ، وهل تكون الروح أقل قيمة من الرِّجل ، يا بني آدم ، والرجل لا تمشي إلا إن عودناها المشي ؟

وإذا كان علم السباحة لا يُعرف بالوصف ، وإنما يُعْرف بالتدريب على مغالبة الماء في أيام أو أسابيع ، فَعِلْمُ الروح لا يُدْرك بالوصف ، وإنما يدرَك بتدريب الروح على التذوُّق والتفهم في أعوام أو أزمان .

أراد سابحٌ عبور النيل فغرق ، وأراد سابحٌ عبور المانش فنجح ، مع أن السابحين توأمان . فكيف نجح هذا وغرق ذاك ؟

يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب . وما يقال في القوة الجسمية يقال في القوة الروحية ، فعاودْ روحك بالتمرين والتدريب في كل وقت ، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعاني ، وعوِّدها التفكير في جميع ما ترى عيناك ، وما تسمع أذناك ، وما يهجس به الخاطر في اليقظة أو في المنام ، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود .

إن عملت بهذه الوصية عامًا أو عامين ظفرت حتمًا بالحاسة الذوقية ، وهي مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية ، فتوكل على الله وابدأ من هذا اليوم .

ويجب ثانيًا أن توطِن النفس على الغُربة الأبدية ، ولو كنت في دارك وبين أهلك ، فالمفكرون في جميع العصور غرباء .

لن يكون لك ظهير غير قلمك ، ولن يكون لك نصير غير روحك ، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ .

إن صُحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية ، لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك ، وقد

رحَّبنا بالظمأ والجوع ، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع ، في سبيل الذاتية الأدبية ، فانظر كيف نصنع إذا ضَعُفتَ عن السير في بداية الطريق ، أو في منتصف الطريق ، طريق الموت أو الخلود .

أنا أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب ، وليتني وجدت من ينهاني قبل أن أحترق !

إن صريع الأمواج يجد من يمدّ له يد الإنقاذ والإغاثة ، أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث ، ونحن صرعى النيران لا الأمواج .

إن اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض ، ولا يكيد أحدهم لأخيه ، ولسنا لصوصًا حتى نعِدك ونمنّيك وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام ، بلا تورع ولا استحياء .

إرجع قبل أن تحترق ، أيها الخاطب لما يسمّونه الأدب الرفيع .

ولو أنني أملك الرجوع لرجعت ، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع، وقبل أن تصير الاستغاثة فوق ما تطيق .

كان شيخنا العظيم «عبد الحميد بن يحيي الكاتب » زودّنا بنصائح تحفظ كرامة رجال الأقلام ، فهل سمعنا وأطعنا ؟

هيهات ثم هيهات !

لا يخدعْك السراب الخدَّاع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب ، ولا تُطِع المضللين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين .

لقد نصحتُك ونصحتك ثم نصحتك ، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثّر في نفسك ، ولم يصدْك عن عزمك ن فأقبلْ ثم أقبلْ على الاحتراق باللهب المقدس ، لهب الأدب ، فنحن وحدنا الأحياء ، ونحن وحدنا الخالدون ، ولأعدائنا الموت والفناء !

إنَّ كلمة تُضَمُّ إلى كلمة في ذكاء ولوذعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز ؛ وإن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده ، لهو أطيب الهبات ، وأكرم الأرزاق .

أقسمَ الله بالقلم ، ولم يُقسم بالمال ، ونحن بالله مؤمنون ! هل رأيت الله تخلَّى عن أديب سليم القلب قويّ الروح ؟

لقد خرج المتنبي هاربًا من مصر في ليلة عيد ، فكم ألوفًا من الدنانير أنفقت مصر في تعليم أبنائها حكمة المتنبي ؟

وقد مات محمد عبده بعلة أورثه إياها عقوق معاصريه ، فكم ألوفًا من النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت ؟

وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأواثم ، ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك في صنع التمثال .

ومرَّت آلاف السنين ، والناس جميعًا يستوحشون من الليل ، فكان غناء المصريين : يا ليل .. يا ليل !!

***

صديقي :

أتراني شرحت المراد من الذاتية الأدبية ، ثم رسمت لك المنهاج ؟

هذه ومضة من ومضات ، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل ، حين اطمئن إلى أنك أحد الأوفياء بالعهود .

الراية المصرية (*)

هي راية الفكر والرأي والبيان ، وهي أول هِبة منَّ بها الوهاب على هذه البلاد، ولعلها أول هِبة جاد بها الله على هذا الوجود .

مصر بطبيعة الفطرة أُمة سليمة الروح والوجدان ، ومن أجل هذا المعنى كان فقراؤها أغنى من الأنبياء ، وكان جهلائها أعلم من العلماء ، فما عرف الناس في شرق ولا غرب بلدًا يعيش على المواهب الطبيعية كما يعيش هذا البلد ، ولا سجَّل التاريخ أمجادًا أشرف من أمجاد هذا البلد ، ولا كان في الدنيا نهرٌ أوفى وأكرم من نهرها الفياض بمعاني الخصب والثروة والشعر والخيال .

عاصرت المدنيةُ المصرية مدنيات كثيرة في القديم والحديث ، فهل انهزمت أمام إحدى المدنيات ؟ وهل خضعت لعبودية الروح في أي وقت ، وإن جار الزمن فنال من استقلالها السياسي في بعض العهود ؟

صنع الدهر بمصر ما صنع في عهود الطغيان من الوجهة السياسية ولكن الدهر عجز عن غزوها في الميادين الأدبية والروحية والعقلية ، فظلت آية الآيات في سموّ الفكر والرأي والبيان .

إن مصر لم تخضع ولن تخضع لأي سيطرة تعتمد على الاستبداد ، وهل كان من العبث أن تُعرف مقابر من سيطروا على هذه البلاد ، ثم تختفي مقبرة الإسكندر المقدوني فلم يهتد إليها منقِّب ولا باحث ، مع أن صاحبها كان من أعاظم الرجال ؟

(*) الرسالة : 26 أكتوبر 1944 .

كانت مصر لأبنائها ، ولـن تكـون إلا لأبنائهـا وستمضـي أجيـال وأجيـال ، وأزمان وأزمان ؛ قبل أن يجـوز في الـوهم أن الذاتيـة المصـرية معرِّضـة لاسـتعباد الجهل والبغي والطغيان .

في عصور الجاهلية الجهلاء كانت مصر منارًا يهدي اليونـان والرومـان ، وفي عصر الإسلام كانت ملاذًا للعلـوم الإسـلامية ، والحضـارة العربيـة ، وفي العصـر الحديث كانت مصر درعًا يقي الشرق من طغيان الغرب ، وستظل مصـر إلى الأبـد مصدر النور ومنبع الإشراق .

أكتب هذا وفي قلبي أشجان تعجز عن إثارة دموعي ، فقد قيـل وقيـل إن أيـام الحرب تصدّ العقول عن الرأي ، وتمنع الأقلام من البيان .

هيهات ثم هيهات ، فـالينبوع القـاهر يفتـك بـالحواجز والأسـداد ، والقلـم العارم يصنع مالا يصنع النورُ في تبديد الظلمات .

لن تضام مصر ، ولن تضام أهلوها ، ولن تجف أقلامها ، ولن يكون لها بـين المظلومين مكان .

لا أقول إن مصر باقية ما بقى النيل ، ولكني أقول إنها باقية ما بقى الوجود .

مصر شرَّعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأي والبيـان وسـتظل بـإذن الله مصدر الفكر والرأي والبيان

قال الزعيم النبيل مصطفى كامل :

«لو لم أكن مصريًا لتمنيت أن أكون مصريًا »

وأقول إني أكره الافتراض الذي يبيح التخيل بأني لم أكن من المصريين

إن الظلم الذي يلاحقني في وطني لا ينسيني جمال وطني لأنه عندي أعـزُّ مـن روحي ونفسي

أنا أرفع الراية المصرية حيثما توجهت ، ولن تضام مصر ولها أسـندة ودروع من أبنائها الأوفياء .

وكم تمنيت أن أكون أول من هتـف بهـذه الآراء ، ليكـون لي فضـل الابتكـار والإبداع ، ولكني أشرح آراء جادت بهـا عقـولٌ كـان لهـا فضـل السـبق في إحيـاء المواهب المصرية والعربية والإسلامية ، من أمثـال : أحمـد زكـي باشـا ، ومحمـد مسعود ، والشيخ محمد عبده ، والسيد جمال الدين .

هي آراء بشَّر بها ودعا إليها أولئك الجهابذة الأعلام ولكنها حلَّت من نفسـي محل اليقين ، فصرت أهتف بها هتاف المبدع الأصيل ، والمريد الصـادق لا يقـل إيماناً عن أساتذته النبلاء .

نحن لا نعمل لليوم الحاضر وحده ، وإنما نعمل للمستقبل القريب والبعيد ، وستظل سواعدنا قوية ولو احتواها الفناء .

نحن لا نهاب الرجعية الممثلة في أوهام الفـانين ، ولا نهـاب مصـالحنا وهـي جديرةٌ بأن تُهاب ، وإنما نهاب الحق ، ونراعي الوطن ، وتخاف الله ، وتلك معـانٍ توجب أن نظل أوفياء لكرامة العقل ، وسماحة الروح ، وشجاعة الوجدان .

سنقف كرامًا حيث يقفنا الواجب ، ولن نرضـي أبـدًا بـأن يعـرِّض الفكـر في بلادنا للخمود .

وستذكر مصر طائعة أو كارهة أن في أبنائها من وَفـوْا بالعهـد ، في أيـام ألهـتْ جماهير الناس عن الفكر والرأي والبيان ...

ويسألونك عن القاهرة

قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم

أكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة في مساء العيد . وهل في شوارع القاهرة في مثل هذا المساء موضع قدم لمن يريد أن يزوِّد قلبه وعينيه بما في أعياد القاهرة من مواكب السحر وملاعب الفتون ؟

هي دنيا من الغرائب والأعاجيب تسعد بها قلوب ، وتشقى بها قلوب . وهل يعرف حلاوة السعادة أو مرارة الشقاء غير قلب تنطوي عليه أحشاء القاهرة في يوم عيد ؟

يقال في كل أرض : إن النكتة المصرية هي أبرع ما عرف الناس من صور الذكاء . وهذا حق ..

ولكن هل فكر أحد في أسباب هذه الخصوصية ؟

إن النكتة هي النافذة التي نشرف منها على مروج الطرب والابتسام . ولو خلت حياتنا من النكتة لقتلنا الغيظُ على الأيام الجوائر التي لا يلتئم بها شمْل ولا يعتدل بها ميزان .

ولعل المقادير لوَّنت القاهرة هذا التلوين العجيب لتَطِبْ لقلوبنا الدامية ، القلوب التي مزَّقها الهيام بالحب والمجد فلم تعرف معنى القرار في صباح أو مساء .

قلت لقلبي : أيكون فرارك من ملاعب القاهرة في مساء العيد دليلاً على أنك

تُشْبه الطفل الذي يزهد في اللعب ؟

فقال : وما حكم الطفل الذي يزهد في اللعب ؟

فقلت : ينزعج عليه الأهل ، ويستقدمون له الطبيب ، لأن الطفل لا يزهد في اللعب إلا وهو عليل .

فقال : وأين أهل القلب العليل لينزعجوا عليه ويستقدموا له الطبيب .. ؟ وعندئذ عرفت أن قلبي يعيش في الدنيا بلا أهل !

***

هنا القاهرة !

نعم ، هنا القاهرة ، ولكن أين تقع القاهرة مما يريد القلب المفطور ؟

أين وهي أصل العلة التي ردْت الفؤاد وهو صديع ؟

كانت القاهرة في ماضيها مدينة محدودة النطاق ، وكان لها أسوار وأبواب . وكان حراسها يطوفون أرجاءها في ساعة أو ساعتين ثم يصعد رئيسهم فوق منارة ويصيح :

«ناموا ، أيها المسلمون ، فأنتم في أمان »

فأين نحن من ذلك الأمان وقد جَدَّت في دنيانا معاطب غير عدوان اللصوص على المتاجر والبيوت ؟

يستطيع كل قاهريْ أن يطمئن إلى أن منزله أو متْجره في أمان من سطوات الليل؛ ولكن أين الأمان من عدوان الشياطين ، شياطين الغرائز والنحائز والطباع ؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة وهي لليوم مَسْبَعة عقليةٌ تصطرع فيها المذاهب والآراء ، ولا يغمض فيها جفن إلا وهو مروَّع بقلب ساهر لا يعرف السكون إلا يوم تمنّ عليه المقادير بالموت ؟

من يضمن لك الأمان في مدينة مثل القاهرة ، وأنت من نفسك في حرب ، ومن الزمان في قتال ، ومن الزملاء في نضال .

يجب أن تعرف أنك في دنيا جديدة لا يَسلم من خطوبها وصروفها غير من أمدته المقادير بالصبر عما في القاهرة من اصطراع العواطف واصطخاب الأهواء .

فهل أنت من الصابرين ؟ وكيف تصبر عن القاهرة ، وهي قاهرة وفي دمك وروحك أقباسٌ من سعيرها العَصُوف ؟

ألم تسمع ما وقع يوم أقيمت مباراة الأناشيد العسكرية ؟

تلقت اللجنة خمسمائة نشيد ولم تختر غير خمسة أناشيد . فقال القائلون : هذا شاهد جديد على أن دولة الشعر يكثر فيها الأدعياء !

وكان ذلك لأننا نعيش في القاهرة مدينة الأناقة والفخامة والزخرف والبريق، وفي مثل القاهرة تُقهر العواطف وتُظلم القلوب . وإلا فكيف جاز أن ينسى المحكَّمون ما في تلك الثروة الشعرية أو النظمية من الدلالة على حرارة الأفئدة وشهامة العقول ؟

خمسمائة نشيد ؟ معنى ذلك ، أيها الناس ، أن القاهرة فيها خمسمائة قلب ، وذلك مغنمٌ عظيم . ولكن أين من يقيم الميزان لَحيوات القلوب وهي لا تُوزن ولا تُقاس ولا تكال ؟

وهب يَشفى في المدائن العظيمة غير أصحاب القلوب ؟

***

هنا القاهرة !

نعم ، هنا القاهرة ، ولكن أين مكان الأديب في المدينة التي أصبحت عاصمة الشرق ؟

أين مكان الأديب في القاهرة وبفضل قلم الأديب صارت القاهرة عاصمة الشرق ؟ وهل خُلِّدت ليلى إلا بفضل أشعار قيس ؟

أين مكان الأديب في القاهرة ، ومن دم قلبه خُطَّ تاريخها الحديث ؟ بل أين من تسمح له القاهرة بأن يقول إنه في هواها مجنون ؟

إني وإياها كمفتتن بالنار تحرقه ويعبدها

هنا – في القاهرة – زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس ، فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدي ما أداه عشاق بغداد في القديم وعشاق باريس في الحديث ؟

زرت حديقة الأزبكية في صباح اليوم وهو يوم عيد فلم أر فيها غير شراذم من غلف القلوب ، فأين الأديب الذي يُشعر الدنيا بأن في القاهرة حديقة اسمها حديقة الأزبكية ؟ وكيف جاز أن تخلو هذه الحديقة في يوم العيد من مواكب الحُسن الوضاح . والجمال الفضاح ؟ ومتى نعيش إذا ألهانا جِدُّ القاهرة عن مداعبة الملاح في يوم العيد ؟

متى تعيش إذا استطاعت مُحرِجات الحياة أن تقهرنا على التفكير في منافعنا الدنيوية في المواسم والأعياد ؟ وهل عُمرنا عمر نوح حتى نصبر عن مواسم الأفئدة إلى أجل قريب أو بعيد ؟

هي أيام نقضيها مشدودين بسلاسل وأغلال إلى «قطار المفاجآت » في هذه الحياة . فمتى نلتفت إلى ما أنبت الغيث في صحراء الحياة من أزهار ورياحين ؟

سيندم قومٌ على ما ضيّعوا من مواسم القلوب في القاهرة . وسأذكر بعد فوات الوقت أنني جنيت على شبابي حين أضعته بين سواد المداد وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب . فهل أخرج من داري إلى معاقرة الحياة بالقاهرة في هذا المساء ؟ كيف ولي شواغلي تحرمني الحرية في مساء العيد ؟

وهل يستطيع قاهري أن يُمضي يومًا واحدًا بلا كفاح وهو يعيش في مدينة

مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة .

إن هذه المدينة التي تفتنكم لم تُخلق في يوم وليلة ، وإنما هي عُصارة العزائم الشداد في الأجيال الطوال . فمن أقام في القاهرة وله عقل وذوق فليحاسب نفسه على اللمحات واللحظات ليؤدي الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه إن كان من الموفَّقين ، وإلا فهو نفاية ملفوظة في المدينة «القاهرة» التي تنكر خمود الغرائز وجمود الأحاسيس .

***

هنا القاهرة !

إي والله ، هنا القاهرة . وما أسعد من يرى القاهرة أول مرة !

لقد فتنت هذه «القاهرة» من زاروها في هذه الأيام للاشتراك في المؤتمر الطبي العربي ، وحمدوا الله على أن جعل للعروبة مدينة مثل القاهرة تتكلم اللغة العربية ، فإن لم تكن القاهرة أعظم مدينة في العالم كله فهي بالتأكيد أعظم مدينة في الشرق بفضل ما جمعت من الخصائص الذاتية التي تحكم لها بالفضل على جميع مدن الشرق ، وليس ذلك بالقليل .

ولكن أين من يعرف أننا بسبب هذه العظمة أشقياء ؟

أين من يعرف أن القاهرة لا تَعظُم من يوم إلى يوم إلا لتزيد أعباءنا في الحياة ؟ وإلى المنصفين من إخواننا في الشرق أقدِّم الظاهرة الآتية ليعرفوا في أي جحيم يعيش القاهريون .

في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش لأن الدنيا في بلاد الشرق لا تزال تتسع للأوساط من الرجال .

أما مصر – ويرحم الله أهل مصر !– فليس فيها للرجل الوسط مكان .

العالم الوسط لا يستطيع العيش

والأديب الوسط لا يجد الرزق

والمغني الوسط يضيع

والطبيب الوسط لا يجد ثمن الدواء حين يمرض

والصحفي الوسط لا يملك الوصول إلى خبر صغير

والممثل الوسط لا يجد الفرصة لشهود رواية صغيرة ، فضلاً عن القدرة على الاشتراك في التمثيل .

القاهرة تقول في كل وقت : كن قاهريًّا

وهل يستطيع كل مصري أن يكون قاهريًّا ؟

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الشعراء لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبري ومطران ؟

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الكتاب لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى المنفلوطي ومحمد المويلحي ؟

ومن كتّاب اليوم وشعراء اليوم ؟

عندنا مئات من الكتاب والشعراء ، ولكنهم سيموتون بغصة الحسرة على أنهم نشأوا في القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام العنيف الذي لا يسلم من كربه غير الفحول الصوّالين .

لقد قيل إن الرحمة فوق العدل . فأين نحن من الرحمة وأين نحن من العدل ؟ أين من يرحم الأديب الوسط أو يعدل في الحكم على الأديب الوسط فيقضي بأن من حقه أن يعيش لأنه قد يكون أقدر من بعض الذين خلّدهم أبو الفرج الأصبهاني؟

وأين الراحم أو العادل الذي يقول بأن في شعراء اليوم الشعراء الذين أخملتهم

القاهرة ، من يفوق عشرات من شعراء «اليتيمة» و« الذخيرة» و«قلائد العقيان» ؟

القاهرة لا تتسع أبدًا لغير الأفذاذ الذين يغلبون الزمان وهنا جواب السؤال الذي يوَّجه إليّ في كل يوم :

«كيف يتسع وقتك لكل ما يَصُدر عن قلمك من الدراسات الأدبية والفلسفية؟»

وهل عندي وقت وأنا موظف مسئول أمام الواجب ؟

إنما أنا قاهريٌّ يحبس نفسه في البيت يوم العيد ليحفر بسنان القلم ثقبًا يتطلع منه على ضوء العظمة القاهرية عساه يُقنع القاهرة : بأنه رجل مجاهد يستحق أن يعيش .

فإن رأيتم قاهريًّا يصنع مثل الذي أصنع فاعرفوا أنه رجل مكدود يحاول الظفر بكلمة ثناء من المدينة العاتية التي حكمت بألا يعيش فيها غير من يقدرون على أمواج المحيط في غضبة العواصف الهُوج ، ودهرٌنا كله عواصف هُوج يتفزّع من هولها المحيط .

لا تصدقوا أبدًا أننا نسعى في سبيل المجد ، فذلك مَطلبٌ لا يخطر لنا في بال ، وإنما نسعى للخلاص من شماتة الشامتين وسفاهة الكائدين .

آه ثم آه !!

لو كان الماضي ينفع لجاز لرجل مثلي أن يعتمد على ماضيه في خدمة الحياة الأدبية والفلسفية ، ولكن القاهرة تعيش في وجه الرجل الذي يعتمد على ماضيه ، لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء ، أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق .

هي حسناء لعوب لا تعرف غير العاشق المزوَّد بأطايب الثروة والعافية ، فيا رب كيف أكون في وطني يوم يتعب قلمي فأنصرف عن الخلوة إليه في يوم عيد ؟

حتى يوم العيد نقضيه في نضال ؟

في مثل هذا العيد من سنة 1932 كذبت على أبي مرة ولم أكذب عليه غير تلك المرة . كتبت إليه أقول إني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية فلا ينزعج أهلي إن حرمتني هذه النزهة من الأنس بهم يوم العيد في سنتريس .

فهل قضيت تلك الأيام في الإسكندرية ؟

لم تكن إلا حيلة لأحبس نفسي في أيام العيد في البيت لأكتب فصلاً من فصول «النثر الفني» وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية .

وهل يصنع بنفسه هذا الصنيع إلا قاهريٌ تقهره القاهرة على النضال المميت ليجد مجالاً في المدينة التي تصطرع فيها أقلام المازني والعقاد والزيات والبشري وهيكل وطه حسين ، ومن إليهم من الباحثين الذين سيموتون قبل الأوان بفضل الكفاح الموصول ؟

القاهرة لا تعرف الرجل الوسط فافهموا هذه الحقيقة يا أبناء هذا الزمان ، وإلا فهناك «سلة المهملات» تنتظر الألوف ممن يراسلون الجرائد والمجلات ؟

يمنّ علينا من يحمله التلطف على القول بأن القاهرة عاصمة الشرق ، فهل تعرف القاهرة أن أقلامنا هي التي صاغت لها تلك العقود من الثناء ؟ وكيف وعندها (سَفح المقطم) الذي وسع الألوف من أجسام العبقريين ؟

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوحي روح ابن الفارض قبل أن أشرع في كتابة الفصل الخاص به في كتاب التصوف الإسلامي ، فراعني أن أعرف أن تلك الناحية هي أنفع مكان في القاهرة من الوجهة الصحيحة ، وكذلك أيقنت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات . وما أحسبها تصنع ذلك وفاء ، وإنما أخشى أن تكون أرادت التنبيه إلى أن عظمة الرجل في مصر لا تكون إلا بعد الموت !

يرحمك الله أيها القلب الذي يشغله الكفاح عن ملاهي العيد !

الآن ، وقد انتصف الليل أو كاد ، أفكر في مصيري بين قومي أفكر في الشباب المضيَّع بلا لهو ولا فُتون !

وهل كنت أول من ندم على الشباب المحروم !

ولكن ، هل أملك غير الذي صنعت وغير الذي سأصنع ؟

فيا أيها الوطن الغالي ، تذكَّر ثم تذكَّر أنني كنت ولا أزال مجنون ليلاك فإن رأيتني صدفتُ عن أفراحك في يوم عيد ، فاعرف أن ذلك لم يقع عن جهل أو عقوق ، وإنما هي إرادتك العالية التي قضت بأن يعيش أبناؤك وهم دائمًا في حومة قتال !

وما أدعوك ، أيها الوطن ، إلى التصدق عليَّ بنظرة عطف ، فأنا لا أقبل الصدقات ، وإنما أدعوك إلى مقابلة الجميل بالجميل ، فإن رفق الآباء يزيد في بِر الأبناء !

وطني... لقد شقيتُ بعظمتك ، ومن أجل هذا أحبك وأستعذب الصاب والعلقم في هواك !

وطني ! إليك أسلمتُ قلبي وعقلي ، فخذ بزمامي إلى حيث تشاء ، يا أنضر دوحة تغنَّت فوقها البلابل ، ويا أجمل روضة رنَّت فيها القُبلات ، ويا أطهر بقعة أقيمت فيها المحاريب ، ويا أشرف صحيفة أرهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ .

قصر أنطونيادس(*)

هو أنطونياذيس ، بالذال لا بالدال ، في النطق اليوناني ونحن ننطقه بالدال على أسلوبنا بالمراوحة بين هذين الحرفين ، كما نقول : دا ، في مكان ذا ، وكما نقول دي ، في مكان ذي ، وكما نقول : خد ، في مكان خذ ... وكان ذلك لأن الدال أخف في النطق من الذال ، لا تحوجنا إلى بروز اللسان بين الأسنان .

أترك هذه الفائدة اللغوية لأواجه الموضوع فأقول :

كانت أيام الصيف الماضي أيام أعياد لقصر أنطونياذس ، فقد ورد اسمه مرات ومرات في الجرائد المصرية والسورية والحجازية والعراقية ، إلى آخر ما هنالك من الجرائد التي تصدر باللسان العربي ، ثم ورّد اسمه أيضًا مرات ومرات في الجرائد التي تصدر بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية واليابانية والصينية ، إلى آخر ما هنالك من الألسنة التي يهتم أصحابها بالمشكلات الدولية .

ونحن نعرف الأسباب التي جعلت لقصر أنطونياذس هذه المنزلة التاريخية ، فقد كان المكان المختار لمشاورات الوحدة العربية ، المشاورات التي اشترك فيها رجال يمثلون العراق والشام والحجاز .. ولو تمهلت الحوادث لاشترك فيها رجال يمثلون لبنان قبل أن ينتهي ذلك الموسم الجميل .

وأنتم رأيتم الصُّور التي سجلت بعض المناظر لأولئك المتشاورين . ففي الجانب المصري يجلس مصطفى النحاس باشا ومعالي الهلالي باشا وسعادة

(*) الرسالة : 3 يناير 1944 .

الأستاذ محمد بك صلاح الدين ، وفي الجانب العراقي أو السوري أو الحجازي يجلس من اختارتهم أمتهم لتلك المشاورات ، ثم يكونون ضيوف الحكومة المصرية في قصر أنطونياذس ، إلى أن تنتهي مهمتهم الرسمية .

فما هو قصر أنطونياذس الذي شغل الجرائد والمجلات والإذاعات والبرقيات عددًا من الأسابيع في الصيف الذي سلف ؟

أعترف بأني ما كنت رأيت ذلك القصر من قبل ، فما كان يهمني من الإسكندرية غير الشواطئ ، ولا كنت أتصور أن فيها مكانًا أبهج من محطة الرمل ، عليها تحية الحب !

الصورة التاريخية هي التي دفعتني إلى رؤية قصر أنطونيادس لأكتب عنه كلمة توضح بعض ملامحه لمن يجهل من أحواله ما كنت أجهل ، وما أكثر ما أجهل من أحوال بلادي !

منطقة شعرية :

أخذت العربة طريقها بمحاذاة نادي سبورتنج ، ثم اتجهت شرقًا إلى ناحية خفق لها قلبي ، القلب الذي تذكر أنه زار تلك الناحية في الليالي البواسم قبل أن تولول أبواق الحرب !

نعم ، هذا كازينو النزهة ، وهذي موسيقا الرقص في ضحوات الآحاد ، بعد أن امتنع فيه الرقص بالليل .

وتلك طيوف الماضي تعاودني برفق أو بعنف ، فقد كان لي في ذلك الكازينو ذكريات .

متى تعود أيامي ؟ متى تعود ؟

من حق الأيام أن تنتقم مني ، فقد أكرهتها على أن تكون في مذاقي رحيقًا في رحيق ، وهي بلؤمها تريد أن تكون غسلينًا في غسلين .

وهل استطاعت الحياة أن تنتقم مني ؟

وكيف وهي مثقلة بالديون لقلمي ؟

نحن نبتدع الحياة بأفكارنا وأحلامنا ، لنجد ما نصوره بأقلامنا ، فإن فكرت الحياة في أن تمن علينا فلتنزجر ولترتدع فليس لها في أعناقنا جميل ، وإنما نحن أصحاب الجميل .

إن الإنسان خليفة الله في الأرض ، ونحن لا نخترع هذا القول ، فقد جهر به القرآن المجيد فما مصير الحياة لو عاشت بلا أبناء ، ونحن وحدنا الأبناء الأصلاء؟

إن خطيئة أبينا آدم كانت نعمة على هذه الأرض ، فما كان للأرض تاريخ قبل أن يهبط إليها من الفردوس ، وما صنع إلا لأنه مجموعة نفيسة من الآراء والأهواء، والحقائق والأباطيل .

بإرادة إلهية خلقناك خلقًا يا هذه الأرض ، وصيّرناك مؤتمرات سلام وميادين حروب .

حديقة الورد:

هي حديقة نموذجية تذكرنا بالجوانب الوردية من حديقة لكسمبورج في باريس ، وقد هجعت الورود بسبب قسوة الشتاء .

الآن عرفت ما لم أكن أعرف

عرفت أن البرد يؤذي أهل الرقة واللطف ، وينفع أهل القسوة والعنف .

الآن عرفت كيف كان العرب يصفون المرأة الرقيقة بأنها «نؤوم الضحى» ومعنى ذلك أنها لا تستطيع الاستيقاظ في برد الصباح ، لأنها في رقة الورد ، والورد لا يستيقظ في ساعات البرد .

هل تذكرون حياة النمل ؟

إن النمال تكون من العمالقة في الصيف ، ثم تأوي إلى مساكنها المطمـورة في الشتاء .

ولا كذلك بنو آدم ، فقوتهم في الشتاء لا في الصيف ، ومن هنـا جـاءت فكـرة «عيد الميلاد» وهي تعبير عن نزهة إنسانية قبل أن تكون تعبيرًا عن نزعة مسـيحية ، فما يعرف أحد بالضبط في أي شهر ولد المسيح ، لأنه ولد قبل أن يلتفت الناس إلى تقييد المواليد .

البرد هو الذي نفع روسيا فنصرها على نابليون ، وقد ينصرها عـلى هتلـر بعـد حين .

وتأخر البـرد في هـذه السـنة آذى المـزارع المصـري بعـض الإيـذاء ، لأن في الدفء حياة للديدان ، وحياة للنمال ، وحياة للذباب ، وفي حياة هذه المخلوقـات جور على أرزاق الناس .

البدر هو الذي يعلمنا كيف نستعد لمقاومة التقلبات الجوية ، وهي تقلبات لا ينتصر عليها غير من يتدثرون بالأثواب والقلوب .

وآية «يا أيها المدثر» تدل على أن الرسول تفتح قلبـه للـوحي في ليلـة شـاتية ، وسنجد دليلاً على صحة هذا الافتراض ، إن كان يحتاج إلى دليل .

وهل تهجع الأرض في الشتاء كما يتصور الناس ؟

إن الحرارة تتحول إلى جوف الأرض فتعدها إعدادًا صالحًا للإنبات والإيراق والإزهار والإثمار ، وسبحان من لو شاء لكشف الحجاب عن حكمتـه العاليـة في مداولة الأيام بين الصيف والشتاء .

وهل تهجع شجيرات الورد كما تصورتها وأنا أجول في حديقة الورد ؟

إنها تستجم ، ولعلها تدير في نفسـها الصـور المنتظـرة للربيـع المقبـل ، كمـا يستجم الفنان ليدير في نفسه الصور المنتظرة لربيع الفكر والخيال .

لا نوم ولا موت في هذا الوجود ، لأن الله خلقه لليقظة والخلود .

لو زحزح الحجاب لحظة واحدة لرأينا جميع الموجودات في اقتتال أو اعتناق، وإن ظهر للعيون أنها غافيات .

لم يرحم الشتاء غير طائفة قليلة من الأزاهير ، فرأينا ما تصنع النحل، وتـذكرنا أن النحل تمنح وهي تنهب ، لأنها تشـعر الزهـر بمعـاني الحنـان ، والحنـان غـذاء الجمال .

تدخل النحلة إلى جوف الزهرة فتعتصر ما فيها من رحيق ، ثـم تنتقـل بسـرعة إلى زهرة ثانية وثالثة ورابعة ، ولا تكف إلا حـين تغلبهـا النشـوة فتميـل إلى القـرار والاطمئنان .

والنحل تترك الخلايا من وقت إلى وقت ، وتسافر في طلب الرزق ، ثم ترجـع بدون أن تضل الطريق ، فسبحان من أوحي إلى تلـك الخلائـق اللطيفـة مـا أوحـى سبحانه سبحانه ، وإن كان غنيًا عن الثناء .

التمثال :

دخلنا الروضة النائمة بسبب البرد ، فراعنا التمثال ، وأي تمثال ؟

ذلك وثن أقيم لفتاة عاريـة تتلقـى شـآبيب المطـر ، أو أكـواب الشـمس ، في لحظة صفاء .

تلك فتاة قتلت صباها وهي تخضعه لصانعي التماثيل ، وإلا فأين هي اليوم ؟

بعشرين جنيهًا وبثلاثين سمحت الفتاة المسكينة بالجلوس على تلك الصورة أسابيع وأسابيع ، ليصاغ منها ذلك التمثال .

قلت للجنّان : افتح صنابير النوافير لأرى كيف تغتسل هذه الشقراء .

لقد كادت الفتاة تستيقظ لتتعلق بعنقي ، فما تحدث عنها شاعر قبل أن تراني .

كان الماء يتساقط على شفتيها ، وكأنها عروس في ليلة حمراء .

أين النموذج ؟ أين ؟ إنها فتاة ذهبت إلى غير معاد ، فما يعمر مثل هذا الجمال، وهل تطول أعمار الورود ؟

ركعت هنالك طفلة ظريفة ، وهي تقول في بغام يشبه الحنين

La statue falt comm. Ca

فما عرفت أي الروحين أرق وألطف ، الروح الناطق ، أم الروح الصامت !

النموذج مات ، بدليل أنه سكت عن مطالبة البلدية بحقوقه في روضة الورد ، ولأن زيارته ميسورة بنصف قرش ، وما أهون الجمال الذي يزار بأنصاف القروش!

أين أنا مما أريد ؟

كان الغرض أن أصف قصر أنطونيادس فشرقت وغربت ، وأتهمت وأنجدت ، ولم أقل شيئًا عن القصر ذي الشرفات والروضات ، القصر الذي سمع نجوى القلوب الصوادق بأماني الأمم العربية ، حقق الله تلك الأماني .

وهل كان يجوز أن أتحدث عن ذلك القصر قبل أن أصف ما يحيط به من رياض هي ملاعب أهواء ، ومراتع ظباء ؟

كل شيء ينبض بالحياة في تلك المنطقة الشعرية ، وإليها تهفو الأرواح في ضحويات الشتاء ، وعصريات الربيع ، ولا ينافسها إلا رمال الشواطئ ، حين يقبل الصيف !

ما هو قصر أنطونيادس ، إن له عندي شجونًا من الحديث .

الصوم عن القاهرة في يوم العيد

[رسالة مهداة إلى الأستاذ الزيات ، وإلى من تعنيهم مكانة القلم البليغ]

كان من السنن الجميلة أن أقضي يوم العيد بين أهلي في الريف وكان للعيد في حياتي تأثير جميل ، فقد كنت أسمع من أمي وخالاتي وعماتي دعوات أكاد أشهد صعودها إلى السماء .

وما أذكر أني قضيت العيد بعيدًا عن أهلي إلا في الأعوام التي قضيتها بين الاعتقال والاغتراب ، ولله حكمة عالية في ابتلاء القلوب بألوان من الضجر والضيق تؤهلها لإدراك بعض المجاهيل من بيداء الوجود .

وفي صبيحة أحد الأعياد مضيت إلى «سنتريس» وأنا خالي الذهن من المفاجئات ، فراعني أن أرى أبي يجذب يدي فيقبلها بحرارة وشوق ، وكنت أنا الذي يقبل يمناه في جميع فرص اللقاء ولو أتيحت في اليوم الواحد عشرات المرات ، فماذا فهمت من ذلك العطف الجديد ؟

قدرت أن أبي سيموت ، وأنه لم يقبل يدي إلا إيذانًا بالوادع ، وأنني لن أراه في مثل ذلك اليوم من السنة التالية ، وأنا الدنيا لن تسمح بأن أرى العيد في صحبة صديق كان غايةً في صباحة الوجه ، وحصافة العقل ، وطهارة الوجدان . وهل رأت عيناي رجلاً أفضل من أبي ؟

وصفه المسيو دي كومنين لأحد محدثيه بهذا الوصف الطريف :

Cetait un vieillard de chez nous

يرحمك الله ، يا أبي ! ويرحم أيامي في رعاية قلبك الرقيق !

كان أبي يحبني إلى حد الإسراف ، وكنت خليقًا بذلك الحب ، فما بات من أجلي ليلة واحدة وهو محزون أو مكروب .

وهل جشمت أبي ما لا يطيق ، أو فرضت عليه أن يحسب لمتاعي أي حساب . مع أنه لم يمت إلا بعد أن تمرس كاهلي بحمل الألوف من المصاعب الثقال ؟

ثقل عليّ قضاء العيد في الريف بعد موت أبي ، فكيف كان العوض من ذلك الحرمان ؟

أشار أخ كريم بأن أزور قصر جلالة الملك يوم العيد لأقيد اسمي في دفتر التشريفات ، فماذا غنمت من تحقيق ذلك الاقتراح الجميل ؟

كنت أبكر قليلاً لأسير في شوارع القاهرة لحظات قبل أن أصل إلى قصر جلالة الملك ، فعرفت من جمال القاهرة ما لم أكن أعرف ، وما ظنكم بمدينة لا يستطيع العيد أن يزيدها جمالاً إلى جمال ؟

كان يروعني أن أرى القاهرة لا تتأثر بالعيد ، وكيف وجميع أيامها أعياد ؟

وهل يمكن أن تمر بأحد شوارع القاهرة في أي وقت ثم تعود وأنت في أمان من الفتون ؟

إني أحسد من يرى القاهرة لأول مرة ، أحسده وأحقد عليه ، فبالرغم مني أن يكون لي في هواها شريك ، ولو كان من أكابر أهل الوفاء .

وأقول «أول مرة » لأني أخشى أن يكون طول الإلف قلل من طرافتها في عيني، وإلا فكيف جاز أن يكون طوافي بشوارعها مقصورًا على أوقات الأعمال ؟ ألا تمر أسابيع في أيام الإجازات بدون أن أستصبح بنورها الوهاج ؟

وأرجع فأدون أني كنت أصل إلى قصر جلالة الملك بعد أن أطوف بشوارع

القاهرة لحظات ، فأرى القصر يموج بالمهنئين من الوزراء والقضاة والمحامين والنواب والشيوخ والأعيان ، وألتفت فأراني أستقبل كل قادم ، وأودع كل ذاهب ، كأنني في داري ، وأنتهب الفرصة فأدير المناقشات الأدبية والاجتماعية مع من أصادف هنالك من رجال القلوب والعقول ، ولا أنصرف إلا بعد أن اطمئن إلى أني عيدت على أكثر من أحب أن أراهم في يوم العيد .

وكان جلالة الملك رأى أن يخفف على شعبه الأمين تكاليف التشريفات ، فكان الوافدون إلى القصر للتهنئة لا يشعرون بالفروق الموروثة بين الطبقات ، وكان حظ أي زائر مماثلاً تمام المماثلة لحظ رئيس الوزراء .

ثم ماذا ؟ ثم جاء العيد بجديد لم ألتفت إليه من قبل نظرت في منهاج التشريفات فهالني أني لم أجد فيه مكانًا لرجال القلم البليغ ، مع أن لرجال القلم نصيرًا في قصر جلالة الملك ، هو الرجل أحمد محمد حسنين ، وكان من لطائفه أن يراعى هذا الشأن الدقيق .

مليكنا العظيم الشاب يسره أن يشهد جميع ما في وطنه من القوى الحيوية ، وأعظم القوى في مصر هي قوة القلم البليغ فكيف يصعب علينا أن نصافح الملك في يوم العيد ، ونحن رسل الثقافة المصرية في الشرق ؟

إن أقلامنا هي زينة الوطن في أعوام النعماء ، وسناده في أيام البأساء ، فكيف يحال بيننا وبين مصافحة رمز الوطن في يوم العيد ؟

رجال الدين لهم في التشريفات الملكية مكان ، وللوزراء والسفراء مكان ، ولكبار رجال الأعمال مكان ، فأين المكان المحفوظ لأقطاب القلم البليغ ؟

أعيذ القارئ أن يتوهم أني أطالب بمغانم رسمية ، تغض من سمو المنزلة الأدبية ، فما نحن طلاب ظواهر ، وإنما نحن طلاب معاني ، والقصر هو الرمز المعنوي لروحانية هذه البلاد ، ونريد بصراحة أن يكون لنا في ظلاله مكان ، باسم الفكر والبيان .

الأدب للأدب ..

ولهذا المعنى نطالب بأن يكون له في التشريفات الملكية مكان

قد يقال إن حملة الأقلام في مصر يعدون بالعشرات أو بالمئات ، ومن الصعب أن يوضع لهم نظام في التشريفات .

وأجيب بأن من السهل أن يكتفي بالطبقة الأولى ، وأفرادها لا يحتاجون إلى تعريف ، ثم تكون هذه الطبقة رمزًا للقوة الأدبية في التشريفات ليعرف رجال القلم أن حظهم غير ضائع في هذه البلاد .

كان متوسط ما يصدر عن المؤلفين المصريين اثنا عشر مجلدًا في كل يوم ، قبل أن ترتفع أثمان الورق ، فهل أقيم لجهودنا ميزان في وزارة المعارف أو رياسة مجلس الوزراء .

واسم مصر يرتفع من يوم إلى يوم في أقطار اللغة العربية بفضل القلم البليغ، فهل جوزي حملة الأقلام على ذلك الجهاد ؟

نحن أغنياء بأقلامنا وأرواحنا عن ثناء الأمة المصرية ، ولكننا نشتهي أن تكون أمتنا غاية في الوفاء ، وهو أشرف الخصال، فهل تسمع أمتنا هذا الصوت ؟

شاءت المقادير أن تكون لمصر الزعامة الأدبية في الأقطار العربية والإسلامية، أفلا يكون من العيب أن يحفظ قدر القلم المصري في جميع الديار ، إلا الديار المصرية ؟

بأعصابنا ودمائنا غنمنا المعركة الأدبية ، بعد نضال حشدت فيه قوى كريمة تتمتع بالهواء الذي تنسمه ملك بني أمية ، وملك بني العباس .

ولن تنزع الراية الأدبية من أيدينا ، ولو عاد عهد الخلفاء في قرطبة ودمشق وبغداد ، فإن شاء بنو الأعمام والأخوال أن يناضلوا من جديد فنحن على استعداد للنضال .

وهل يحتاج بنو الأعمام والأخوال إلى مثل هذا الوعيد ؟

إن عطفهم مبذول بغير حساب ، ونحن لا نشكو غير تجني الحكومة المصرية ، فهي لا تعترف للقلم بحق إلا إن كان صاحبه من السياسيين ، وسنؤلب جميع أدباء اللغة العربية على الحكومة المصرية ، فلتعرف هذه الحكومة أن صبرنا لن يطول على تجنيها الجميل !

***

أما بعد، فقد عز علي أن يحظى ناس بمقابلة جلالة الملك ، ثم لا يكون نصيبي غير كتابة اسمي في دفتر التشريفات ، وأنا من فئة قليلة تحمل المصابيح لإنارة القلوب والعقول ، ولها فضل معروف أو مجهول في بناء هذا الجيل .

وكذلك قررت الصوم عن القاهرة في هذا اليوم ، والصيام في العيد حرام لا حلال ، فهل يغفر الله هذا الذنب الدميم ؟

أين أنا من القاهرة ؟. وأين القاهرة مني ؟

لقد سكنت الدنيا من حولي ، ولم يبق غير الأصوات الصواخب في أعماق الوجدان .

أهو يوم أضعته ؟ لا والله ، بل هو عمر ضاع ، فليس من رؤية القاهرة عوض ، ولو انتفعت بالاعتكاف لتسجيل أعظم حديث يجود به القلب الخفاق

وهل استوفيت حظي من الحياة حتى أسأل عن نصيبي من القاهرة في مثل هذا اليوم ؟

صمت عن القاهرة في يوم يحرم فيه الصيام ، فما جزائي ؟

الجزاء هو الحرمان من رؤية وجهها الأصبح في يوم عيد ، وقد تجمعت الخلائق لشهود معترك الحسن والوجد في ساحتها الفيحاء ...

للقاهرة في كل يوم مذاق ، فكيف أصوم عنها في يوم العيد ، وهي فيه ألوان

من الأذواق ؟ أمن أجل الغضب لقوم لا يغضبون لأنفسهم أصوم عـن القـاهرة في يوم عيد ، وهو فيها صنوف ، من الحسن الموصوف ؟

لقد ضحيت ما ضحيت لأغنم الثواب في التنوية بجمال بلادي فما ثوابي عند القاهرة ، وقد جعلت الصيام عنها في العيد من المحرمات ؟

الجواب عند روحها اللطيف .

خواطر ليلة الميلاد (*)

كان لي مع هذه الليلة تواريخ في القاهرة وباريس ، تواريخ أبدعها الجوّ الطروب أو الجوّ العَبُوس ، فقد كان يتفق في أحيان كثيرة أن تحمل ليلة الميلاد أكدارًا ومنغصات ، لأن الغالب في البيوت الفرنسية وأن يكون الزوجان عاشقين وأن تكون نيران الغيرة مما يُشب في ليلة العيد حول «شجرة الميلاد» وما أسعدَ من يعيش وهو معذَّب بلواذع الوجدان ! ما أذكر مرة أن تلك الليلة مضت بدون عواصف إلا أن تكون في بيوت فرغ أهلها من مصارعة الأهواء ، وهي فيما عدا ذلك ليلة متاعب وكروب .

وهذه الظاهرة هي سرّ جمال هذه الليلة ، فاصطراع العواطف ميلادٌ جديد ، وقد يفعل فعل السِّحر في إحياء المشاعر والقلوب .

كنت أقضي هذه الليلة في بيوت أعرف من أحوالها أشياء ، فكنت أفهم الرموز والتلاميح ، وكنت أجد التفاسير لبعض دقائق الأدب الفرنسي ، وهو أدبٌ قام على أساس الفهم للسريرة الإنسانية ، وسيعيش إلى أزمان وأزمان ، ما دام في الدنيا ناسٌ يحبون الأدب الصادق الصريح .

ثم جاءت هذه الحرب فقضت في مصير فرنسا بما قضت ، ولم يبق لأصدقائي الفرنسيين من زاد غير الحزن الوجيع ، فأنا لا أزورهم في ليلة الميلاد كما كنت أصنع ، ولا ألقاهم إلا في الحين بعد الحين ، فهناك أحزان تؤرثها المؤاساة

(*) الرسالة : 4 يناير 1943 .

وتزيدها اشتعالاً إلى اشتعال .

وهنا أذكر أني عرفت أخيرًا أن سقوط باريس لم يُحزن أهل باريس بقدر ما نتصور ، ولم يشعرهم بمعاني الامتهان ، وتفسير ذلك عند الأستاذ توفيق وهبة أنهم قومٌ تعودوا الهزائم والانتصارات ، ولم تكن الدنيا في أنظارهم غير مواسم للانخفاض والارتفاع .

ولكني مع هذا أقرر أن حال الفرنسيين المقيمين بمصر يختلف عن حال مواطنيهم هناك ، لأن المغترب يتعلق بوطنه تعلقًا لا يحسَّه المقيم ، وقد تأكد عندي هذا المعنى في الأعوام التي قضيتها في باريس ، وفي بغداد ، فقد كان الخبر السيء يؤرق نومي مهما صَغُر وهان ، وكان أي حرف يُكتب ضد مصر يؤذيني ، فأردّ عليه في الحال .

أكتب هذه السطور في ليلة الميلاد ، وفي خيالي بيوتٌ عزيزة كنت أحب أن أراها وكانت تحب أن تراني . وسيقول قومٌ كلامًا كالذي قالوه يوم نشرت «الرسالة» مقالي في التفجع لسقوط باريس !

كانت فرنسا أمةً استعمارية فشِمت بانهزامها من يؤذيهم بُغي المستعمرين ، وفاتهم أن فرنسا أعطت جميع الشعوب درسًا سينتفعون به حامدين أو جاحدين .

كانت فرنسا ترى أن اللغة هي عنوان الأمة ، وكانت ترى أن الوطن الذي لا يسيطر بالفكر على خصومه ومنافسيه وطنٌ ضعيف . ومن أجل هذا أنفقت فرنسا ما أنفقت من الأموال ليكون لها مدارس في جميع البلاد ، وبفضل هذه العناية صارت اللغة الفرنسية لغةً دولية ، وصار من حق الفرنسي أن يعفى نفسه من العناء في تعلم اللغات ، لأنه سيجد من يتفاهم معهم بلغته في أي بلد يتوجه إليه ، ولو في الصين !

اقترحتُ في سنة 1938 أن نُنشئ مدرسة مصرية تنافس المدرسة الفرنسية في طهران ، فلم أجد من يسمع كلامي ، وأين من يعرف أن في طهران جريدة إيرانية لغتُها الفرنسية ؟

فوجئت يومًا وأنا بدار المعلمين العالية في بغداد بمجموعات فخمة ضخمة من المؤلفات الفرنسية ، وحين سألت عن مصدرها عرفت أنها هدية مرسلة من باريس .

وقد استوحيت هذا الشاهد فاقترحت فيما بعد أن ترسل وزارة المعارف المصرية هدايا من الكتب المكدسة في المخازن إلى المدارس الأجنبية ، فترددت الوزارة عامين ، ثم تلطفتْ فأهدت مجموعات هزيلة ، مع أن في مخازنها مجلدات مهجورة ستباع يومًا بلا ميزان ، لأن حراستها وصيانتها تجشمان الوزارة ضروبًا من التكاليف .

كانت فرنسا تقوم بمبادلة الأساتذة والتلاميذ ، لتعطي وتأخذ ، ولتفيد وتستفيد ، وقد أقامت في إحدى ضواحي باريس مدينة تبني فيها أمة لأبنائها ما تشاء ، ولقد استفادت أممٌ كثيرة من هذه المزية إلا مصر ، ولهذا تفصيلٌ قد يتأذى الشمسي باشا من تسجيله في هذا الحديث .

ونحن اليوم في أوج صلاتنا مع الشرق ، فعند الشرق مدرسون مصريون يعدّون بالمئات ، ومع هذا لم تفكر مصر في ردّ الجميل .

ما الذي يمنع من أن تستقدم مصر بعض الأساتذة من الشرق فيدرسوا في معاهدها العالية بأساليبهم الخواصّ : فهذا في كلية الآداب ، وذاك في دار العلوم ، وذلك في كلية اللغة العربية ، إلى آخر ما يصلح له علماء الشرق ؟

ليس معنى هذا أن مصر في احتياج إلى مدرسين ، وكيف وفي خريجي المعاهد العالية شبان أكفاء لا يجدون ما أعدوا له من المناصب التعليمية ؟

إن لهذه المسألة وضعًا غير هذا الوضع ، والمراد هو أن تفكر مصر في إتاحة الفرصة لبعض أساتذة الشرق ، الفرصة التي تمكنهم من الوقوف على التيارات العلمية والأدبية في الديار المصرية ؛ فمصر اليوم في ازدهار علمي وأدبي لم تشهد مثله من قبل ، وهو ازدهار يوحي إلى الأساتذة أكثر مما يوحي إلى الطلاب ، وقد

يكون في وجود أولئك الأساتذة فرص لمنافسات علمية وأدبية تعود علينا بأجزل النفع ، وقد يكون في وجودهم خير للطلبة الذين حضروا إلينا من بلادهم ، فأنا ألاحظ أن أكثر الطلبة الشرقيين لا يجدون من يعاونهم على الاستفادة الصحيحة من الإقامة بهذه البلاد .

خطر بالي مرة أن أقترح على مشيخة الأزهر الشريف أن تنشئ كرسيًا للفقه الجعفري ، وكان هذا الخاطر لأني لحظت أن النضال بين المذاهب الفقهية قد انعدم في مصر أو كاد ، مع أن لمصر في التشريع الإسلامي تاريخًا من أمجد التواريخ .

إن مناصب «شيوخ المذاهب» صارت مناصب شكلية بسبب السلام الذي ساد بين المذاهب ، وهل نسمع اليوم خبرًا عن شيخ الشافعية أو شيخ المالكية ؟

إن النضال بين المذاهب أدى للتفكير الإسلامي خدمات تفوق الإحصاء ، وله فضلٌ عظيم في مرونة اللغة العربية ، وأكاد أجزم بأن الفقهاء خدموا اللغة أكثر مما خدمها الشعراء .

لو استقدمنا عالمًا شرقيًا لتدريس الفقه الجعفري بالأزهر لأثرنا النضال بين المذاهب من جديد ، وأعطينا مصر فرصة عظيمة ليقظة فكرية نادرة المثال .

إن مصر في عهدها الحاضر تنشئ تاريخًا جديدًا في الشرق ، وهي في طريق الوصول إلى عقد معاهدات ثقافية مع أكثر أمم الشرق ، وهذا يوجب عليها أن تعرف الشرق أكثر مما تعرف ، فيكون لها فيه سفراء روحيون ، ويكون عندها منه سفراء روحيون .

لو دعونا جماعة من أساتذة الشرق ليحدثونا عما في بلادهم من تقاليد وآراء وآداب لحمدوا لنا هذا الصنيع ، وعدوه تلطفًا يستحق الثناء .

ويظهر أنه لابد من إنشاء قلم بوزارة الخارجية لمراجعة ما يكتب عن مصر في جرائد الشرق ، وتكون مهمته المبادرة إلى تصحيح ما يستوجب التصحيح ،

وتكون مهمته أيضًا أن يستصدر أعدادًا خاصة من بعض جرائد الشرق للتعريف بمصر كالذي تصنع وزارة الخارجية في استصدار أعداد خاصة من بعض الجرائد الإنجليزية والأمريكية .

وهنا أشير إلى حادث ما ذكرته إلا شعرت بالحزن يعصر قلبي.

في سنة 1939 أصدرت مجلة «الحديث» ومجلة «العرفان» ومجلة «المكشوف» أعدادًا خاصة بمصر ، أعدادًا نفيسة جدًّا ، ومع هذا لم أستطع إقناع وزارة المعارف بأن تشتري من تلك الأعداد مجموعات لمكتبات المدارس ، ليعرف الذين فكروا في التنويه بمصر أن كرمهم لا يضيع .

وفي تلك الأيام كنت أقترح على الأستاذ الزيات أن تصدر الرسالة أعدادًا خاصة عن الأمم العربية فرحَّب بالاقتراح وأجَّل تنفيذه إلى انقضاء الصيف ، ثم بدا له بعد ذلك أن يواجه المشروع من جديد ، فصدته أزمة الورق عما يريد .

مالي ولهذا الكلام ؟

هذه ليلة الميلاد ، والأثير ينقل إلى سمعي بعض ما يثور في شوارع مصر الجديدة من عجيج وضجيج ، فكيف آثرتُ الاعتكاف في هذه الليلة ، وقد تفضل شهر ذي الحجة فجعلها قمراء ؟

لعلني أردت الخلوة إلى قلمي ، وهو الأنس الأنيس عند اعتكار الظلمات في دياجي الزمان .

لعلني أردت بهذه الخطرات القومية أن أتجنب الخلوة إلى قلبي ، وهو عدوٌّ صديق .

ومن نكدر الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا لهُ ما من صداقته بُدُّ

قضيت ما قضيت من حياتي في دراسة الجمال ، حيثما كان الجمال ، فأنا لا أضيف حرفًا إلى حرف إلا بميزان ، وأنا أصادق وأعادي بوحي الذوق لا بوحي النفع ، وما الموجب لأن أكون نفعيًّا وقد أغناني الله عن جميع الخلائق ، ولم أعرف

ما الظمأ والجوع في أي يوم ، ولا جاز في وهمي أن أتصور أن الله قد يتخلى عني ؟

لي صداقات كثيرة مع أرواح تنطق بالأوراق لا بالألفاظ ، وأقسم جهد اليمين أن بحديقة داري في سنتريس أشجارًا يعتريها الذبول إن صدفتُ عنها أسابيع .

لي صديق هو اليوم أحد مدرسي الفلسفة بكلية الآداب ، وهو الأستاذ محمود الخضيري ، وكان لي معه حديث في «ايسكوار مونج» في نوفمبر سنة 1930 ، فما ذلك الحديث ؟ (1)

كنت أجلس في بعض الضحوات «بذلك الإيسكوار» وهو حديقة الحيّ في الاصطلاح الفرنسي ، كنت أجلس تحت شجرة يؤنسها أن ترى رجلاً بيده كتاب ، وكان أصدقائي من بعثة الجامعة المصرية يعرفون كيف يلقونني هناك . وفي ذات يوم حضر الأستاذ محمود الخضيري فوجدني أجادل رجلاً يحاول تشذيب تلك الشجرة بعنف ،فأنكر عليّ ما أصنع ، فقلت إن الشجرة تصرخ ، ومن واجب من استظل بظلها أن يدفع عنها العدوان ، فقال : وهل يحس الشجر والنبات ؟ فقلت : نعم ، ويتألم الشجر والنبات كما يتألم الحيوان !

وبعد شهور حدَّثتنا جرائد باريس أن جلالة الملك فؤاد قد استقدم عالمًا هنديًّا اسمه «بوز» ليلقي في الجمعية الجغرافية محاضرات عن نظريته في إحساس النبات !

إحساسي بالوجود هو سبب عنائي ، ولو عرف الناس هذا العناء لقاتلوني عليه، فهو أطيب الأطايب في ثمرات الحياة .

لم أدخل بلدًا إلا أحببته أصدق الحب ، لأني أرى بضميري وجه الله في كل مكان . وما صادقت إنسانًا وغدرت به أبدًا، لأني أرى الصداقة من أظهر الدلائل على صحة القول بوحدة الوجود .

(1) في حي السيدة زينب درب صغير اسمه «حارة منجي» ومنجي الذي سميت باسمه تلك الحارة هو «Monge» أحد الأساتذة الذين قدموا مصر مع حملة بونابرت .

وأنا أترحم وأتحسّر وأتفجع كلما رأيت إنسانًا يكذب أو ينافق في سبيل العيش ، فالموت الذي يخافه الناس لن يصل يومًا عن طريق الجوع ، ولو نظر الناس في أسباب أمراضهم لوجدوها ترجع إلى الإفراط في الطعام والشراب ولو كانوا من الفقراء .

ثم ماذا ؟ ثم يبقى جواب الخطاب الوارد من «الأرمان» فماذا يريد ذلك الخطاب ؟

هو يريد أن تكون مقالاتي كلها على غِرار «دار الهوى في عيد القمر» فأين أنا مما يريد ؟ وأين الأعصاب التي تستطيع تدبيج تلك الأحاسيس في كل أسبوع ؟

أمام عينيَّ وبين يديّ أرواحٌ موقوذة هي المقالات التي سطرتها بدمي ، ولا أستطيع نشرها بأي حال ، لأنها تخالف المألوف من تقاليد الزمان .

ثم يحاسبني ذلك الخطاب على هفوات قلمي ، كأنه يجهل أني أمتشق القلم في كل مساء ، وأني أراود أبكار المعاني في يقظتي ومنامي .

***

أما بعد فهذه ليلة الميلاد ، وقد قضيتُها وحيدًا فريدًا لأتقي الله في نفسي فلا أعرضها لشواجر الأرواح وعواطف القلوب .

وقد بقيتْ ليلة ستأتي بعد ليال ، وهي ليلة العام الجديد ، وأغلب الظن أني سأحرّم نعيمها على نفسي ، لأني نذرت التبتل بعد فراق من تلقيت عنهم وحي الروح في اللحظة التي تفصِل بين العام الذاهب والعام الوليد .

ما جزعِي على ما مضى من أيامي ، ولم يعش أحد كما عشت ، ولا استجاب الوجود لنداء شاعر كما استجاب لندائي ؟

ماذا صنع الدهر بهم ؟ ماذا صنع ؟

إن دنياي بعدهم وهمٌ في وهم ، وخيالٌ في خيال ، ولن أتذوَّق طِيب الحياة إلا

بعد أن يصفحوا عني .

إن ذنبي عندهم أني صيرت حياتهم أفانين من الارتياع والانزعاج .. فهل يجهلون ما صنعوا بحياتي . وهل يجهلون أن الجروح قِصاص ؟

قد كان لي قبلكم حبٌّ وكنت فتىً ... لظل سلطانِه أهلُ الهوى تَبَعُ

فكيف أشقيتموني كيف لا رَضِيتْ ... ولا أرتني الليالي كيف أرتدعُ

هَبُوا فؤادي سلا واجتاز محنتهُ ... فمن بسلوة قلب الصب ينتفع

يا غاضبين تعالَوْا تشهدوا كبدًا ... رجاؤها في خيال البرء ، منقطِع

هوىً تهاوت أمانيه فليس لهُ ... فيما تجود به الأوهام مُنتفع

هوىً خلقتم وأفنيتم، ولا عجبٌ ... بعض الأحباء في قتل الهوى صَنَعُ

لا تحسبوا هجركم خطبًا يروّعني ... إني بوأد بنات الدهر مضطلعُ

هو عيد الميلاد (*)
ولكن أي ميلاد؟ !

كان من حظ المسيحية أن يبعُد مكانها في التاريخ ، لتكثر فرص الشعر والخيال حول ميلاد المسيح ، عليه السلام، حتى جاز لفريق من المؤرخين أن يرتابوا في شخصية المسيح، كما ارتابوا في شخصية سقراط (؟!)

والارتياب في وجود تلك الشخصية النبوية لا يضر ذلك النبي في كثير أو قليل، ولكنه يؤدي إلى غاية لم يفطن لها أولئك المرتابون ، وتلك الغاية هي التحقق من ظمأ الإنسانية إلى نور يُطلّ من علياء السماء .. نور جميل جذاب يبدد ما في الضمائر من ظلمات الجحود .

ولنفرض جدلاً أن الرأي ما رأى أولئك المؤرخون ، وأن الإنسانية هي التي ابتدعت ذلك الميلاد ، فكيف اختارت هذا الوقت من السنة وهو طليعة الشتاء ؟

إن الذي اشتغل بالفِلاحة يدرك أن الأرض في هذا الوقت تعتلج بقوة وعنف ، وتتهيأ لثمرات العام المقبل بلذة وشوق ، وهي في «الظاهر »غاية ، ولكنها في «الباطن» جذوة من اليقظة العارمة والإحساس الفوَّار .

في هذا الوقت تستيقظ الأشجار التي جردها الخريف من الأوراق ، ولو شرِّحت تلك الأشجار لظهرت عناصر «البُزور» وهي الأثداء التي يرضع من رحيقها الورق الجديد .

(*) الرسالة : 6 يناير 1941 .

في هذا الوقت تُلقى بذرة فتنجح وتلقَى بـذرة فتخيـب ، لأن الأرض في هـذا الوقت تحيا حياة عَصبية ، والحياة العصبية لا تعرف التـدليل ، فهـي لا تقبـل مـن البذور إلا ما يقوى على دفع عوادي البرد والجليد ، ولن يكون الأمـر كـذلك بعـد ثلاثة أسابيع من تاريخ المـيلاد، فحينئـذ تـرق الأرض وتلطُـف فتحضـن البـذور الضعيفة بترفق واستبقاء .

فهل فهمنا الآن كيف اختارت الإنسانية هـذا الوقـت لتـاريخ المـيلاد ، عـلى فرض أنه تاريخ مصنوع ، وعلى فرض أن البحث من حيث هو بحث يسمح بالنظر في الفروض ، بدون اعتداء على مقام المسيح ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات ؟!

أما بعد فقد كان لي مع هذا التاريخ تواريخ .

كنت أحمل باقات الأزهار وطرائف الهدايا إلى مـآلف القلـوب والأرواح يـوم كان لي قلبٌ وروح ، قبل أن تدور الدنيا من حولي بإفكها المرجف وبغيها الأثـيم ، وقبل أن أعرف أن شجرة الحب كشجرة الميلاد فيها أوراق صـناعية لا تحـس مـا يحيط بها من أضواء وألوان ، ولا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان .

وما أقسى الصحوة من غفوة العقل ! وما أشقى العقلاء !

لو كانت الدنيا أرادت ما أريد فأطالت في غوايتي لعرفتُها أكثـر ممـا عرفـتُ ، لأن المحـب المفتـون يتغلغـل إلى السـرائر ، وإن اتُهـم بالغفلـة والحمـق ، ولأن العاشق الجاهل قد يرى المحاسن قبل أن يرى العيوب ، والتثقيـف الصـحيح هـو الذي يروضك على النظر في المحاسن قبل النظر في العيوب ، لو قويـتْ جوارحنـا حق القوة لأنِسنا بجميع الوجوه وجميع الأشياء ، ولكننا مع الأسـف نتلقـى دروس الحياة عن المعلولين والضعفاء ، والتلميذ صورة الأستاذ في أكثر الأحايين .

كانت لي غاية من الهُتاف بالحب ، والهُيام بالجمال ، فما هي تلك الغاية ؟

كنت أرجو الطب للنفوس العليلة التي لا تستريح إلا إلى شكوى الزمان .

كنت أسمو إلى خلق البشاشة والأريحية في صدر هذا الجيل .

كنت أحارب النزعة الأثيمة التي تقتل الأرواح والقلوب باسم الوقار والعقل .

هل سمعتم بقصة الشيخ خليل ؟

هو رجل من علماء المالكية كان يفتخر بأنه لم يخرج من الأزهر مرة واحدة ليرى النيل ، ولهذا الشيخ أحفاد وأسباط في العقلية ، وأولئك الأحفاد والأسباط هم السُّوس الذي ينهش عظام الأخلاق – إن صحت هذه العبارة المجازية – فأخطرُ الآفات أن تَصدُر النصيحة عن رجلٍ خَمَدَ فعَقَل ، لأن الناس يَسِمِونه بالعقل ولا يَصِمونه بالخمود ، وكذلك يتلقونً عنه درس الموت وهم يتوهمون أنه يدعوهم إلى مزاحمة الأحياء .

إلى متى الصبر على هذا الفهم السقيم لمعنى الأخلاق ؟ ومتى ندرك أن الخُلق من صور الحركة ، وليس من صور الركود ؟

الخلق جارحةٌ من الجوارح ، وما سمِّيت الجوارح جوارح إلا لقدرتها على السيطرة والامتلاك ، فالعين التي لا تجرح ليست عينًا طبيعية ، وإنما هي عين صناعية ، إلى آخر القول في وظائف الأعضاء ، أو منافع الأعضاء ، كما كان يعبِّر الأقدمون .

ولكن من الذي يسمح بعد هذا الكلام دعوة إلى الخُلق الصحيح ؟

وكيف يعيش المتوقرون والمتزمتون إذا استمع الناس لمن يقول بأن الابتسام للحياة من شواهد «العافية الأخلاقية» ؟

إن الشرق مبتلى بالانحراف في فهم الأخلاق ، فهي عنده سلب لا إيجاب ، وهو يفكر فيما يترك قبل أن يفكر فيما يصنع ، والنواهي والزواجر هي عنده الهدف الأول حين يتسامى إلى الاتسام بكرائم الخلال .

فما أصل هذا الانحراف في فهم الأخلاق ؟

لعل هذا الانحراف يرجع إلى المعلمين ، وكان التعليم مهنة مقصورة على الرهبان وأمثال الرهبان ، فالخُلق في أذهانهم هو انحسار واحتجاز وانقباض ، ومن هنا يؤخذ المعلم بقيود لا يؤخذ بها غيره من طبقات المجتمع ، لأن الرهبانية مفروضة عليه وإن لم يخطر في باله أنه مشدود إلى حظيرة الرهبانية .

وهو يحمل أعباء ميراث ثقيل من التبعات والتكاليف ، ميراث يرجع إلى العهد السحيق يوم كان الناس يتوهمون أن كلمة الخير لا تجيء إلا من مصدر مجهول ، ويوم كان «سَدَنة الهياكل» ينتفعون بهذه الغفلة العقلية فيتحدثون من وراء حجاب باسم السماء ، وما تكلمت السماء ، وإنما تكلم ناس مبرقعون خُلقوا من الوحل لا من الطين ! وبفضل تلك العقلية أنكر قوم أن تكون النبوة من حظ رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وهي عقلية باقية إلى اليوم ، وإن زعم «ناس» أنهم سلموا من دائها الوبيل .

لقد كثر المؤلفون في الأخلاق ، فماذا صنعوا ؟ هل غيِّروا ما بنفس الأمة من الفهم المنحرف لمعنى الحياة ؟ هل راضوها على التخلق بأخلاق العصر ، ولكل عصر أخلاق ؟ هل استجابوا لدعوة العزة الروحية والعقلية فخلقوا الشوق إلى مسايرة ما في الآفاق العلمية من الصيال بين الأرواح ، والصراع بين العقول ؟

علم الأخلاق يُدرس منذ أعوام طوال في معاهدنا العالية ، فأين محصول تلك الدروس ؟

كل ما وقع هو التلخيص لمشكلات أحسها بعض الأخلاقيين في الغرب ، والأخلاق إحساس لا تلخيص ، وفي الشرق مشكلات غير تلك المشكلات ، لأن له أمراضًا غير تلك الأمراض، ومن أمراض الشرق أن تجوز فيه الأستاذية الأخلاقية لناس لم يتمرسوا بمعضلات الوجود .

تلك خواطر ساقها ما وقعتُ فيه ليلة عيد الميلاد ، فقد أخلفت موعدًا لا يخلفه الرجل إلا وهو مكروب ، وهو موعد يذكر بإخوة له من قبل ، يوم كنت مشبوب الصبوة في منادح باريس ، عليها أطيب التحية وأجزل الثناء !

وبماذا اعتذرت ؟ قلت إني أحبر مقالاً لإحدى المجلات ، وهل يصعب الاختراع على من يعايش أبناء هذا الزمان ؟!

ومضيت وحدي أجوب الظلمات بعد إخلاف ذلك الميعاد فراعني أن أجد في قلبي فراغًا عميقًا مخيفًا يذكر بالفراغ المنصوص عليه في بعض الأحاديث ، ففي الآثار أن الجاني قد يهوى في قاع جهنم سبعين خريفًا ، وكان قلبي كذلك ، فلو هويتُ في أعماقه سبعين سنة لما وصلت إلى قرار مكين ، وكيف وقد أعفيته من ثورة الوجد في ليلة عيد الميلاد ، فلم يُمس إلا وهو فضاء في فضاء ، وتلك حال القلب «الخالي» من الأهل ، والوجد أهل ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

ورجعت إلى داري بعد لحظات ، وكان في نيتي أن أطوِّف بأرجاء القاهرة إلى نصف الليل ، رجعت سليم القلب من الأسواء ولا يسلم القلب من الأسواء إلا وهو عليل ، فالقلب كالطفل ، لا يُقبل على اللعب إلا في أوقات العافية ، وإن جهل ذلك «علماء» الأخلاق .

وأردت أن أطب لقلبي فذكرته بما مرَّ في العام الماضي من مكاره وعقابيل ، ودعوته إلى النظر في قصة الصديق الذي كنت أشرب على ذكراه أكواب الصفاء . وذكرتُ قلبي بإحساني إليه حين جعلت له ماضيًا في الصداقة والحب ، فذلك الماضي هو الأحجار التي بنينا بها وجودنا الصحيح ، وجود القلب الخافق والروح العَطوف ، وهو الشاهد على أن حياتنا لم تخلُ من نوازع وأهواء ، وأن لنا تاريخًا في معاقرة الحقائق ومقارعة الأباطيل .

فهل وقع هذا المنطق من قلبي موقع القبول ؟

إنه لم يُنكر أنس الرجل بماضيه في الصداقة والحب ، وإن زلزلت الأرض زلزالها فغيرت جميع المعالم من ذلك التاريخ .

ولكنه أنكر الاكتفاء بثروة الماضي ، وإن امتلأ بنمير الذكريات العِذاب ، فما كانت الذكريات إلا ومضة البرق لعين الساري الحيران ، وهو ومضة تزيغ عينيه ولا تهديه ، وهي أيضًا تزيد حقده على ظلم الوجود .

وعمدت إلى القلم أثير به معركة أدبية ، فقد كنت أعرف أن قلبي يكتحل بغبار المعارك التي يثيرها قلمي ، فما نفع ذلك بشيء ، وصاح القلب : «هذه ليلة الميلاد ، فأين الميلاد ؟!»

أين الميلاد ؟ وكيف ؟

هل يجب أن أولد في هذه الليلة كما ولد المسيح ؟ وهل أولد في كل سنة مرة، وما ولد المسيح إلا مرة ؟!

فأجاب القلب في حزم عنيف : يجب أن تولد من جديد في كل لحظة ، لأن المُقام على حالٍ واحدٌ يُفسد مياه الأنهار ، فكيف تراه يصنع بأفكار الرجال !

-ولكن ليلة الميلاد قد ضاعت عليّ وعليك ، يا قلبي !

-إن ضاعت ليلة الميلاد فقد بقي يوم الميلاد .

وفي الصباح هتف الهاتف – وهو التليفون كما كان يسميه أهل لبنان – والهاتف روح لطيفة كانت بيني وبينها أشياء ، وقد قدِمتْ من بلدٍ لتراني يوم الميلاد فهتفتُ :

يا قلب يومي ويومك عيد !!

وخرجنا معًا ، أنا وقلبي ، لاستقبال تلك الروح ، وقد وُلد الهوى من جديد ، الهوى الذي ظلمناه باسم الوقار والعقل ، وطال الحديث وطاب حول ما كنا عليه، وما صرنا إليه ، ومن شرب من عيون تلك الظبية ما شربتُ لا يقول إنه رآها في يوم الميلاد وإنما يقول إنه رآها في أبد الخلود !

وعادت تلك الظبية إلى ضلالها القديم فأمرتني أن أكتب ما يجيش في صدري وأنا في حضرتها السامية ، وهو امتحان أؤديه كلما التقينا ، وحياتي كلها امتحانات ! فامتشقتُ القلم وكتبت :

«باسم الله الذي أقسم بالقلم وما يسطُرون أُسجل هذه الكلمات :

عُنِيتْ الحكومة المصرية كما عُنِيتْ سائر الحكومات بتدبير معاشات

الموظفين ، بحيث يجد الموظف ما يقتات به بعد بلوغ الستين ، ولكـن الحكومـة نسيت أو تناست أن في الأمة رجالاً لهم خدمات صوادق وليسوا مـوظفين فلـيس لهم معاش ، وهم الرجال الذين انقطعوا للصحافة والتأليف ، فالأستاذ فلان خـدم الصحافة نحو عشرين سنة ثم هدّه التعب ، فهو اليوم يعاني البطالـة والمـرض بـلا عائل ولا معين . . والأستاذ فلان أخرج طائفة من المؤلفات الجياد ، وكان يعـيش عيش الفقراء من تلك المؤلفات ، وهو اليوم لا يقـدر عـلى التـأليف ، فهـو في فقـر مـدقع ولا يسـأل عنـه أحـدٌ مـن أصـحابه القـدماء . وفـلان كانـت لـه سـابقة في الابتكارات الأدبية ، وهو اليوم مُعْوز لا يجد القوت الطفيف . وفلان قضى شـبابه وكهولته في التدريس بالمدارس الحرة ثم قصمه المرض فخـرج بـلا معـاش ولـه أطفال يصرخون من الجوع في كل صباح وفي كل مساء » .

وعند هذه الكلمة شرقتُ بدموعي ، وكاد صوتي يرتفع بالنحيـب ، فصـاحت الظبية :

-تبكي وأنا معك ؟ هل تقصُّ ما كان بيني وبينك؟ ويلي عليك وويلي منك!!

-نعم ، يا شقية ، هي قصة حبي، فدعيني أدوّن كل شيء ! ثم مضيت فكتبت:

«والدولة التي تنفق ما تنفق على مختلف الشؤون لا تـذكر أن في مصـر كتابًـا وشعراء وباحثين أعجزهم المرض عن السـعي في سـبيل القـوت ، ولهـؤلاء آثـار ظاهرة أو خفية في نهضة الأمة وقد يكون لهم تلاميذ – ولو بالفكر – من بـين كبـار الوزراء فما الذي يمنع من أن تفكر الدولة في حماية هؤلاء من قسوة الاحتياج » .

ثم سكتُّ ، فقال الروح : هل وصلتَ في مكايدتي إلى ما تريد ؟

فقلت : ستعلمين بعد لحظات ! ثم كتبت :

«قد يقال إن الدولة لا تستطيع معاونـة أهـل الأدب بصـفة رسـمية ، لأن الأدب ليس له رسوم ولا حدود ، وهو مباح الحُرُمات يدعيه من يشاءَ وأجيـب بـأن الدولـة تستطيع أن تجعل الفصـل في هـذه القضـية مـن اختصـاص مـدير الجامعـة أو وزيـر المعارف ومـن المفهـوم أن هـاتين الجهتـين لهمـا درايـة صـحيحة بأقـدار الأدبـاء

والباحثين ، وأنا أرضي بأن ترصد الدولة مئتي جنيه فقط في كل شهر لعشرين رجلاً من هؤلاء ، فإن استجابت الدولة لدعائي فقد رفع عن كاهلي عبئًا ثقيلا جدًا ، هو عبء التفكير في أديب كانت له جولات موفقة في ميدان البيان ، وإن كان من ألدّ خصومي » .

وغلبني الحزن فبكيت ، فقالت الروح : يظهر أنني دللتك أكثر مما يجب ، فعدت أسرع من الأطفال إلى البكاء !

فاستمهلتها لحظة وكتبت :

«والدولة التي تترك بعض الأدباء يموتون من الجوع هي الدولة التي تمنّ علينا بأنها أنشأت وزارة للشؤون الاجتماعية ! »

ثم !! ثم أحسست يدًا تصدني عما أكتب بقسوة وعنف ، فعرفت ، أني في حضرة تلك الروح ، وأن المقام لا يسمح بمثل هذا الكلام الحزين .

-ماذا قلت فيّ ؟

-قلتُ إنك غبية وحمقاء !

-أنت وحدك الغبيّ ، وأنت وحدك الأحمق !

-هذه كلمة حق لأني قضيت عشرين سنة في خدمة أمة لا تعرف أن القلم له حقوق .

-وما شأن القلم فيما بيني وبينك ؟

-القلم هو الذي يجرني أحيانًا إلى محاورة الحمقى لأدرس الغرائز والطباع !

- Ca suffit Ca suffit !

-ليكن ما تريدين ، أيتها الروح ، فإشارتك أمرٌ يطاع أما بعد ، وسيطول شقائي بأما بعد !

أما بعد فقد حدثني الشاعر حافظ إبراهيم مرات كثيرة أنه كان يتمنى الاتصال بقصر جلالة الملك ليكون سفيرًا بين القصر الرفيع والأدب الرفيع .

وقد مات حافظ قبل أن يظفر بتحقيق تلك الغاية ، ولم نسمع أن رجلاً فكَّر فيما فكَّر فيه حافظ ، ولم يصل إلينا من قُرب أو من بُعد أن ناسًا يسرَهم أن يكون للأدب حظ من الرعاية والتشريف بقصر المُلك ، مع أننا في عصر فاروق بن فؤاد بن إسماعيل .

لقد شقى قلمي في الدعوة إلى أن يكون للأدباء مكان في الحياة الرسمية ، لأنهم عنوان الحياة وزينة الوجود ، ولأن آثارهم هي الباقيات الصالحات فوق جبين التاريخ .

***

ثم انتهى الحُلم ، حُلم اليقظة في يوم الميلاد ، ورجعتْ تلك الروح إلى بلدها البعيد ، وبقيتُ حيث كنت أعاني بلاء الهجر وعناء الصدود .

أيها البلد الذي لا أسميه تخوفًا من الرقباء !

فيك أيها البلد الجميل روحٌ لطيفة يصلني برها من وقت إلى وقت ، فيك روح لا تحتفل بعيد الهِجرة ولا عيد الميلاد ، ولكنها تذكرني في عيد الهجرة وعيد الميلاد ، لأنها تشعر باحتياجي إلى البِر في مواسم الأرواح والقلوب .

أيتها الروح ، أنا مشتاق إلى مصدر الوحي ، فمتى تعودين ؟ أنا في دنياي غريب ، أيتها الروح ، وأنت البَلسم الشافي لوحشة الغريب .

هو عيد الميلاد ، ولكن أي ميلاد ؟ هو ميلاد الحب الصادق ، فتلك أول مرة مسحت فيها دموعي بأناملك اللطاف ، يا حجتي الباقية على أن الهوى إلهٌ معبود .

4500 ثانية
في صحبة أم كلثوم

لم تسمح الظروف بلقاء الآنسة أم كلثوم بعد الذي دوَّناه من لحظات التلاقي في كتاب «ليلى المريضة في العراق » وهي لحظاتٌ قِصار ولكنها كانت جيّاشة بأقباس المعاني ، ولو طالت تلك اللحظات لظفرنا من سِحر الحديث بأطايب وأفانين .

ولم يكن ذلك الحرمان عن هجر منها أو صدود ، فما يستطيع ذلك الروح أن ينسى أن له مآرب وجدانية من مسامرة أرباب الوجدان ، وإنما شاءت المقادير أن تصرفنا بالشواغل القاسية عن التأهب لمداعبة الأفاعي والصِّلال .

وما معنى ذلك ؟

معناه أني سأتحف أم كلثوم بصورة وصفية تبسم لها في حين وتَعْبس لها في أحايين ، مع العرفان بأني لم أقل غير الحق في وصف ذلك الروح اللطيف .

وهل لهذه الحمامة الموصلية رُوحٌ لطيف ؟

ما وزانتُ بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم إلا تذكرت قول شوقي في الصوت الحنَّان :

وتَّـرٌ في اللَّهـاة مـا للمغنِّـي ... مـن بـدٍ في صـفائه ولِيانِـهْ

فهذه الحمامة تغرِّد بلا وَعْى ولا إحساس في نظر من يحكم بظاهر ما يندْ عن

شفتيها الورديتين من أغانٍ وأحاديث فهل تكون في حقيقة الأمر كذلك ؟

إن كانت أم كلثوم بلا وَعْى ولا إحساس فعلى الأدب والفنّ العفاء . وكيف تُحْرم أم كلثوم قوة الروح وهي بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟

وأين من يزعم أن قلبه سَليم من الشوق لأغاني أم كلثوم ، وما مرَّت لحظة واحدة في المشرق أو في المغرب بدون زفرة أو لوحة تثيرها أغاني أم كلثوم ؟

تلك الفتاة هي الشاهدة على أن الله يزيد في الخلق ما يشاء ، فتبارك الله أحسن الخالقين !

ولكن كيف تحلّ هذه المشكلة : مشكلة الفرق بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم ؟

الحل سهل : لأن العقدة مشتركة بينها وبين محمد عبد الوهاب وإليه وإليها انتهى الإبداع في عالم الغناء .

عبد الوهاب رجل أعمال وأم كلثوم رجل أعمال ، وذلك سر العبقرية عند هذين الروحين ، وهو الدليل على أن الله لا يَهب المواهب لأهل التخاذل والانحلال ، والزهد فيجمع الثروة هو الآية الحق على التخاذل والانحلال ، وغضبةُ الله على من يحسبني أمزح في هذا الحديث !

دعتني أم كلثوم مرة لتناول العشاء في أحد مطاعم القاهرة فأجبت الدعوة ، ولكني رأيت أن أدفع عن نفسي فاستظرفتْني جدًا وصرَحت بأني لم أقل غير الحق حين قلت : « إني أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين » .

ولن أنسى أبدًا موقف القَصَبْجي الملحِّن وقد زعم أنه صائم مع أن العَشاء كان في جوف الليل ولم نكن في رمضان ولا شعبان ، ولكنه كان يعرف أن « حمامة الشرق» لا يسرها أن يكون القصبجي رجلاً له أمعاء تظمأ وتجوع كسائر الناس ، وكيف يكون فنانًا وهو يحس الظمأ والجوع ؟!

أشهد أن البخل حق ، وأنه من خصائص أهل العبقرية ، وإلا فكيف صحبتُ الدكتور طه حسين عشر سنين ولم أتناول الغداء في داره غير مرة واحدة لظروف قهرية قضتْ بأن نمضي النهار كله في درس شواهد الشعر المنحول سنة 1926 ؟

وكذلك يكون شقيق الروح محمد عبد الوهاب ، فهو أبخل من الجارم بمراحل طوال ، وهو إلى اليوم لا يدرك أن الدينار قد ينقسم إلى دراهم ، وأن الدرهم قد ينقسم إلى فلوس ، إنما الدينار دينار ، فإذا انقسم فهو هباء ، وإليكم هذا الخبر الطريف :

نشر الموسيقار محمد عبد الوهاب ، كلمات في مجلة الاثنين عن ذكرياته في زيارة العراق ، وقد قرأت تلك الذكريات وأنا في بغداد فحزنت لأني عرفت منها أن الأستاذ الصراف خدعه فزيَّن له الذهاب من دمشق إلى بغداد في سيارة عربية لا إنجليزية ، وكانت النتيجة أن يقضي ثلاثة أيام بلياليها في الطريق بين دمشق وبغداد، فصممت على تأنيب الأستاذ الصراف حين أراه ، ثم عظُمت الدهشة وعظم الاستغراب ، حين عرفت من الأستاذ الصراف أن الموسيقار عبد الوهاب هو الذي اختار تلك السيارة لأن أجرتها أرخص بمبلغ لا يقل بحال من الأحوال عن دينارين !

ماذا أريد أن أقول ؟

لعلي أريد القول بأن الاهتمام بجمع الثروة يدل على الشغف بحب الدنيا ، وحب الدنيا هو الأصل الأصيل لحيوات النوازع والغرائز والأحاسيس .

وحب الدنيا كان السرَّ في عبقرية أحمد شوقي أمير الشعراء فقد صحبتُه مرات كثيرة وهو يطوف على أملاكه بالقاهرة وضواحي القاهرة ، وشهدتُ كيف ينظر إلى كل بقعة من أملاكه وقلبُه يهتف : « كلٌّ مليحة بِمَذاق» ورحم الله شوقي ، فما مات إلا وهو حزينٌ على فراق أملاكه الواسعة بأرجاء هذه البلاد .

وحب الدنيا هو السرّ في عبقرية عبد الوهاب وأم كلثوم ، عبد الوهاب ساكن

العباسية وأم كلثوم ساكنة الزمالك وهل يستطيع مخلوق أن يقول إنه على شيء من الأدب أو الفن وجيوبُه خاوية ؟

آه ، ثم آه !!

كنتُ غنيًا وكانت لي أموالٌ مرصودة في مصارف مختلفات ثم شاء القَدَر أن أترفَّق بمرضاي من المِلاح فأنفق عليهم ما أملك ، فأنا اليوم فقير ، فقير ، بحيث ترفض أم كلثوم أن تكون «ليلى المريضة في الزمالك» بحجة أنها صحيحة لا بحجة أني لم أعد أملك البِرَّ بمرضاي من ذوات الخد الأسيل والطَّرف الغضيض !

وهجرتي إلى العراق هي سبب هذا البلاء ، فقد أعداني العراق بالكرم وراضني على البذل والجود ، فأنا اليوم بلا ذخيرة ولا عتاد .

ألم تسمعوا أني كنت أتمرد على رؤسائي بالجامعة المصرية وبوزارة المعارف، فكنت أملك الزهد في مناسب الحكومة في كل وقت ؟

فإن صح أني صبرت أخيرًا على خدمة الحكومة أربع سنين فاعلموا أن أخاكم مُكرهٌ لا بطل ، وأنه لم يتمرغ في تراب «الميري» إلا وهو في فاقة وإملاق .

وآه ثم آه من الصبر على خدمة الحكومة أربع سنين ! وهل خُلق الشعراء لهذا الاستعباد ؟ وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب ؟

ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذي أخضعه الفن للقوافي والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع وما قيمة الفلسفة إن لم نحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع ؟

وما حديث الـ 4500 ثانية في صحبة أم كلثوم ؟

كانت النفس حدثتني بوجوب السفر إلى الإسكندرية في أواخر أيلول لأرى كيف ينجزر الصيف عن الخريف في تلك الشواطيء الفِيح ، فرأيت على المحطة

فتّى من عُصبة الفن الجيل وهو يهتف : « أما ترى ثومة يا دكتور ؟ » .

والتفتُّ فرأيت إنسانةً نحيلة تكبح سحر عينيها بمنظارين سمراوين وهي تحاور المودَّعين حِوارًا تقع فيه ألفاظ غلاظ على غير ما يُنتظر من فتاة لها تلك المكانة بين البِيض الخَفرات من بُنيْات وادي النيل .

وأقبلتُ فسلَّمتُ تسليم الشوق بتهيُّب واحتراس ، لتفهم أني لا أريد نضالها في ميدان التنكيت ، ولكن الشقية تغابت وتجاهلتْ رغبتي في البعد عن هذا الميدان، ولم تكن إلا لحظة حتى اقتنعتُ بأن الزمالك تجاور بولاق !

ما الذي يحمل ثومة على خلع البُرقع وهي تحاور الرجال وفيهم من لا يتأدب وهو يحاور النساء !

لم يبق بين ثومة وبين الفَضيلة النسائية أية صلة فهي اليوم رجل أعمال ، وهي أبو كلثوم لا أم كلثوم !!

وقتُ ثومة لا يضيع في مراجعة الأدب القديم والأدب الحديث – كما تسمعون– وإنما يضيع وقت ثومة في تدبير المال لاقتناء النفائس من البيوت والبساتين .

وثومة ليست غبية ، فهي تعرف أن البيئات الفنية يكثُر فيها الوباء ، وأنه لا موجب لطاعة الفِطرة التي يتجلى فيها الحَنَان النَّسوي ، لئلا يكون من أثر ذلك أن تدور حولها الأقاويل والأراجيف في زمن الأقاويل والأراجيف .

ومن أجل هذا لا تُجيد أم كلثوم ممثلةً إلا في مواقف الانفراد ، فهي كتلةً من الثَّلج حين تحاور رجلاً في مواقفها التمثيلية ، وهي نارٌ تتأجَّج حين تخلو إلى نفسها في موقف من مواقف التذكر والاشتياق .

العُزلة هي الفرصة الوحيدة لانفجار العواطف في صدر أم كلثوم ، لأن هذه الإنسانة تتوهم أن المجتمع لا يُحسن غير التجريح والاغتياب ، فهي تلقاه بلسانٍ

حديد لا يجيد غير السخرية والاستهزاء ، فإذا اعتزلت الناس أو توهمتْ أنها اعتزلت الناس صارت أمَّ كلثوم الحقيقية بشفتيها الورديتين وثناياها اللؤلؤية وأنفها المسنون . ولو استبحتُ مغازلة هذه الشقية لقلتُ إن ابتسامها يصدُر عن وادٍ سحيق هو وادي الخلود !

وما أسعدَ من يظفر بابتسامة صفية من أم كلثوم ولو لحظة واحدة من عمر الزمان !

ها نحن أولا في محطة القاهرة ، وإني وإياها لمختلفان ، فهي ذاهبة إلى المنصورة وأنا ذاهب إلى الإسكندرية ، وسنفترق في طنطا كارهين أو طائعين .

وأترفق فأقول : ألا تحتاج الحمامة الموصلية إلى رجل يضايقها لحظات ؟

فتجيب : وأنت ؟ ألا تحتاج إلى من يضايقك ساعات ؟

ثم نأخذ في الحديث بعنف ولجاجة وصيال ، فهل كان بيني وبين هذه الروح ثأرٌ قديم ؟ وهل سمعتْ أني اغتبتها فقلت إنها ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ وهل نقل الوشاة أني زعمتُ أنها أطيب من العِطر وأرقّ من الزهر المطلول ؟

لا أعرف ما ذنبي عند أم كلثوم ، ولم أخرج على الأدب فأقول إنها خير ما أخرجتْ مصرُ من ثمرات ، وإنها ألطف روح سكن الزمالك وتخطَّر في شارع فؤاد ؟

ما هفوتُ في حق أم كلثوم إلا مرة واحدة حين قلت إن حنجرتها مسروقة من الحمائم الموصلية ، وكان الرأي أن أقول إن حمائم الموصل سرقت رخامة الصوت من الحنجرة الكلثومية .

ثم تشتط أم كلثوم في المزاح الغليظ ، ولكن مع مَنْ ؟

مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو سُدِل على سرائرها ألف حجاب !

هل تذكرون المصباح المغطَّى بالأوراق الزَّرق ؟

هو قلب أم كلثوم ، لو تعلمون !

وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق لأواجه ذلك القلب الوهاج فما هي تلك اللفظة السحرية ؟

قلت : إن حمامة الشرق تستر بمزاحها الغليظ قلبًا يحترق فالتفتت التفاتة رشيقة وهي تستزيد ، فقلت : وقد حدثتني ليلى أن الأفعى تغفو أوقاتا طويلة ثم تستيقظ حين تجد الفرصة لتخدير الفريسة بالسم الزعاف .

وبهذا الكلام تنبهت أم كلثوم من سُباتها المتكلَّف المصنوع ، وابتسمت ابتسامة لن أنساها ما حييت ، فقصصت عليها قصة ليلى حين قرأتْ في كتب التاريخ الطبيعي أن الحيات تثور وتهتاج حين ترى إنسانًا أخضر العينين ، فزعمت الشقية أنها لم تكن تعرف أني أخضر العينين ، فقلت : وما السرَّ في نفرتك منى أيتها الرقطاء ؟

وترفقت أم كلثوم وتلطفت بعد التأبي والتمنع ، وانطلقت تتحدث بلا تكبر ولا ازدهاء ، فمن قال إنه عرفها قبلي فهو كاذب ، لأني أول من نزع الأوراق الزَّرق عن ذلك القلب الوهاج ، وأنا أول من فرض على أم كلثوم أن تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق وإخلاص

من حق أم كلثوم أن تكون في دنياها رجل أعمال ، فنحن في عصر سخيف لا يقيم وزنًا لمواهب أهل الأدب والفن إذا فاتهم سناد الجاه والمال .

ولكن .. ولكن دنيا أم كلثوم صدّتها عن الانتفاع بأرباب المواهب ، فلو كان لأم كلثوم مستشار أمين لوصلت إلى الإعجاز في الغناء والتمثيل ، فلا عفا الله عمن من صدُّوا هذه الروح عن الاستئناس بأذواق أهل الآداب والفنون !

وهل أنسى بشاعة الاستئثار بتصوير عصر الرشيد ؟

كان يمكن أن يكون فِلم « دنانير» أعجوبة الأفلام التاريخية لو كانت أم كلثوم تعرف أن في مصر رجالاً أدقَّ ذوقًا وإحساسًا من فلان وفلان ، وأن الانتفاع بآراء

هؤلاء الرجال قد يعود عليها بالخير الجزيل ، ولكن أم كلثوم امرأة وإن كانت رجل أعمال ، والمرأة لا تفلح حين تتوهم أنها أعقل من الرجال .

فلم دنانير جميل جميل ، ولكن تعوذه قوة الروح ، ولأم كلثوم أن تغضب كيف تشاء ، ولفلان أن يقتل نفسه من الغيظ ، فقد أخلف الظن به كل الإخلاف .

إن هذا القلم يلخص رأينا في أم كلثوم : فهي لا تجيد إلا عند العزلة والانفراد .

أين من يجعل أم كلثوم من أزهار المجتمع ؟

أين من يحوَّل هذه الفتاة إلى روح لطيف يشيع في المجتمع معاني الأنس والانشراح !

إن كانت هذه الفتاة تحب أن تكون «ابن بلد» فقد ظفرتْ بما تريد ، أما إن كانت تحب أن تكون أعظم من أم كلثوم فلذلك حديث غير هذا الحديث .

***

ثم وصل القطار إلى طنطا فانتقلتْ إلى قطار المنصورة وبقيتُ أتشوف إلى الإسكندرية ، وذلك آخر العهد بتلك الروح ، فإن رضيت عن هذا المقال ، فقد نلتقي في مصر الجديدة أو في الزمالك وإلا ....

دار الهوى (*)
في عيد القمر

أخي الأستاذ الزيات :

هل تذكُر أني وجهت إليك مقالاً من بغداد عن «القلب الغريب في ليلة عيـد » منذ نحو أربع سنين ؟ وهل تذكر أني تشوقت إلى دار تحب العيد وتحن إليها لأنهـا تراني مع العيد ؟

ذلك مقالٌ فبستُه من نار قلبي ، وأخذت مداده من دمـي ، وأرسـلتُه تحيـة إلى دارٍ عَظُمت ديونُها على قلمي .

وإنما وجَّهت إليك ذلك المقال لأثير في روحك التشوُّف إلى تعليل مـا تعـاني الأرواح من متاعب ليس لها في الظاهر سناد من مطالب المجد في هذا الوجود .

فهل فكرتُ في تعليل هذا المعنى ؟

وهل حاولتَ الدفاع عن الأعمار التي تضيع في تشريح نوازع الوجدان ؟

أنـا أطالبـك بـالرجوع إلى الوجـدانيات ، بجانـب مـا أقبلـت عليـه مـن الاجتماعيات ، فقد كاد الأدب يخلو من الحديث عن أوطـار الأرواح والقلـوب . ولا قيمة للأدب إن أغفل الحديث عن أوطار الأرواح والقلوب .

وإليك القصة الآتية :

(*) الرسالة : 22 ديسمبر 1942 .

في حفلة من حفلات إحدى الطوائف المسيحية تسابقَ الحاضرون لتقبيل يـد البطريرك ، فرأيته ينهض بقوة ليعانق من يسارعون إلى التسليم عليه ، مـع أنـه فيمـا سمعت قـد جـاوز التسـعين وعندئـذ غلبنـي الفكـر الفلسـفي فقلـت لجـاري في المحفل: إن راحة رجال الدين من هموم الحيـاة تمـنحهم طـول الصـحة والعافيـة فقال جاري بتحمس : كيف ترى ذلك وغبطة البطريرك يحمل هموم الطائفة كلهـا، ويعنِّي نفسه بالدقائق الخفية لجميع البيوت ؟

فقلت : المتاعب الفردية أعنف من المتاعب العمومية ، فالرجل الذي يحمل هموم بيت يُعدُّ أهله بالآحاد أشقى من الرجل الذي يحمل هموم طائفةُ يعدّ أبناؤهـا بـالألوف أو الملايـين . وهـل يحـزن وزيـر المعـارف لسـوء نتـائج الامتحانـات العمومية بقدرما يحزن لو رسب ابنه في الامتحان ؟

إحساسنا الصادق يصدُر عن متاعبنا الذاتية أولاً وقبل كل شـيء ، ثـم يتفـرَّع فيتصل بالمجتمع القريب أو البعيد ، وهل بكى النبي محمـد لوفـاة أي طفـل كمـا بكى لوفاة ابنه إبراهيم ؟

وإذن يكون من حقي أن أقول إن الأدب الذي يصـوِّر الـذاتيات هـو أصـدق الآداب ، وهو الآية الباقية على الصدق الأصيل ، فمن الجناية على الأدب أن نشغل أقلامنا بهموم خارجية قبل أن نستوفى التعبير عن همومنا الداخلية .

للمجتمع حقوق على القلم البليغ ، يوم يتأثر الكاتب بتلـك الحقـوق ، ويـوم يرى أنه عن تأييدها مسئول أمام الضمير الأدبي لا أمام الناس .

وأنت ذلك الكاتب ، يا صديقي ، فاتجاهاتك الاجتماعية تشهد بأنك تحس آلام المجتمع أصدق إحساس ، وسيكون لك في هذا الميدان مكان يحفظه التاريخ.

وأنا أرتضى لنفسي ما أرتضى لك ، لولا تلك الدار التي أَسَـرتْ قلبـي عـددًا من السنين ، ولم أستطع التحرر من أسرها بأي جهاد .

إن تاب الله عليّ من الهيام بتلك الدار فسـأجاريك في ميـدانك ، وسـيطول بينـي وبينك السجال ، ولكني أرى الله أكرم من أن يجود بذلك المتاب ، لأن نعمته عـلىّ في

هذه الضلالة أعظم من نعمته بالهداية على من يغضّون أبصارهم عن سحر الجمال .

وهل كان من العبث أن يتفضل الله فينوَّع الخلائق بهذا الوجود .

إنه نوَّع الخلائق لينوِّع العواطف .

هل تذكر ما تصنع النسائم بالسحاب والرمال ؟

رأيت بالأمس عجبًا من العَجب : رأيت سُحبًا مطرزة بسماء «مصر الجديدة» على أظرف ما يكون التطريز . وبدا لي أن اجوب الصحراء في ذلك الوقت فرأيت النسائم صنعت بالرمال ذلك الصنيع .

أيعجز قلم الكاتب الصوَّال عما يقدر عليه النسيم الجوَّال ؟

النسيم يَعَبث ، وما وُصف النسيم بغير العَبث ، ثم تكون له القدرة على هذا الافتنان ، فكيف نعجز في الجد عما استطاعه النسيم في الهزل ؟

الدار التي أهوى تُضلني وتغل عقلي بأوثق الأغلال.

الدار التي أهوى تصنع بقلبي فوق ما تصنع النسائم العوابث بالسحائب والرمال .

الدار التي أهوى حُرمت أضواء المصابيح أكثر من شهرين ، إلى مَعَاد ، أو إلى غير مَعاد ، فما أدري ما تُضمر الأقدار لمصاير ذلك الهوى النبيل ، ولا أعرف متى نلتقي طائعين أوكارهين :

كلَّ يومٍ لنا عتابٌ جديدٌ ينقضي دهرنا ونحن غِضابُ

إن تلاقينا – ومتى التلاقي – فستكون لنا شئون وشجون إن عادت الدار إلى العهد الذي أعرف فسأكون من الحُجاج في العام المقبل ، وسأنفق جميع أموالي على الفقراء والمساكين .

ثم ماذا ؟

ثم أقص على الأستاذ الزيات هذا الحديث :

في صباح اليوم وأنا في طريقي إلى الواجب قرأت في إحدى الجرائد أن المحكمة الشرعية أعلنت أن شهر ذي الحجة يبتدئ بيوم الأربعاء ، فعرفت أنني حُرمت رؤية الهلال ثلاث ليال .

ثم خف حزني حين تذكرت أن القمر غاب عن تلك الدار أكثر من شهرين .

ما هذه اللجاجة في الحب ؟

وما الطمع في كرم الزمان البخيل ؟

ارجعوا إلى الدار ، دار الهوى ، قبل أن تسمعوا من نذير الأقدار ما لا تحبون .

ارجعوا إلى دار الهوى في عيد القمر غير مأمورين .

ارجعوا ، فللدار التي شهدتْ مولد هوانا حقوق

ارجعوا ، فالفضيحة في غرامي تكريم وتشريف ، لأني قيثارة الغرام في ألحان الخلود .

عيد القمر آتٍ بعد ليال ، فهل أراكم في غرة تلك الليال ؟

القمر يفِي ، فهل تَفُون ؟

القمر يساير الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف ، فهل تسايرون أحوالي من نزق وطيش وقرار وجمود ؟

أنا أنا ، فهل أنتم أنتم ؟

لقد صبرتُ وصابرتُ لتشهد أحجار تلك الدار أن لها بقايا من الوفاء التي تدّخره كرام القلوب .

سينطق الحجر قبل أن تنطقوا ، ولقد نطق فحيًّا ألوف المرات وأنتم في غيابة العقوق .

وماذا تنتظر مني تلك الأحجار ؟

إنها ترجو مني ما أرجو منكم ، ترجو سلامًا من عابر سبيل ، وأنتم هددتم

وتوعدتم بأنْ لا لقاء في غير الفضاء .

عودوا إلى الدار في عيد القمر ، وهو آت بعد ليال .

عــودوا إليَّ فمــا قلبــي بمصــطبر ... عــلى نــواكم ولا العمــر متســعُ
إن مــتُّ قبــل لقــاكم أو فقــدتكمُ ... قبل الممـات فحظـي عـاثرٌ ظَلـعُ

أنا في انتظار القمر بعيد القمر ، فهل يعود مع العيد ؟

وهل أشهد كلَف جبينه وهو غضبان ؟

عودوا إلى الدار لا إليَّ ، فقد كادت أحجارها تذوب من نار الاشتياق .

يــا غاضــبين علينــا كيــف حــالكمُ ... وكيــف دارٌ بهــا للــروح مرتَبَــعُ
دارٌ جَلَوْنــا بهــا حينًــا ســرائرنا ... كــأن أيامهــا في صَــفْوها جُمَــعُ
لم يُغــدق الله فضــلاً فــاق نعمتــهُ ... بوصل روحي بكم والشمل مجتمـعُ

أما بعد، فما رأيُ صديقي الزيات في هذا الحديث ؟

وهل يراني في ضلال وأنا أناجيه بما لا يريد بعد أن هجر صديقه «لا مرتين» .

حال العين حال القلب ، وللعيون والقلوب أحوال

وقد أشار طبيبي بنظارة تمنع التشرد من أضـواء عينـي ، فمتـى يشـير طبيبـي بنظارة تمنع التشرد من أضواء قلبي ؟

لن يكون لقلبي حدود . لن تكون تلك الحدود ولن تكون ، وسيعجز الطـب عن جمع الأشعة من أنوار القلوب .

متى نلتقي يا دار هواي ؟ متى ؟

عيدُ القمر آتٍ بعد ليال ، فهل نتقاتل بعد ليال ؟

اتقوا الله في أخيكم !

ذهب الأستاذ الزيات لزيارة صديقه (عين) فوجده مضى لقضاء أيام العيد بين أهله في المنوفية ، ثم نظر في غرفة الاستقبال فرأى «منظار » الصديق فوق إحدى المناضد ، فوضعه على عينيه ليعرف إلى أي حد تبدو الخفايا لمن يحمل ذلك المنظار العجيب ، ثم هام في شوارع القاهرة يتوسم وجوه الناس فرأى فيهم غرائب وعجائب يشيب من هولها الوليد ، فتفزَّع وقال وهو يحاور ذلك الصديق :

«أتريد أن أردّ إليك منظارك، أم تسمح لي أن أجرّبه على عين الدكتور مبارك»؟

وما أحب أن أعود إلى تشريح مقال الأستاذ الزيات ، لأنه مقال محزن ، وأنا أخاف على نفسي وعلى القراء من النظر فيه من جديد .

ولكن لا بأس من النظر في التجربة التي يقترحها أخونا الزيات ، وهو يريد أن أرى العالم مرة من وراء ذلك المنظار الذي نقل فهمه للدنيا والناس من حال إلى أحوال

وأسارع فأقول : إن ما رأيته بالعين الطبيعية فيه الكفاية وفوق الكفاية ، فمن الرفق برجل في مثل حالي أن تُعفى عيناه من النظر إلى الناس بمنظار يفضح ما خفي واستتر من دقائق المساوئ والعيوب .

الزيات هو الذي يحتاج إلى منظار يرى به خلائق الناس لأنه كثير التلطف والترفق ،ومن كان كذلك فهو قليل التعرض لآفات الناس ،ومن هنا يقلْ علمه بما فيهم من دميم الغرائز وذميم الخصال .

أما أنا ، فقد دخلت على الناس في جحورهم وأوكارهم ، ومـا زلـت أهـيجهم بقلمي حتى أسمعوني أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعـواء، وهـل ابـتُلى أحـد بأهل زمانه كما ابتُليت ؟وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت ؟

وهل بين قراء اللغة العربية في مصر والشرق من يجهل بليتي بزماني ؟

لقد شكوتُ دهري وشكوتُ ثـم شـكوتُ ، حتـى عطـف عـليّ أعـدائي فمـا حاجتي إلى منظار أرى به المستور من خلائق الناس ،وقـد اكتـوتْ يـدي واكتـوى قلبي بالسعير الذي يتمرد كلما سمع باسمي أو رآني .

ويزيد في الغم والكرب عرفاني بأني لم أكن رجلاً لئيمًا حتى أقاسي من النـاس ما قاسيت ، وهل رأى الناس في القديم والحـديث صـديقًا في مثـل أدبـي وكرمـي وسخائي ؟ومن هو الرجل الذي يجرؤ عـلى القـول بأنـه أعـرف منـي بالواجـب ، وأحفظ للعهد وأحرص على مقابلة الجميل بالجميل .

وهل كان الذين ينوشونني بألسنتهم وأقلامهم إلاّ خلْقًا بنيتُ أقدارهم بقلمـي ولساني ؟

دلوني على صديق واحد أسأت إليه في محضر أو مغيب !

لو كنت رجلاً لئيمًا لنسفت أعدائي وخصومي في يوم أو يومين ثم اسـترحت من التفجع على مصاير الناس إلى مهاوي البغى والعقوق ، ولكني رجل كريم يكره الغدر ويستعيذ بالله من العدوان على الناس ، وذلك بابٌ من الضعف الشريف وأنا به مزهوٌ مختال .

وما الذي ينكر عليّ أهل زماني حتـى يصـدوني بغـدرهم عـن الثقـة بأبنـاء آدم وحواء ؟

أنا أعرف ما ينكرون عليّ ، فقد سـاءهم أن أسـجل مـا في زمـاني مـن صـغائر ومعايب وموبقات . ساءهم أن أفصح سرائر الأدعياء ، وأن أقهرهم على الاستهانة

بالأدب المزّيف لتُقبل عقولهم وأذواقهم على الأدب الصحيح .

وهل أخطأت حتى ألقي من بغيهم ما لقيت ؟

إن أعدائي يقولون في كل وقت إن وقت إن مصر هادية الشرق ،فكيف يُلام من يوجِّه المصريين إلى أصول الصدق والعدل لتصح لهم السيطرة الأدبية على الشرق ؟

وهل يعرفون ذنبًا غير هذا الذنب الجميل ؟

إن كان في هذا البلد من يؤمن بأنه ضحّى في سبيل الأدب بأعظم مما ضحيت فليتقدم ليحمل بعض ما أحمل من ثقال الأعباء .

ذلك رأيي في نفسي ، وهو حق ، فليكذبني من يجرؤ على مصاولتي من أهل الأدب والبيان.

وما قيمة مصر في الشرق أو الغرب إذ صح لأهلها أن يقهروا رجلاً مثلي على اليأس من العدل؟

وبأي حق يدعوني الناس إلى التلطف والترفق وأنا لم أر منهم غير الظلم المُبين؟

وفي أية شريعة يفرض على الرجل المظلوم في وطنه أن يعلن أنه من السعداء ؟

ومن الذي يراجع الظالمين إذا سكت قلم الأديب ؟

حدثوني كيف يسكت من يرى أصدقاءه يأكلون لحمه بلا تهيب ولا إشفاق ؟

حدثوني كيف يُحرّم الغضب على رجل يرى تخلّف العقل في بلد يستطيل أهله على الشرق باسم العقل ؟

نحن في مصر التي سبقت جميع الشعوب إلى المدنية ،فمن حقنا عليها أن نرجو حرية التعبير عما نعاني من معاطب وحتوف

ومن يسمع شكوانا إذا تجاهلت مصر أننا بفضل جبروتها أشقياء ؟!

إلى من نتوجه إذا تعامى الوطن الغالي عن مآسينا الدامية ؟

آه ! ثم آه!!

في وطن الأزهار والرياحين تموت أفئدة وقلوب

وفي الوطن الذي شرع مذاهب العدل بوحي النيل الذي لا يخلف الميعاد تموت أرواح حساسة واعية معدوًّا عليها بسهام الظلم البغيض .

في وطن النيل الذي لا يخلف الميعاد تضيع جميع المواعيد

احذروا ، ثم احذروا من أن أراكم بعين الناقد ،يا أبناء هذه البلاد

لقد نظرت إليكم بعين المحب فلم أر غير مآثم ومنكرات ،فكيف تكونون لو نظرت إليكم بعين الناقد المنصف ؟كيف تكونون وأنتم حرب على الصديق الأمين ؟

ويريد الزيات أن أراكم من وراء المنظار الذي كشف له من الطبائع ما لم يكن يعرف ، فهل يظن بي السفة والحمق حتى أتعرض للمستور من عيوبكم ومساويكم!

أنتم أجمل الخلق في أعين من يرونكم من بُعد ؛ولكنكم « أجمل» الخلق في أعين من يرونكم من قرب ، وأنا منكم قريب ، فما أعظم شقائي !

اسمعوا يا بني آدم من أهل هذه البلاد .

أنتم وثقتم بأدبي ،وليس فيكم من يخاف أن أضيع عليه حظًّا غنمه بأي سبب من الأسباب ، وبفضل هذه الثقة تجترحون ما تجترحون ،فخوضوا كيف شئتم في أوشال الأكاذيب والأراجيف ، فلن أجازيكم بغير الصفح والغفران .

هات المنظار ،يا زيات ، هات

هات المنظار لأرى به عيوبي ، وأنسى التفكير فيما عانيت من أصدقائي ، ويرحم الله عهدًا كان لي فيه أصدقاء!

حملت المنظار لأرى عيوبي ، فماذا رأيت ؟

رأيتني أخطأت أعظم الخطأ حين توهمت أن بني آدم هم جميعًا من طراز ذلك الصديق الغادر الذي صعُب عليه أن أعيش وكان يحب أن أموت !

وهل هناك جُرم أقبح من الجرم الذي اقترفت ؟

مضت أعوام وأعوام وأنا أتلقى في كل يوم رسائل من قلوب تُقسم بأنها قادرة على الطب لجروح قلبي ، فهل استمعت نداء تلك القلوب ؟

أنا أتلقى في كل يوم رسائل من فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والعراق وتونس والجزائر ومراكش، فهل فكرت في الإجابة عن تلك الرسائل الودية؟

وكيف وأنا أتجاهل ما يصل إليَّ من أصوات القلوب في مصر والسودان؟

وكان ذلك لأني يئستُ من بني آدم بفضل الأصدقاء الذين سقيتهم الشهد فسقوني الصاب !

فما الذي يمنع من الاستجابة لدعاء تلك القلوب ؟

ما الذي يمنع وأنا أعيش محرومًا من نعيم الصداقة والحب؟.

وهل يرفض من يعيش في مسبعة أن يخرج إلى الحواضر المأهولة بأرواح الناس؟

يمنع من ذلك أن أطياف الغادرين تصدمني حيثما توجهت ،فالدنيا كلها هي وجوه الذئاب التي شقيتُ في تربيتها لتقوى على مضغ لحمي وعرق عظامي .

الدنيا كلها هي فلان وفلان الذين خلدت أسماءهم في مقالاتي ومؤلفاتي ليصح لهم البغي عليّ باسم الأدب والدين .

هات المنظار ، يا زيات ، هات

حملت المنظار لأرى عيوبي ، وما أكثر عيوبي !

رباه ، رباه !!

ما هذا الذي أرى ؟

ذلك صديق أهجم عليه هجومًا صوريًا لأرفع اسمه بين الأسـماء فيـراني مـن الأعداء.

وذلك رفيق أدله على الخير فيراني من الآثمين

وذلك صاحب تشغلني الشواغل عن زيارته فيراني من الغادرين .

وذلك أخ عزيز لا تهمه غير الظواهر ويغفل قلبه عن الخـدمات التـي أؤديهـا إليه في المغيب فيراني من الجاحدين

فلأية حكمة خلق الله بعض الناس بلا بصائر ولا قلوب ؟

أيكون الله أراد أن يمتحنا بخلقه حتى نـؤمن صـادقين بأنـه صـاحب الفضـل الأول والأخير في الطب لجراحنا الدامية ؟

إن كان ذلك ما يريد فقد رضينا بما يريد .

ولكن الله يعلم أننا أصغر من أن نـأنس بنجـواه . ولابـد لنـا مـن مخلوقـات نساقيها كؤوس الود حين نشاء ، ونرى فيها صور أحلامنـا وأوهامنـا حـين نريـد ، فمتى يمنّ الله علينا بأطياف تلك المخلوقات ؟

كم تمنيت أن أراك في خلقك ، يا فاطر الأرض والسـموات . ولـو اسـتطعت لشغلت نفسي بك عن خلقك ، وكيف أستطيع وأنا لا أملـك السـمو إليـك ، أيهـا الروح المسيطر على جميع الوجود ؟

أنا أعترف بذنوبي

لي أصدقاء ضيعتهم ، وكنت من الظالمين .

منهم ذلك الروح الذي شـقى في أن يُنطـق لسـاني بـالاعتراف بأنـه صـديق ، والذي يكتب إليّ ما يكتب ثم لا يظفر بجواب

وكان في يدي أن أملك ذلك الروح ملكًا أبديًا وأن أصوغ مـن نجـواه رسـائل وقصائد أسيطر بها على الخلود .

توسل إليَّ ذلك الروح أن أحفظ عهد الوفاء ، وأن أعلن أني له صديق ليحدِّث أهله بأنه موصول الأواصر برجل له قلب .

ومن أجل هذا الروح الذي أخلفتُ آماله كل الإخلاف تحكـم المقـادير بـأن أعيش في دنياي بلا صديق .

فيا أيها الروح الذي يحدِّث أهله بأني لا أنساه ولن أنساه ، أيهـا الـروح الـذي يدعوني فلا أجيب ، إعرف ثم إعرف أن الله انتقم لك مني ، فأنا اليوم بـلا صـاحب ولا رفيق

هات المنظار ، يا زيات ، هات

هات المنظار لأرى عيوبي ، وما أكثر عيوبي !

هات المنظار لأرى الأسرة المكونة من أربعة أرواح ، الأسـرة التـي ودعتنـي بالدمع المحرق يوم الفراق .

فإن سمعتم ، يا قرائي ، أنني سأقضي بقية العمر في كرب وبـلاء ، فـاعرفوا أن ذلك جزاء الغدر لمن يتناسى فضل تلك الأرواح

غرتني منزلتي الأدبية فتجاهلت أقدار تلك الأكباد الرقـاق ، فمتـى أرجـع إلى مساهرة النجوم في صحبة الأكباد الرقاق ؟

فإن قتلني اليأس من عدل الأهل والأصدقاء فقد كنت الظالم الأثيم .

والله أرحم من أن يعاقب قلبًا يعترف بذنوبه وخطاياه .

أنا باقٍ على العهد يا أحبابي ، ويرحم الله من قال :

لقــد صَــدَدنا كمــا صــددتم　　فهــل نــدمتم كمــا نــدمنا

ليلة نابغية !

أخي الأستاذ الزيات :

في نيتي أن أريح قراء «الرسالة» من شطحات قلمي شهرًا أو شهرين لأفرُغ لواجبات أدبية لا يصح معها الانشغال بمواجهة القراء من أسبوع إلى أسبوع ، وهي واجبات كواجبات الفراء [1]

وقبل أن أشرع في تناسي الشوق إلى قرائي ، وهو تناس موجع ، أصوّر لك ولهم ما وقع بيني وبين الأستاذ لطفي جمعة ليلة المناظرة بكلية الآداب ، وكانت مناظرة عنيفة لا يزال صداها يقرع سمعي فيبدّد ما أشتهيه من الأنس بالهدوء والصفاء .

وما ذكرتُ تلك المناظرة إلا جزعتُ ، وتولاني الندم على الاشتراك في جدال بضيق به صدر الغالب والمغلوب ، لأنه لم يمض بلا هفوات مزعجات .

ولهذه المناظرة تاريخ :

سألني فريق من أعضاء اتحاد كلية الآداب أن أشترك في مناظرات هذا الموسم وعرضوا عليَّ طوائف من الموضوعات لم يرقني منها غير موضوع :

«يزدهر الأدب في عصور الفوضى الأخلاقية »

(1) إشارة إلى قول الفراء: «سأموت وفي نفسي شيء من حتى » ويريد الكاتب أن يقول إن للباحثين شواغل قد يراها الجمهور من التوافه مع أنها في الواقع من الأمور ذوات البال عند من يعرف .

ولكني اقترحت أن يُعدَّل فتوضع «الفوضى الاجتماعية» مكان «الفوضى الأخلاقية» فرارًا من التجني على كلية الآداب باسم الغيرة على الأخلاق !

ومضت أيام وأسابيع ، والاتحاد مشغول بالبحث عمن يناظرني من أساتذة كلية الآداب ، ثم علمت أن الأساتذة لم يَرقُهم أن يناظروا «المشاغب الأكبر» على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل باشا وهل من العقل أن يتقدم أحد الأساتذة لمناظرتي وقد شاع وذاع أني أكبر المشاغبين ؟!

هي تهمةٌ ظالمة ، كما تعرف ، ولكنها حقَّت عليَّ وسأقضي بقية العمر في الدفاع عن نفسي ، ولكن بلا نفع ولا عَناء ، لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رأيهم في رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان !

وأخيرًا ، ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرني ، ولكن ، أي رجل ؟ كاتب مشهور كانت لي معه وقائع في بعض الجرائد والمجلات ؟ فقلت في نفسي : هي مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفي جمعة فقد هداه القلب الطيب إلى أنني رجل ينهاه الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار الزملاء .

واتصلت به تليفونيًّا لأقول له : إني أريد أن تكون هذه المناظرة مثالاً في التلطف والترفق ، وإني سأبدأ خطبتي بكلمة في الثناء عليه ، وإني أنتظر أن يقابل الجميل بالجميل !

وكنت صادقًا فيما قلت ، لولا خاطرٌ واحد كدَّر صدقي بعض التكدير ، وهو الحرص على أن يبقى هذا المُناظر فلا يطير من يدي ، كما طار ما كنت أرجو مناظرتهم من أساتذة الكلية .

صفح الله عنهم وعفا عنهم !!

كان الأستاذ لطفي جمعة مترددًا في القبول ، ثم قبل بعد تمنُّع ؛ والحرُّ قد ينخدع في بعض الأحايين !

وفي تلك الأثناء نقلت الإذاعة اللاسلكية مناظرة قامت بين الدكتور طه

والدكتور هيكل في كلية العلوم ، مناظرة مرتجلة قام بها الرجلان بـدون اسـتعداد ، فقلت : يجب أن أستعدّ لتكون مناظرة كلية الآداب أقوى من مناظرة كلية العلوم ، ولأعطي الدكتور طه والدكتور هيكل درسًا في وجوب الاحتفال بمقامات الكلام ، لأحمي نفسي من شر المرجفين ، وأنا أدافع عن رأي شائك لا ينظر إليـه المجتمـع بغير الاستخفاف .

ورجعت إلى مذكرات كنت أعددتها يـومَ عُـرِض علـيَّ الموضـوع أول مـرة ، ولكني لم أجد تلك المذكرات ، فأقبلت على الموضوع من جديد وشغلت به نفسي سهرتين طويلتين ليصل في الجودة والقوة إلى ما أريد .

وبعد أن فرغت من تحريره وتحبيره دعوت أحـد أبنـائي ليقـرأ علـيَّ فكانـت فرصة لدرس طريف من دروس التربيـة ، فقـد عرفـت أن الرجـل لا يـدرك مـا في أسلوبه من نَبَوات إلا حين يسمعه من رجل سواه ، وكذلك غيَّرتُ بعـض الألفـاظ وعدّلتُ بعض التعابير ، فظهرت الخطبة وهي فنٌّ من الكلام المصقول .

***

ثم مضت إلى كلية الآداب في أصيل اليـوم الأول مـن أيـام آذار ، ولا يمكـن الوصول إلى كلية الآداب إلا بالسير في شارع فؤاد الذي يُعبر الزمالـك مـرة ويعبُـر النيل مرتين ، ثم انعطفت السيارة ، فسايرت النيل حتى وصلت إلى شارع الجامعـة المصرية ، عليه وعليها أطيب التحيات !

هو اليوم الأول من أيام آذار ، وأيام مصـر كلهـا آذار فمـا تعـرف بلادنـا غيـر نضرة النعيم في جميع الفصول .

ونظرت في الساعة فلم أجد من فسحة الوقت غير خمس دقائق ، وهي مـدة لا تسمح باجتلاء المحاسن في شارع الجامعة ، الشارع الجميل الذي كـان يسـتهوني فأسير فيه بتأدب واستحياء رعاية لحقوق العـين والقلـب في البقعـة التـي صـارت مراتع ظباء ومرابض أسود .

الله أكبر ولله الحمد!

هذه كلية الآداب التي قضيتُ فيها مواسم شبابي ، يوم كنت فتيً عارم العزيمة يؤذيه أن يقال إن في الدنيا كتابًا لم يطلع عليه ، ويوم كنت معمور القلب بأرواح الأماني ، ويوم كنت أتوهم أن الجِد في طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الإعزاز والتبجيل ، ويوم كنت إخال أن الكفاح في سبيل الأدب قد تنصب له الموازين ، ويوم كنت أومن بأن الجهاد لا يضيع في هذه البلاد !!!

تقع كليتنا الغالية على يمين من يدخل حَرم الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول . وسميت بذلك ، لأن فؤادًا العظيم كان أول رئيس للجامعة المصرية ، وكليتنا الغالية لها روح قهار ، لأنها شرعت للناس مذاهب التفكير في الآداب والفنون ، ولأنها أول معهد في مصر فتح أبوابه لحرية الفكر والعقل بلا تمييز بين العقائد والآراء .

كاد الدمع يطفر من عيني حين دخلتُ كليتنا الغالية ، فقد خُيَّل إلىّ أن أحجارها لا تنطق ، وإلا فكيف غاب عني تفصيل ما فيها من حُجرات وغُرفات ؟ وكيف نسيتُ الأماكن التي كنت ألقي فيها دروسي ومحاضراتي على قرب العهد ؟ وكيف غفلتْ عَتَباتها عن الوثوب لمصافحتي وقد صحبتُها طالبًا ومدرسًا من سنة 1913 إلى سنة 1937 ودرت معها من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان الفلكي، ومن حي المنيرة إلى قصر الزعفران، ثم إلى حديقة الأورمان ، ولم يزاحم هواها في فؤادي غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس ؟

وزاد في أساي وشجاي أني سأخرج مهزومًا في المناظرة التي تقام بكليتنا الغالية ، لأني سأدافع عن رأي جرئ لا يقول به إلا من يخاطر بنفسه فيتعرض لغضب المجتمع ، ولكن لا بأس فكليتنا الغالية قد علمتنا الثورة على أوهام المجتمع .

وألفتُ ما تبدد من شمل عزيمتي وصعدت إلى غرفة الأساتذة، الغرفة التي صاولتُ فيها من صاولتُ ، وكايدتُ من كايدتُ ، يوم كنت أحسب أن مغايظة

الرجال لن تكون لها عواقب سود .. فماذا رأيت ؟

رأيت الأستاذ لطفي جمعة قد انحاز إلى شابين من طلبة الكلية يدِّبر معهما خطط النضال ، فأردت أن أفسد ذلك التدبير بدعوته إلى المسارعة بالنزول إلى المدَّرج الأكبر حيث ينتظر جمهور المستمعين ولكني لم أفلح ، فقد تعلل بأنه ينتظر فنجانًا من القهوة ، ورجاني أن أعفيه من حضوري لحظات !

وسألت عن نصيري في المناظرة ، فرأيت فتاة حييّة اسمها ليلي ، وفتًى ناشئًا اسمه صادق ، فحدقت فيهما وقلت : أين تقعان مما أريد ؟!

ونزلت إلى المدرَّج بعد أن أعلن الدكتور إبراهيم مدكور أن الطلبة هم الذين سيبدأون ثم تقع الموقعة بيني وبين غريمي .

وبعد تلبُّث وتمكُّث حضر الأستاذ لطفي جمعة ومعه نصيراه من الطلبة ونصيرٌ ثالث هو الدكتور أحمد موسى ، وهو فيما سمعت أديب متمكن من ناصية الفكر والبيان .

ثم صرَّح رئيس المناظرة بأنه أستاذ ونائب ، وأنه سيطَّبق اللائحة الداخلية إذا وقع بين المتناظرين شجار ، فعرفتُ أن الأمر جِدٌّ في جد ، وأني سأعاني من هذه المناظرة ليلة نابغية .

وشرعتُ ليلى تتكلم ، ليلي يوسف ، وهي فتاة جمَّلها الله بالأدب والحياء ، فما كانت إلا دُمية مصقولة صينت من العقل والذوق ، وسيكون لها في حياة الأدب تاريخ ، وقد تفوق الفتاة المبغومة الصوت التي نضجت قبل الأوان فأضر بها الزهو والخيلاء .

ولكن ليلى ستلحن كما تلحن سائر «الليالي» ستلحن لحنًا خفيفًا في موطن لا تسلم فيها ألسنة «بعض » الأساتذة ، ومع ذلك يثور الجمهور ويصخب ليصح له أن يضايقني ويضايقها باسم الغيرة على قواعد اللغة العربية !

ثم يتكلم الشيال أفندي فيقترح أن يحال الدكتور زكي مبارك إلى المعاش لأنه من دعاة الفوضى الاجتماعية ولأن مؤلفاته تشهد بأنه يستهين بالعادات والتقاليد !

وبتكلم بعد ذلك محمد عبد الرحمن صادق أفندي بأسلوب يشهد بأنه من طلبة كلية الآداب ، كليتنا الغالية التي نذكر عهدها بالحب والعطف ، ونعرف فضلها في تثقيف الأذواق والعقول .

ويميل بدير متولي أفندي على أذني فيسرُّ إليَّ أنه قد يستبيح مالا يباح في تحقير الرأي الذي أرتضيه فآذن له بذلك، لأني من أقوى أنصار حرية الرأي ، ولكن الفتى يخلف ظني به كل الإخلاف فيعلن عجبه من أن مفتشًا بوزارة المعارف من دعاة الفوضى الاجتماعية ، ويدعو الجمهور إلى الحذر من آرائي !

ويجيء دوري في الكلام فأبدأ بالثناء على الطالبين اللذين شتماني بلا ترفق ولا استبقاء ، لأنهما من طلبة كليتنا الغالية ، ولأنهما سمعا أصوات مصطفى عبد الرازق وطه حسين وشفيق غربال ، ولأننا حضرنا لتمرينهم على النضال والصيال .

ثم أشرع في الخطبة التي أعددتها في سهرتين طويلتين وبعد لحظات يقوم شاب ثائر فيقاطعني مقاطعة عنيفة ويؤلب عليَّ الجمهور بشطط وإسراف ، وأنظر فأراه أحد تلاميذي ، التلاميذ الذين كنت أشقى في سبيلهم إلى عهد قريب .

وبدور رأسي من هول ما أراه ، فهذا الشاب كان موضع ثقتي ، وكنت أكرمه لنفسه ولأخيه ولقرب بلده من سنتريس وتطوف بذهني أخيلة مزعجة : فليس هذا الشاب أول من يغدر ويخون ، ليست ليلتي هذه أول لياليّ في المحرجات والمضجرات ، ولن تكون آخر العهد بشقائي في رحاب كلية الآداب ، فسأرجع إليها لخدمة الأدب والفلسفة بعد عهد قريب أو بعيد ، يوم يعتدل الميزان ، وأنظر فأرى الأستاذ لطفي جمعة قد اطمأن واستراح ، وأرى أنصاره في جذل وانشراح .

هي إذن معركة جدية سأنهزم في ميدانها المشئوم وسيلحقني عارها الباقي ، والله الحفيظ !

وينهض رئيس المناظرة فيهدد الشاب الذي يقاطعني ، يهدده بالطرد ، فيخشع الشاب ويستكين ، ويصفق الجمهور إيذانًا بالشوق لسماع صوتي ، فامضي في إلقاء خطبتي وأنا جريح ، وأضيف إلى خطبتي كلمة أقول فيها : إني اشتغلت بالتدريس في كلية الآداب أربع سنين ومن حقي عليها أن تسمح بأن أجهر في رحابها بكلمة الحق ،

وما قيمة الاشتغال بالتدريس أربع سنين في معهد مصريّ وقد صرَّح شاعرنا شوقي بأن كل شيء في مصر ينسى بعد حين !

ما قيمة الاعتماد على الماضي وهو ذُخر الفانين ؟ وبأي حق أغضب على شاب يقاطعني وقد أخذ عني أصول الثورة والصيال ؟

ثم أمضي في خطبتي كالسيل الجارف فأفتن الجمهور فتنة ماحقة يضج لها خصومي بتصفيق الإعجاب ليسلموا من سخرية الجمهور الذي سَحَرهُ بياني .

ويميل الأستاذ لطفي جمعة على أذني وهو يقول : أهنئك على أن عرَّضت سمعتك للأراجيف في سبيل الحق . فأبتسم وأنتظر أن يصنع كما صنعت ليظفر بتهنئتي ! .

ينهض الخصم الشريف فيسلك في تحقيري جميع المسالك ويدِّعي أني فوضويٌّ أثيم ، وينهى الجمهور عن الانخداع بآرائي ، ويعلن عجبه من أن يكون لي كتاب اسمه التصوف الإسلامي في مجلدين كبيرين مع أني من أنصار الفوضى الاجتماعية ، ويقضي في تحامله وتجنِّيه ساعة وبعض ساعة وأنا ساهم مطرق أكاد أذوب من الخجل والحياء .

وأعود إلى نفسي فأندم على تعريض سمعتي لهذا الضيم البغيض وأعرف أني أخطأت في قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف وأعاهد الله على اعتزال الناس إلى يوم الممات . وما الذي يغريني بصحبة بني آدم ولم أر منهم غير شجا الحلوق ، وقذى العيون ؟

لقد أقمت داري على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل ، ولأنسى أنني موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأناجي موات البادية حين أشاء ، ثم قهرني حب العُزلة على أن أغلق نوافذ داري فلا أرى الوجود إلا بأوهام من طيف الخيال .

لطفي جمعة الرجل الفاضل الذي أثنيت عليه في خطبتي يقضي في شتمي ساعة وبعض ساعة ؟ تلك إحدى الأعاجيب ، إن كان النكر في زماننا من الأعاجيب !

أين أنا الآن من دهري وزماني ؟ امثلي يُشْتم جهرة في كلية الآداب ، وقد حملتُ على كاهلي أحجار الأساس ؟

هو ذلك ، وعلى نفسي أنا الجاني ، فقد عرِّضت سمعتي للجدال الذي يسمونه مناظرات ! وينتهي الأستاذ لطفي جمعة من خطبته بعد أن مزَّق آرائي كل ممزَّق ، وبعد أن شفى صدره مني ، وكانت بيني وبينه ترات وضغائن وحُقود .

ويعلن رئيس المناظرة أن ليس لي غير خمس دقائق ، وما الذي أستطيع أن أصنع في خمس دقائق وقد جُرحت أشنع تجريح ؟

ما الذي أستطيع أن أصنع وقد سمعت ما أكره في معهد يؤذيني أن أذكر فيه بغير الجميل ؟ في خمس دقائق يعرف الأستاذ لطفي جمعة أن لحمي مرّ المذاق ، ويؤمن وهو كاره بأن التطاول على رجل مثلي لا يمرّ بلا جزاء ، ويعرف من قاطعوني أن شأني أعظم مما يظنون . في خمس دقائق تحوّل السامعون من حال إلى أحوال فصاروا جميعًا من أنصاري ، في خمس دقائق شهدتْ أحجار كلية الآداب بأن المنطق أعظم من التنكيت ، في خمس دقائق عرف غريمي أن سهر الليل في الاستعداد للحرب أمر يوجبه العقل الصحيح .

وبعد كلمات ألقاها مندور والدكتور موسى طلب رئيس المناظرة أصوات الحاضرين فكانوا جميعًا صفي ، وهتف هاتف : « تحيا الفوضى الاجتماعية ! »

فأجبت : « تسقط الفوضى ويحيا النظام ! »

والآن ، يا صديقي الزيات ، أحب أن أسجل في مجلتك ظاهرة من شمائل

الجيل الجديد ، لتعرف أن اليأس الذي يساورنا قد يكون من الأوهام في أكثر الأحايين .

وهذه الظاهرة هي يقظة الجمهور في هذا العهد ، وقلة انخداعه بالتزاويق والتهاويل ، وأؤكد لك أنه كان مفهومًا عند أنصاري أني لن أخرج من تلك المعركة بغير الهزيمة ، وأن التعلق بالشكليات سينفع خصومي فيظفرون بالنصر المبين .

وقد أراد الأستاذ لطفي جمعه أن يغض من جهودي فقال إني شغلت نفسي بالموضوع أيامًا وليالي ، ولكن هذه السخرية لم تنفع ، لأن الاستعداد للنضال من أصول التشريف ، وهو يقابل عند الجمهور بالإعزاز والتبجيل ، وهل كان يجوز لي أن أستخف بمناظرة تقام في كلية الآداب ؟

وهذا النصر الذي نظفر به من وقت إلى وقت هو الذي ينسينا ما قد نجني من الحنظل في الحياة الأدبية ، وهو الذي يهوّن ما نعاني من عقوق الزملاء ، أو «بعض» الزملاء !

وقد حدثتك في مطلع هذا الحديث أني سأريح قراء الرسالة من شطحات قلمي شهرًا أو شهرين ، فلتعلم وليعلموا أني قد أشتاق إليك وإليهم فأرجع بعد أسبوع أو أسبوعين ، والسلام .

من أوهام العقل وأحلام القلب

برج بابل ؟!

لما زرت بابل في سنة 1937 بحثت عن البرج المشهور في التاريخ ، ولكني لم أهتد إليه ، برغم ما بذلت من العناء في التعرف إلى ما هنالك من رسوم وأطلال .

فكيف بخلت الأقدار بحرماني من الاهتداء إلى معالم ذلك الأثر النفيس ، وكان أول رمز لما فُطرت عليه الإنسانية من تنافر الآراء وتناحُر الأهواء ؟

كان برج بابل خليقًا بالخلود ، لو عرف بنو آدم مغزاه الدقيق ، فصانوه من عوادي الزمان ، وهل كانت بلبلة الألسنة حول ذلك البرج إلا إيذانًا بأن الإنسانية شَبت عن الطوق ، ولم يبق إلا أن تنتفع بمزايا الشقاق والنزاع والخلاف ، وهي معانٍ ظاهرها قبيح ، وباطنها جميل ؟

لو عاش برج بابل لكان مزارًا من أقدس المزارات ، فحول رحابه طارت أول شرارة من ضريم الصراع بين الأجناس والألوان ، وبين حناياه ذاق الإنسان الأول مرارة الحيرة ، وهي مرارة جزيلة النفع ، وإن كانت كريهة المذاق .

ولو عرفنا تاريخ برج بابل لعرفنا في أي عهد بدأ الصيال بين الألسنة والعقول، فما نطمئن إلى ما قالت الأساطير في تحديد ذلك التاريخ ، وهي لا تبعد به غير عشرات من القرون ، وأنا أكره أن تصدق تلك الأساطير لأني أحب أن يكون عهد أسلافنا بالخلاف أبعد من تلك القرون بآماد طوال طوال .

لو عثرت على برج بابل ، أو اهتديت إلى شيء من رسومه الهوامد ، لأضيف

اسمي إلى أسماء من خدموا الإنسانية بكشف بعض المجاهيل من حَسنها العريق .

ولكن الحظ أراد غير ما أريد ، فلم أعرف من بابل غير ما يعرف سواد الناس، ولم أشهد غير بقايا الحدائق المرفوعة فوق قواعد من الجدران وهي جدران لم يفكر في هدمها الزمان ، فبقيت شاهدًا على مطامح أهل بابل في السموِّ والعلاء.

لابد من برج بابل ، لابد ، لابد ، ولن أستريح أو أهتدي إلى مكان ذلك البرج، فهو المهد الأول ، المهد الذي نشأت فيه شياطين الخلاف ، والخلاف هو صاحب الفضل في تأريث جمرات العقول ، ونزوات القلوب ، وشهوات الأرواح ، وبدَوات الأحاسيس .

الحمد لله ! الحمد لله ! لقد وجدت البرج المنشود ، ولكن أين ؟

لم أجده في بابل ، وإنما وجدته في قلبي ، وأين بابل من قلبي ؟

القلب الذي أجهله أشد الجهل ، وإن كنت سمعت أنه يقيم بين ضلوعي ؛ والجيران قد يجهل بعضهم أسرار بعض ، وسنعرف يومًا أن العين ليست ترجمان القلب في جميع الأحيان ؛ فلكل من القلب والعين وجودٌ مستقلٌ تمام الاستقلال ، وإلا فكيف يقع في كل يوم أن تعِد العيون بنعيم لا تسمح به للقلوب ؟

الجاهل هو الذي يتوهم أن العين ترجمان القلب

وقد جهلتُ يومًا فتوهمت أني أعرف سرائر قلبي ، ثم عرفت أني واهمٌ فيما توهمت ، فما كان قلبي إلا غابة تعيش فيها ألوف الألوف من أنواع الشجر والنبات والطير والحيوان والأفاعي والصِّلال .

وآية ذلك أني لا أعرف أسباب أفراحي وأتراحي إلا في أقل الأحايين ، ثم يُغَمُّ عليَّ الأمر فلا أدري مصدر سعادتي أو منبع شقائي ، فأفزع إلى ما يفزع إليه الصوفية عند البسط والقبض بلا وعي ولا إدراك . ولو وعيت وأدركت لنفذ سهمي في جذب السعادة أو دفع الشقاء .

وأنا مع ذلك اهتديت إلى ما لم يهتد إليه ديكارت ؛ فديكارت فطن إلى أنه يفكر

فعرف أنه موجود ، وأنا فطنت إلى أن برج بابل أقيمت صروحه فوق سواد قلبي ، فاستشعرت الخوف من ظلمات قلبي ، وهي ظلمات يعجز عن تبديدها نور القمر وضياء الشمس ، لأنها ألفاف من الشر المدفون في أصول تلك الغابة الشجراء .

وما أشد خوفي من قلبي ، وهو قلبي !

وآه ثم آه من الجبن عن مكاشفة العدوّ الذي يلبس ثوب الصديق !

كان يطيب للشعراء أن يقولوا إنهم يعيشون بلا قلوب ليبرروا عجزهم عن استبدال حبيب بحبيب .

وأقول : إني يئست من الأمل في العيش بلا قلب ، وأين المفرّ من قلبي وهو قِطارٌ من أحاييل وعقابيل شُدّ بعضها إلى بعض بسلاسل مصنوعة من أوهامي وظنوني ، وأنا رجلٌ مخلوق من أوهام وظنون ، وإن شهد خوفي من القلب بأني رجل على شيء من العقل ، والعقل أضعف حلية يتحلى بها الآدميون ، فلو عاش بنو آدم بعقولهم في جميع الشؤون لكان مصيرهم مصير الأنعام ، فلم يزينوا الوجود بروائع الآداب وغرائب الفنون .

لم أستطع التخلص من أوزار القلب ، ولن أستطيع التخلص من أثقال العقل ، فما عيشي في صحبة هذين العدوين ؟ وما قيمة وجودي وأنا محروم من نعمة الاستقلال ؟

وهل أنسى بلائي بعدوان القلب والعقل وقد عانيت منهما في الليلة الماضية ما عانيت ؟

وما الليلة الماضية ؟ هي ليلة من ليال ، فما رحمتني الأقدار من معاناة الصراع بين القلب والعقل منذ اليوم الذي عرفت فيه أن العيون لا يكون لها سحر حرام أو حلال إلا في نور القمر أو ظلال الرياض .

إن واجهت العيون ضياء الشمس فعلى سحرها العفاء ، لأن الشمس تحيل العيون إلى جوارح تعجز عن الختل والفتك . وهل تصنع الغلالة المنسوجة من نور القمر أو ظل الروض حين نواجه الطرف الكحيل إلا كما تصنع الغلالة

المنسوجة من الحرير حين تطوْق الجسم اللطيف ؟

الحرير يزيد الأجسام النورانية صفاءٌ إلى صفاء ، وهي تتخايل من تحته كما تتخايل الكواكب من فوق السحاب الرقيق .

وأنا لم أصاول سهام العيون إلا في نور القمر أو ظلال الرياض ، فأين كنت في تلك الليلة وقد كان «برج بابل» بعض ما تشقى بحمله ضلوعي ؟

كنت في ضيافة قمرين : قمر الروض وقمر السماء ، ويا ويل من يعيش في مصر الجديدة وهو يعاني مكاره الصراع بين القلب والعقل !

وفي لحظات أقصر من عمر الطيف تحولت دنيانا من صفاء إلى كدر ، ومن كدر إلى صفاء ، ثم انتهينا إلى قطيعة قد تقصُر وقد تطول ، فما استطاع الدهر ولن يستطيع أن يفرّق بيننا أكثر من أيام أو أسابيع .

سمعت صوت العقل فأقسمت لأهجرنّ ذلك البدر إلى آخر الزمان وما هي إلا لحظة حتى تحركت الحيات والثعابين في برج بابل فأصختُ إلى ما تجود به أفواهها الفيح من فحيح ، فكنت والله كمن يسمع نشيدًا ترتله ملائكة السماء .

أنا مشدودٌ مشدودٌ إلى قِطار الوجود ، فأين من يرحمني من مصارعة العيون في نور القمر أو ظلال الرياض ؟

الليلة الماضية ، وما أدراك ما الليلة الماضية ؟

هي ليلة من ليال ، ومن لم يعش كما عشت فليس من حقه أن يقول بأنه اكتوى بنار الصيال بين الهدى والضلال

وما ليلتي الحاضرة بين الليالي ؟

مصباح وقلم ومداد وقرطاس ، وآمال بيض ، وآلام سود ، وقرار في دار تواجه الصحراء في ليلة قمراء ، والقمر يشجع أفاعي الفيافي على الدبيب والوثوب .

ليلتى الحاضرة ليلة كرب وبلاء ، فبرج بابل تعتلج فيه خواطر أشد سوادًا من قلب الغانية التي لطمت وجهها منذ سويعات في أعقاب موجة من موجات

العتاب، وبرج بابل يقول بأن الحوادث تنذر بالشر الوبيل في مدائن منها الإسكندرية وبور سعيد والسويس وبغداد ، وتلك أول مرة صرح فيها برج بابل بأشياء وأشياء ، فمتى أرجع إلى جهل ما في ذلك البرج من أحابيل وعقابيل ؟!

أنا أملك أمري في الليلة الحاضرة ، فليس بيني وبين دار هواي غير خطوات ، ولكن بلائي صيغ من الليالي المواضي ، فمن الليالي المواضي نُسجت عواطفي وأحلامي وأوهامي وظنوني ، وهل أنا إلا مجموعة آراء وأهواء كُتبتُ صحائفها الأولى في القاهرة ودمشق والقدس وبغداد وقرطبة وتونس وباريس ؟

لو فكرت في إحصاء المدائن التي تعلمت في مدارسها المعروفة والمجهولة ، ولو فكرت في إحصاء من استفدت بمعارفهم من أهل الشرق وأهل الغرب ، لوصلت إلى القول بأني شخصية دولية لا يستقل بها بلدٌ عن بلد ولا جيل عن جيل ، فكيف أملك الفرار من الجزع لآلام المكتوين بنيران الحرب ولو كانوا – رسميًا – من أعدائي ؟

ولو فكرت في أن الغانية التي لطمتُ وجهها الجميل في أعقاب العتاب لم تخرج على الأدب في خطابي إلا وهي مثقلة بأوهام نشأ بعضها في الشرق وأُخذ بعضها عن الغرب لنظرتُ إليها كما أنظر إلى الطفل الذي يُجرم وهو غير مسئول .

وهل تسأل صحراء مصر الجديدة عن الإمحال وقد هجرها الغيث ؟

إن كان ذلك فستسأل القلوب التي أذويتها بجفائي ، وما كنت من الجافين ، لولا الشواغل التي صيرتني أقسى من الجلمود في محاجر أسوان .

القمر في ليلتي الحاضرة جميل جميل ، ولكن ما قيمة جماله وأنا مصدودٌ عن الاستصباح بنوره الوّهاج ؟

وما طِيبُ النوم والأحلام لمن حُرموا طيب نجواي ؟

ألم أقل لهم : إن الذي ينام بمصر في المقمرات من ليالي الصيف ليس إلا قطعة من ثلوج الشمال نُقلت ظلمًا إلى هذه البلاد ؟

النوم ضربٌ من الموت ، وهو الموت الأعظم لمن يجهل فضل الليالي المقمرة بمصر في أوقات الصيف .

لو كنا معًا في هذه اللحظة لعرف البدر أن السعادة ليست مقصورة على أهل السماء ؟ إن صحّ أن أهل السماء سعداء ؛ وكيف يسعدون وما عرفوا ظلم العواطف ولا طغيان الأحباب ، وإلا فكيف استطاع القمر أن يحتفظ بصباه على مرّ الدهور وكأنه فلان في البلادة والغباء ؟

وسيصنع الدهر ما يصنع بالغصن الذي آذته نسائم الحب ، وإن عاش وعشنا فنقيم المناحات في حضرته العالية على الظل الذي زال عند « الزوال» .

القطيعة باقية ، ولن نسأل عن تلك السرحة إلا يوم تمشي وهي مهددة بأرواح الخريف ، فلتصنع بمصيرها ما تشاء ، فلن تكون أكرم على الدهر من نخلتي حلوان في أشعار القدماء ومن يرعى تلك النخلة وقد تخلى عنها الحارس الأمين ؟

ترعاها الفواقر والقوارع والخطوب !

يرعاها الجهل بالسر المكنون في ضمائر الشعراء!

وإن استطال الجمال على الشاعر فبشره بالمحاق والأفول .

لغير وجهك الجميل يوجَّه هذا النذير ، يا صاحبة الجِيد الأغيد والمِعصم الريّان .

وما الدنيا وما الوجود إذا أمسى جمالك الفتان وهو طلل من الأطلال ؟

سيصنع بك الدهر ما يصنع لأنه موكل بإذلال الأقوياء ولكنه سيعجز عن محو ما دار بيننا من أكواب العتاب في تلك الليلة القمراء .

هي ليلة من ليال ، وسأعرف كيف أنتقم لنفسي ، إن طاب لك الاعتصام بالهجر والصدود.

أما بعد، فقد رجعت إلى قلبي لأشهد بعض العجائب من برج بابل ، فماذا رأيت ؟

رأيت وجودي مقدودًا من أحجار ذلك البرج ، ورأيت عواطفي وأحلامي مشبوبة أو مقبوسة من اللهب الذي يتأجج في أركان ذلك البرج ، ورأيتني جديرًا بما اتصف به أهله من الحيرة والقلق والانزعاج .

رأيت ورأيت ، وكأنني إنسان وقف يتلهى بصراع الأسود، وهو يجهل أن فيها أسدًا قريب العهد بالاستئناس ، فهو يرجع إلى الشراسة حين تسمح الظروف .

رأيتني واقفًا على حافة الهاوية بلا رفيق ولا معين .

رأيتني أحمل القلم لأمزق به ما بيني وبين الناس من أواصر وصلات .

رأيتني أساهر النجوم وهي لا تدرك من همي غير أطياف .

رأيتني انفصلت عن «برج بابل» فلا أدري ما يثور فيه من مصاعب وأهوال .

رأيت ورأيت . رأيت أني سأسأل بعد أيام عن مصاير أحباب كان لهم في حياتي تاريخ ، فمن أولئك الأحباب ؟

الدنيا التي ضنت بأن أحمل السيف في الدفاع عن وطني هي الدنيا التي ضنت بأن حمل السيف في الدفاع عن وطن أحبابي .

لله الأمر من قبل ومن بعد .

وسيعرف أقوامٌ مغازي هذا الأمر الدقيق .

أنا إذن أعبِّر بالرموز ؟؟

هو ذلك ، لأني أكتب مقالي في أيام السرار من شهر الوجود .

اللهم عونك ولطفك وغفرانك ، فما استعنت إلا بك ، ولا توكلت إلا عليك، فأنت وحدك أمل اللائذ بحصنك الحصين .

إليك رجعت يا قلبي(*)

«لكاتب من الكتاب» ينم عليه أسلوبه

قلبي ، ألم يأن لك أن تعفو وتصفح ؟

أنت تعرف أني لم أقبل على التحرير والتأليف في شؤون الأدب القديم والحديث إلا طلبًا للسلامة من ظلمك وعدوانك ، ولم أشغل قلمي بوصف أوهام المجتمع إلا لأصرفه عن الشغل بأحلامك وأوهامك .

فهل تراني مع ذلك نجوت من شرك ؟

أنت تعرف أني لا أرى الناس من وقت إلى وقت إلا رغبة في الانصراف عنك ، فإن الخلوة إلى نَزَواتك ، وبَدواتك تُشبه الخلوة إلى أوكار الأراقم وملاعب الجنّ ، ومساقط البراكين فكيف تريد أن أرجع إليك ؟

إن لي عقلا يعصمني من غيِّك ، فاصنع ما أنت صانع .

ألست أنت الذي أغراني بالتطلع إلى مشارق الأقمار والأزهار ومواسم الأفئدة والقلوب ؟

ألست أنت الذي حدثتني بأن النعمة الصحيحة هي جودة الفهم لأطايب الوجود ؟

(*) الرسالة : 18 ديسمبر 1939 ص 111.

فهل تراك صدقت فيما حدثت ؟

وهل تراني أحسنت في الاطمئنان إلى وسواسك ونجواك ؟

الدنيا في طاعتك ليست إلا مهالك ومعاطب ، فكيف فاتني التوفيق فلم أتمرد عليك ؟

ما رأيت إنسانًا يعيش في سلام وأمان إلا حكمت بأنه يحيا بلا قلب .

ولا رأيت إنسانًا مسلوب الأمن مَهدود العافية إلا عرفت أنه من أرباب القلوب .

فمتى أنجو من شرك يا قلبي ؟

إن اشتباك المهلكات والمدمرات في المعارك البرية والبحرية والجوية ليست إلا صورة مصغرة لما يقع بيني وبينك حين أخلو إليك.

فمتى أنجو من شرك يا قلبي ؟

وما يضمر الأعداء المتحاربون بعضهم لبعض ، وما تضمر الغابة الشَّجراء في ظلام الليل ، وما يستتر في جوف المحيط من غَدَرات فَتَكات ، كل أولئك أخف وأهون مما تعدّه لمحاربتي أيها القلب !

إن الحرب بين الممالك والشعوب يسبقها النذير ليأخذ الرجال أهبتهم للصراع والقتال ، والحرب بيني وبينك لا يسبقها نذير حتى أستعد لمصاولتك ومغالبتك . فمن أنت بين المغتالين أيها القلب ؟

وقد درج المقاتلون منذ آماد طوال على الترفق بأسرى الحرب وأنت لا تعرف الرفق بأسيرك أيها القلب !

فمتى ينصرني الله عليك فأجزيك ظلمًا بظلم وعدوانًا بعدوان ؟

أنت الذي جعل إيذاء الصديق للصديق من شرائع الوجود ، أيها القلب . فكيف أعاتب أصدقائي وأنت على قربك أول من أتلقى منه الطعنة الدامية ؟

أنت تظلم وتغدر وتفتك ، وما أسأت إليك في سر أو علانية ، وليس بيني وبينك واش ولا نمام ولا رقيب .

فكيف ألوم صديقًا يغدر أو يخون وبيني وبينه ألوف من المفسدين والمرجفين ؟

عنك تلقيت درسًا لن أنساه ، أيها القلب ، فعدوانك وأنت صديق لا تصل إليه الوشايات والسعايات دليل على أن الدنيا قامت على أساس منخوب لا يصلح للخلود.

لو كانت الدنيا أهلاً للجمال لكان من المستحيل أن تكون الأشواك أطول أعمارًا من الأزهار والرياحين .

ولو كانت الدنيا أهلاً للقوة لما جاز أن يقضي الأسد دهره وهو محموم.

ولو كانت الدنيا أهلاً للرفق والعطف لصار من العسير أن يفسد ما بيني وبينك ، أيها القلب .

إن آهة الألم من الحيوان الفاتك هي التي تدل عليه الصائد المغتال حين يطرق الغابة بليل .

وزقزقة العصافير في الظلمات هي التي ترشد الثعابين إلى عشها الأمين .

ورحيق الأزهار هو الذي يسلط عليها خراطيم النحل .

والنور الذي ينبعث من مخدع آمن قد يعرِّض مدينة برمتها إلى غارة جوية .

فما الذي دَّلك عليَّ ، أيها القلب ؟

دلتك القوة ؟ دلَّك الرفق ؟ دلَّك الضعف ؟ دلك الشعر والخيال ؟

أنا أعرف أني كتلة جسيمة من الأحلام والأوهام والحقائق والأباطيل ، فمن أي جانب نفذت إليّ ، أيها الغادر المغتال ؟

تخلَّق مرة واحدة بأخلاق المحاربين الشرفاء ، أيها القلب ، حدثني كيف استطعت النفاذ إلى ما أقمتُ من معاقل وحصون ؟

أنت قوة خطرة مخوفة ، أيها القلب ، ومن حقك أن تبغي وتستطيل لأني سوّيتك بيدي ، وطوفت به في الشرق والغرب لأمدك بأصول القوة والعنف ، وآيةُ هذا العصر هي نكران الجميل ، فلا عتب عليك ولا ملام إن بذلت في إيذائي كل ما زودتُك به من جهد وعافية «ومن غرس الرياح جنى العواصف» .

كل حرب إلى سلام ، وكل شقاق إلى وفاق ، إلا ما بيني وبينك ، أيها القلب .

سيتعب أعدائي فينسحبون من ميدان القتال ، ولن تتعب أيها القلب ، لأنك جذوة من العواطف لا تخمُد ولا تبيد .

فهل تراني أتمنى لك الخمود وأنت صديق ؟

الناس على دين زمانهم ، أيها القلب ، وأنت اصطنعت الغدر طاعةً لزمانك ، فكيف لا أستبيح الغدر طاعةً لزماني ؟

أتراني التفت إلى رعاية الجوار ؟ وهل رعيت أنت الجوار ومثواك بين ضلوعي ؟

المودّات في الدنيا أخذٌ وعطاء ، فكيف تنتظر أن يكون أمرى كله إليك ، ولا يكون لي سلطان عليك ؟

كيف تنتظر ألاَّ أتقدم أو أتأخر إلا بوحي منك وأنت لا تسمع دعائي مرة واحدة فتّصدف عمن تسقيهم الشهد ويسقونك الصاب ؟

أنت الشريك المخالف ، أيها القلب ، والشريك المخالف تعوَّذ منه الآباء والأجداد ، فكيف أسلم من شرك ولن يفرِّق بيني وبينك غير الموت ؟

إن أمرك لعجيبٌ غريب ، أيها القلب ، فأنت تغدر بي ، ثم تفي لسائر أصدقائك وأصفيائك .

أنت والله لئيم أيها القلب ، فأنت لا ترعى عهدي لأنك وثقت بأمانتي ثقةً أبدية . وأنت تراعى غيري ممن أحببت لأنك تخشى أن ينقلبوا عليك ، والاتجار بالصداقة من أخلاق زمانك ، وأنت ابن زمانك ، فشِّرِّق في مكايدتي وغرِّب ، فسأبقى بجانبك يوم تنكشف لك أخلاق الزمان فتصبح بلا صديق .

أراك انزعجت ، أيها القلب

الحمد لله ، فلا يزال في الدنيا إخوان يزعجهم العتاب . وبالرغم مني يرقّ الصخر الذي جعلتُه علامة القِبلة في أوقات الصلوات .

لا تجزع ، يا قلبي ، فلن أعاتبك في كل يوم ، فلست بالصديق الذي يشوك أصدقاءه بالعتب في كل حين .

أراك غضبت

اتق الله والحب ، أيها القلب ، فقد صبرتُ على تجنِّيك عددًا من السنين ، وما يجوز لك أن تثور على من ينطق بكلمة الحق مرة واحدة بعد أن صبر على كلمة الزُّور ألوف المرات .

كنت أودّ أن ألقاك بالهجر الجميل ، أيها القلب ، كما تعودت أن ألقاك في الليالي الخوالي ، ولكني رأيتك تعدّ سكوتي علامة من علائم العجز أو دلالة من دلائل الشُّبهات ، فاسمع صوتي يا جاحد ، لتعرف أني أملك الثورة عليك حين أشاء .

ومن العجز أن تظن أن التفريط في حق الصديق يمرّ بلا عقاب ، كما مرّت حسنات الصديق بلا ثواب .

تلك أيامٌ خَلَتْ . فأعدّ نفسك لحساب العاشق الذي صحا وأفاق .

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أراك تبكي وتنتحب أيها القلب .

أمن دعابة وجهتها إليك يتفجر حزنك وأساك ؟

فكيف أكون وقد قضيت السنين الطوال في رأب ما يَصدع الأصدقاء ؟

كيف أكون ولي في كل يوم رفيق يغدر ، وصديق يخون ؟

أنا أثور عليك أيها القلب .

وكيف وقد صفحت عن ذنوب قوم أسكنتهم في سوادك؟

أنا الأخير بين من تَعمى عيونهم عن عيوب الصديق، أيها القلب .

وأنا الأخير بين من لا ترى عيونهم غير محاسن الصديق ، أيها القلب .

فاغدر كيف شئت ، وليغدروا كيف شاءوا ، فأنا أحق من « الحجَر الأسود» بِحَمل الذنوب وسَتر العيوب .

ولن أنطق إلا يوم ينطق الحجر الأسود ، فإن نطق فسأعتصم الصمت .

أتراني أمنّ عليك ، أيها القلب ؟

أنت الذي تمنّ عليَّ ، لو شئتَ ، وأنت تشاء لأن زمانك منَّان ، ولكن سأعفيك من رذيلة المنّ على الأصدقاء .

أنا أختلق المحاسن لأصدقائي ، فكيف أبخل بالثناء عليك بما أنت له أهل وكيف أجاريك في طمس محاسن الصديق وأنا أقوى منك ؟

لا تنزعج من كلمة الحق ، أيها القلب ، فستسمع مني بعد ذلك ما يرضيك . أنا راض عنك مع جهلك لأن شاعرنا يقول :

ولربما اعتصم الحليم بجاهل   لا خير في يُمنى بدون يسارِ

وعقلي محتاج إلى جهلك ، أيها القلب .

أتذكر ما وقع في صباح اليوم ؟

كنت في سيارة عمومية ، وصعد زوجان انجليزيان ومعهما طفل وطفلة ،

فوثب الطفل إلى صدري يسكن إليه ، فنهرته أمه في غضب ، وجذبه أبـوه مـن يـده فثار وجرى على باب السيارة لينزل وهي في جنون السـرعة ، وخـاف والـد الطفـل فأشار إليه أن يتوجه حيث شاء ، فأقبل الطفل على صدري من جديد ، وأخذ يشـير إلى أخته أن تصنع كما صنع ، فقضيت المسافة وأنا أحتضن طفلين عزيزين في رقـة الأزهار ونضارة الرياحين .

ونظر الأب والأم إلى هذا المشهد نظرة حنان وهما في عجب عجاب ، فقلت : لا تعجبا يا سيديَّ ، فهذان الطفلان يعرفان بوحي الفِطرة أني رجل له قلب ...

وشاءت ظروف عملي أن أنزل في منتصف الطريـق فتشـبث الطفـل بـي وهـو دامع العين مكروب ، فلثمت جبينه فاستراح وأوي إلى صدر أبيه وهو جذلان .

وكان ذلك لأنك كنت في صحبتي ، أيها القلب .

وأرادت إحدى الغوادر أن تنسى ما صنع قلمي في التشـبيب بجمالهـا الفتَّـان فدلَّت وتاهت ، فأصليتها صدًّا بصـد وإغضـاء بإغضـاء ، فهـي منـذ سـبعة أشـهر تترضَّاني برسائل تذيب الجلاميد وأنا ألقاها بصمت الأوثان ، فهل كان يمكن ذلك إلا لأنك في صحبتي ، أيها القلب ؟

عندي ألوف من الشواهد على أنك المصدر الأصيل لمـا أملـك مـن عنفـوان القوة والعافية ، فإن صح أنك أصل لما قد يساورني من ضعف فذلك دقـة النصـل في السيف الصقيل .

إليك رجعت يا قلبي ، فارجع إليَّ كما رجعتُ إليك :

فلقد يُسعف الجريح أخاهُ ويواسي الغريب في الأحزان .

«كاتب من الكتاب» .

نميمة الأسلوب

«لكاتب من الكتاب» (ينم عليه أسلوبه)

كنت أرسلت إلى مجلة الرسالة كلمة أحاور بها قلبي ، ولم أذيلها باسمي الصريح ، وإنما اكتفيت بالإشارة إلى أني «كاتب من الكتاب» فرأيت صاحب «الرسالة» بضيف إلى هذا الرمز عبارة «ينم أسلوبه عليه »

فهل كُتب عليّ أن أعيش فريسة النمائم فأنتقل من كرب إلى كرب إلى أن تدركني نميمة الأسلوب ؟!

وأين المفرّ من مظالم النمائم إذا صح أني لن أنجو من نميمة قلمي ؟ ..

إن الرجل لا ينمَّ أسلوبه عليه إلا بعد أن يصبح «كاتبًا من الكتاب» تُنصب لرأيه الموازين ، وأنا كاتب من الكتاب منذ أعوام طوال ، فما الذي غنمتُ من براعة القلم ورشاقة الأسلوب ؟

ما الذي غنمتُ وأنا أمتشق القلم منذ أكثر من خمس وعشرين سنة بعزيمة أقسى من الصخر وأصلب من الحديد ؟

ما الذي غنمت وقد كنت كاتبًا وشاعرًا قبل أن يولد فريق من الذين تؤذيني عندهم نميمةُ قلمي ؟

وهل أستطيع أن اطمئن إلى أن قلمي سيشفع لي إن قلتُ إن صحبته أضرعتني وإني أحتاج إلى الراحة بضعة أسابيع ؟

وهل للقلم دولة في هذه البلاد حتى نجعله وسيلةً إلى الراحة من بعض المتاعب ؟

وهل يُراعى القراء ما نطوِّق به أعناقهم من ديون ؟

لقد غنَّيتُ أهل زماني أناشيد أيقظتُ بها في صدورهم من أحلام غافيات ، وأحييتُ بها ما في قلوبهم من مَوَات ، فأين من يسعدني بكلمة صدق أدفع بها عُدوان زماني ، لأمضي على سجيتي في السجع والغناء ، ولأضمن السلامة من نميمة الأسلوب ؟

وأين في الدنيا كلها من يتوجع لمصير البلبل حين يسكته المرض أو الموت ؟

احتجزني فلان في الطريق ساعة أو بعض ساعة وهو يحاورني في شؤون دقيقة من خصائص حياتي الأدبية ، فظننته – وهو من أهل الجاه – يحاول أن ينصفني من زماني ثم عرفت – واأسفاه ! – أنه يجمع المصادر لمقال يكتبه عني يوم أموت !

وفلان الذي صرح ألف مرة بأني شعلة من اللهب المقدَّس هو نفسه فلان الذي يرى اليوم أن أدبي من أعظم ذنوبي ، وأن من الواجب أن أتوب !

أنا أحب أن أتوب من صحبة القلم ، ولكن أين السبيل إلى المتاب ؟

وهل يمكن ترك الصديق بسهولة، أيها الناس .

أعطوني شيئًا من قدرتكم على نسيان حقوق الأصدقاء ، لأتناسى حقوق قلمي!

علِّموني كيف أغدر وكيف أخون، لأستطيع التمرد على عقلي وبياني ! ..

خذوني إليكم، أيها الساخرون من صولة العلم والحق، لأخلص من صحبة العلم والحق !

خذوني إليكم في ملاعبكم وملاهيكم ، عساني أنسى جاذبية البؤس في صحبة

قلمي وكتابي !

لقد أفلحتم في زعزعة اليقين الذي كنت أفزع إليه حين تكرثني صروف الزمان ، فأين أنتم لأشكو إليكم ما جَنَتْ أيديكم ؟

وأين السبيل إلى ترميم البناء الذي كنت أستظل به من قبل أن أنخدع بالبريق الذي أزغتم به فؤادي ؟

أين ؟ أين ؟

أتذكر الآن كتاب لامرتين عن سِفر أيوب Le poeme du jobe

فقد صرَّح بأن الدنيا لو دُكت صروحها وذهب ما فيها من روائع الفنون والآداب ولم يبق غير سِفر أيوب ، لكان كافيًا في تسجيل ما تعاني الإنسانية من معاطب وحتوف .

وهل عانى أيوب في زمانه بعض ما عانيت في زماني ؟

أيوب فقد الثروة والعافية ولم يفقد اليقين !

وأنا فقدت الثروة والعافية واليقين . أضاع الله من أضاعوني !

وأيوب استطاع أن يعاتب ربه بقصيد رنّان وهو في أمان من ثورة الجمهور ، فظفر بالخلود في عالم الفكر والبيان .

وأنا لا أملك معاتبة ربي بسطر واحد خوفًا من رئيس التحرير ، وخوفًا من شيخ الأزهر ، وخوفًا من محكمة الجنايات وخوفًا من نميمة الأسلوب !!!

وأين فجيعة أيوب في دنياه من فجيعتي في دنياي ؟

كان الدينار لعهد أيوب يُموَّن الرجل شهرًا أو شهرين ، وأنا في عهد يهان فيه الرجل إن اكتفى بالدينار يومًا أو يومين ، فمن يُسلطني على دهري فأسجل رزاياه على نحو ما صنع أيوب ؟

وكانت الأرض لعهد أيوب بلا رسوم ولا حدود ، فكان المجاهد ينال منها ما يشاء ، كيف يشاء ، وهي اليوم مقسمة تقسيمًا يصد المجاهدين أعنف الصدود.

وكانت البحار لعهد أيوب مصادر خيرات ، وهي اليوم مواقع ألغام ومسارب غواصات .

وكانت السماء لعهد أيوب مساقط غيث ومذاهب نسيم ، وهي اليوم معارج طائرات ومصادر خطوب .

وكان النمام لعهد أيوب يؤلب عليه رجلاً أو رجلين أو بضعة رجال ، لأن النمام لم يكن يملك غير سفاهة اللسان ، أما النمام في هذا العهد فيستطيع أن يؤذيني بمقال في جريدة أو مجلة يقرأها ألوف أو ملايين ، ويذهب شرها إلى من أعرف ومن أجهل في المشرق والمغرب .

وكان قوم أيوب يعدون بالألوف ، أما قومي فيعدون بالملايين فبلواي بالخصومات أعرض من بلواه .

وكان لأيوب أعداء وأصدقاء ، أما أنا ، فلي أعداء ، وليس لي أصدقاء .

وكان أيوب نبيًا تهابه الأرض وتؤيده السماء ، أما أنا فكاتب من الكتاب تنفر منه الملائكة ويأتمر به الشياطين .

وصارت ثورة أيوب على بلاياه لحنًا خالدًا يُرتل في الكنائس والصوامع ، أما ثورتي على زماني فستضاف إلى الأدب الحزين الذي لا يقام له ميزان .

ومع ذلك كان حزنه أهلاً للحمد ، وصار حزني أهلاً للملام !

أيوب !

اسمع كلمتي ، أيها الزميل في الأحزان !

إن النبوّة عصمتك من كيد الخاتلين والحاقدين ، فلم تذق طعم الإيذاء في

سبيل الحزن النبيل، والله الذي لم يـولني شـرف العصـمة أولاني شـرف الإيـذاء في سبيل الحزن النبيل .

فأين مكانك من مكاني ، مع أني عبدٌ مذنب وأنت نبيٌ معصوم من الذنوب ؟

كانت المدائن لعهدك لا تملك من المصابيح مـا يشـغل بصـرك عـن نجـوم السماء ، أما المدائن لعهدي فتعرف المصابيح في النهار قبل أن تعرفهـا في الليـل ، ومع ذلك لم تشغل بصري عن نجوم السماء .

وكانت الدنيا لعهدك لا تعرف الضجيج ، فكنـت تملـك الخلـوة إلى خـواطر قلبك .

والدنيا لعهدي كلها ضجيج وأزيـز وهـدير ، وأنـا مـع ذلـك أخلـو إلى قلبـي وأدرس ما فيه من عناصر الوساوس والأحلام والأضاليل .

فإن لقيت ربك وفي يمينك كتاب النبوة فسألقي ربي وفي يميني كتاب المحنـة بوطني وزماني .

فيا نبي الله ، كيف تسبقني إلى رحمة الله وأنا أفقر إليها منك ، وإن كنت أحق بها مني ؟

أيوب !

أنت تألمت وتوجعت لأن الوباء كان اغتال إبلك وغَنَمـك فكيـف ألام عـلى التألم والتوجع وقد أهلك الطاعون أصدقائي وأحبابي ؟

أيوب ؟

هل تعرف أني أملك من العزاء ما لم تكن تملك ؟

فلو أنك قرأت تاريخ المسيح كما قرأتُ لخفَّت مصيبتك وهانت بلواك .

المسيحُ ، يا أيوب ، قد اكتوى بنار حامية هي غدر الصديق وقد صارت قبلـة يهوذا مثلاً سائرًا في التاريخ ، فهل تعرف كيف تكون القبلة شارة الحتف ، وهـي في

الأصل لغة القلب ؟

وأنا قرأت من تاريخ محمد ما لم تقرأ ، يـا أيـوب ، فقـد لقـى كثيـرًا مـن كيـد المنافقين من الأصدقاء .

فهل تظن مع هذه الشواهد أنك أجدر مني بالصدارة بين البائسين واليائسين؟

أنت على ما عانيت لم تعرف خيانـة الصـاحب ولا غـدر الصـديق ، ولم تشـهد كيف تعد حسناتك سيئات، ولم تقاس نمائم الأصـحاب ولا « وشـاية الأسـلوب» ولعل الله كان رعاك فلم تر شخصًا تحسن إليه ويسيء إليك .

فكيف تسبقني إلى رحمة الله ، يا أيوب ؟

خذ حظوظي كلها ، يا أستاذي في الألم والوجيعـة والحرمـان ، فأنـا أحـب أن أخرج من الدنيا بلا جزاء ، لأستطيع القول بأني عانيت من البلاء ما لم يعان أيـوب ، عليه الصلوات !

وأنا مع هذا أعترف بأني ساعدت الزمان على نفسـي ، لأني تجاهلـت أخـلاق الزمان .

وما الناس ؟ وما الزمان ؟

يكفي أن أصبح وأنا برغم الناس والزمان : «كاتب من الكتاب»

أوهام تخلق متاعب

في صدر هذه الليلة عانيتُ متاعب كادت تقصهم ظهري وكدت أخشاها على حياتي ، ثم لطف الله فتبددت بعد ساعات كانت أطول من الآباد .

فما تلك المتاعب ؟

هي متاعب خلقتها أوهام في غاية من السخف ، ولكن النص عليها واجب لمنفعة القراء ، فقد يكون فيهم من تعتريه مثل تلك الأوهام في بعض الأحوال .

التفتُ بغتةً فرأيت نفسي تراجع طوائف من الذكريات الموصولة بمعاملاتي مع جماعات من المعارف والأصدقاء ، فانقبض صدري أشد الانقباض ، وتجسمت أمام خيالي ألوان الأوهام بصورة لم أشهد مثلها من قبل ، صورة مروّعة قاسيتُ منها ما تقاسي النار من الريح العَصُوف .

وفي فورة تلك الكروب جاء لطف الله فرأيتني أقول : ومَن أولئك وهؤلاء حتى أعاني في العتب عليهم مثل هذا العذاب ؟

إذا غدر بك القريب فليس بقريب ، وإذا تجنَّى عليك الصديق فليس بصديق ، ومن واجبك أن تحفر قبرًا تدفن فيه من لا يرعى حق القرابة ، ولا يحفظ عهد الإخاء . ما اهتمامُك بمن يرضيهم أن تشقَى نفسُك ؟ وما عتبُك على من يسرهم أن تزل قدمك ؟ وما حزنك على ضياع مودة كان يجب أن تضيع لأنها في رعاية الضائعين ؟! أمن أجل خلائق مِراض القلوب تُمرض نفسك ؟ أمن أجل إخوانٍ غَدَرة تؤذي قلبك ؟ أهؤلاء وأولئك يستحقون أن تفكر فيهم ساعةً من ليل ؟ وهل

أكرموا أنفسهم حتى يكرموك ؟ وهل أعزوا حياتهم حتى يعزوك ؟ إن حزنك لما صنعوا معك دليلٌ على أنك دائم الإشفاق عليهم ، وقد نصحك الشاعر صادق رستم حين قال :

شرَّ البلية إشفاقٌ على فئةٍ لو كنتَ تؤكل ما عفُّوا ولا شبعوا

تبيتُ تبكي لصرف الدهر يفجعهم ولو رأوك على الأعناق ما دمعوا !

لا تشفق عليهم ، وأشفق على نفسك أيها الغافل عن حقائق الخلائق ؛ فلو أنت استبقيت ما أنفقت من الوقت في صحبتهم لتنفقه في تربية الخنازير ، لكنتَ اليوم من كبار الأغنياء .. وقد نصحك المثَل المصري فما انتصحت ، المثل الذي يقول :

«كل ما تزرع ينفعك ، إلا ابن آدم تزرعه فيقلعك» !

وهؤلاء يحققون صدق هذا المثل أفظع تحقيق ، فهم يقوّلونك ما لم تقل ، ويذيعون عنك أغرب الأحاديث ، وقولهم فيك مسموع ، لأنهم عرفوك ، ومن حق من عرفك أن يقول فيك ما يشاء .

وما ضرَّني إلا الذين عرفتُهم جزى الله خيرًا كلَّ من لست أعرفُ

ما جزَعُك عن غدر صديق ؟ وما حزنُك من لؤم أليف ؟ أنتَ أنتَ ، ولن يكون بلاؤك بأولئك وهؤلاء غير سحابة صيف ، ثم ترجع إلى إسباغ نعمائك على الجاحدين .

تذكَّر يا غافل فضل الله عليك ، تذَّكر أنه عصمك من الجحود حين أغناك عن الناس ، والجحود رذيلة لا يتعرض لها غير المبتَلَيْن بتقبَّل إفضال المفضلين من أهل الكرم المطبوع أو المصنوع .

أنت تتحدث كثيرًا عن الأدب بأدب الله ، فهل تأدبت بذلك الأدب الجميل ؟

إن الله يسبغ نِعمه على الكافرين بعزته السامية ، إن الله يعطي الملحدين

أضعاف ما يعطي المؤمنين ، كما يفعل الأب الرحيم حين يؤثر الابن السقيم على الابن السليم ، فما أنت وذلك الأدب الرفيع .

وأراك تبديء وتعيد في أحاديث البر بأصدقائك ، ولو ناقشوك لأفحموك ، فما قبلوا بِرك إلا حين اطمأنوا إلى أنك رجلٌ كريم ، والكريم غير منَّان .

وما الوقت الذي تقول إنك أغدقته على الجاحدين من إخوانك ؟ لقد دفعوا ثمن المعروف أضعافًا مضاعفة ، لو كنت تنصف ، دفعوه تحيات وابتسامات ، وهي معان تفوق كرائم الأثمان ، ودفعوا ما هو أعظم ، ولو كنت تعقل ، فقد أشعروك بلسان المقال أو لسان الحال انك رجلٌ نفَّاع ، وذلك أعظم ما يوصف به أكابر الرجال .

أنت تمنّ على أصدقائك ؟ فماذا أبقيت للمتجرين بالأخلاق ؟!

كان الظن أن تنسى جميلك إن كنت من أصحاب الجميل ، ولكنك ..

وهنا أفقتُ قليلاً فساءلتُ نفسي عن سبب التفوه بذلك المنّ السخيف :

ماذا أكلت اليوم من الطعام ؟ ومن لقيت من الناس ؟

يحب أن أعرف ما وقع في يومي هذا ، لأعرف سبب السخف الذي وقعت فيه حين مننت على معارفي وأصدقائي في عصرية اليوم – وهو الخامس من شهر آب – كنت أهنئ فلانة بعيد ميلادها السعيد ، وفي لحظة من لحظات الصفا حدثتها أني ولدتُ في مثل هذا اليوم ، فهتفت بحماسة مصحوبة بالحنان :

Nons artivons en meme temps

نعم يا سيدتي ، وثمرات الأعناب في شهر آب

ثم قُلقِلتْ نفسي قلقلة عنيفة حين تذكرتُ أني لا أحتفل بعيد ميلادي كما يحتفل أكثر الناس ، وكيف يتيسر ذلك وأنا أُخلق في كل لحظة خلقًا جديدًا باعتبار ما يَرِدُ على عقلي وروحي من شتيت الآراء والأهواء ؟

وسألتني عما استظرف من هدية الميلاد فأبيت الإفصاح عما أريد ، وإن كنت أشرت إلى أني معجب بدالية مسلم بن الوليد !

وغفلة فلانة عن مدلول هذه الإشارة لم تزعجني ، لأنها قليلة المعرفة بقصائد صريع الغواني !

فما السبب الأصيل لاضطرابي وانزعاجي في هذا المساء ؟

لعل السبب يرجع إلى أني قضيت صباحية اليوم بوزارة المعارف ، وهي مملوءة بالمراوح ، ولتفصيل ذلك أقول :

في مكاتب كبار الموظفين بوزارة المعارف مراوح كهربائية تدور من جانب إلى جانب ، ليقُل خطرها فيما يقال ، وأنا رجلُ يؤذيه البرد الطبيعي أشد الإيذاء ، فكيف يتحمل البرد الصناعي وهو ثقيلٌ ثقيل ؟

أنا لا أخاف المراوح الثابتة ، لأن تجنب تيارها مستطاع وإنما أخاف المراوح الدوارة ، والمراوح التي تغزو الصدور والمفاصل برغم التحرز والاحتراس

وهذه المراوح كثيرة في وزارة المعارف ، وأنا منها في شقاء وعناء ، ولا سيما المروحة الجاثمة بمكتب تفتيش اللغة العربية ومن أجل هذا أوصي زائري بمقابلتي في مكتب الأستاذ على أدهم سكرتير الرجل النبيل شفيق بك غربال ، لأنه مكتبٌ مضنون عليه بالمراوح ليساير الطبيعة في أمان .

وآه ثم آه من المراوح في وزارة المعارف !

إنها تخلق تيارات عنيفة الإيذاء ، وهي السبب في بلبلة بالي في هذا المساء .

وأعجبُ العجب أن المراوح الدوّارة تحتلّ جميع المكاتب الحكومية ، وكأنها النمائم المبذولة بغير حساب ، فأين من يرحمنا من تلك المراوح الباغية ؟ وأين من يعرف أن القيظ في آخر أحواله أروح من البرد ؟

عرفتُ بالضبط والتحديد سبب اعتكاري في هذا المساء ، فما عن لؤم أو

حقد غمزت معارفي وأصدقائي ، وإنما هي جناية المراوح بوزارة المعارف ، وسيأتي يومٌ قريب أو بعيدُ ترفعُ فيه تلك الآصار الثقال .

إن قومًا يعجبون من ثورتي على الناس والزمان ، فهل يعرفون أن المراوح تلفح وجهي في كل مكان ؟

لو صفا دهري لصفوت ، ولو عدَل زمني لعدلت ، واختلالُ الموزون يُخل الميزان.

بمن أثق ؟ وعلى من اعتمد ؟ وما اطمأننت إلى صديق إلا رأيته بعد حين أو أحيان وصوليًا عديم الروح والوجدان . ومع هذا أصفح عن أبناء زماني ، لأنهم أبناء الزمان.

ومع هذا أيضًا أبتسم حين يلقاني فلان وعلان .

فضحكتم يا جماعة المنافقين ، فالتمسوا قلبًا غير قلبي ، وجيبًا غير جيبي ، وانتظروا غضب الله على جميع المرائين .

ثم ماذا ؟

ثم أشير إلى غربتي في وطني بالفكر والروح ، غربة قاسية لا ترحم ولا تلين ، غربة أتوحَّد بها توحُّد الليث في العرين .

مفتاح السر المجهول

لكل موجود قوة حيوية تنفع كل النفع أو بعض النفع في إذكاء روح الوجـود ، وما كان تفاوت الأوصاف يمانع أهل الضعف من القول بأن لهم فضـلاً في إكمـال الصورة الملوَّنة لخريطة الموجودات . وهل عُرِفتْ قيمة الفاضـل إلا بالقيـاس إلى المفضول ؟

ولكنـي لا أريـد لـك أن تكـون إشـارة تكميليـة في الصـورة الوجوديـة ، ولا يرضيني أن يقال إنك على ضعفك مظهر من مظاهر الوجود ، فما أرضى لكل هـذا المصير إلا يوم يصحّ عندي أنك لا تملك تغييـر مـا بنفسـك ، وأنـك لم تُخلـق إلا لتكون شاهدًا على أن الناس درجات ، ومن أين عرفتَ يا جاهل أن الله لم يـرد لـك الصيرورة إلى منازل الأشراف من أحرار الرجال ؟

إنك تستطيع أن تكون عظيمًا حين تشاء ، والعظمـة الحقيقيـة هـي أن تكـون رجلاً نافعًا إلى أبعد الحدود في الميدان الـذي أرادت الطبيعـة أن تقفـك فيـه وقفـة الحارس الأمين ، فتكون أعظم الأدباء والمفكرين إن شئت ، وتكون أكبـر رجـال الأعمال إن أردت ، وتكـون إمامًـا في الصـناعة أو التجـارة أو الزراعـة وفقًـا لمـا خصَّك بـه الله مـن المواهـب الأساسـية ، عـلى شـرط أن تهتـدي إلى مفتـاح السـر المجهول .

فما هذا السر ؟ وما ذلك المفتاح ؟

السر هو نفسك ، والمفتاح هو عقلك ، وإليك أسوق الحديث :

في النفس قُويً غافية تفوق العدَّ والإحصاء ، وهل عرف إنسانُ قيمة ما تنطوي عليه نفسه من أعاجيب البراعة وغرائب القدرة على خلق المستحيل ؟ ! لو عرف بنو آدم أقدار أنفسهم لحوَّلوا الصحاري إلى رياض وبساتين ، وعاشوا من أرواحهم في جنات وفراديس . وكيف وبنو آدم بلا عقول ، كما عبَّر أبو العلاء ؟!

إدرُس نفسك في كل وقت وحاول التعرف إلى ما في قرارها من القُوى الغافية، وتذكَّر يا جاهل أن أكثر العظماء لم يكونوا في بداياتهم إلا نكرات لا تُبشر بشيء ، وتذكر أنك لم تصل إلى غاية بعيدة أو قريبة إلا بعد الاستصباح بالأقباس المكنونة في سرائر نفسك ، فما الذي يمنع من أن تجعل التعرف إلى قواك النفسية والروحية فرضًا من فروضك في صباحك ومسائك ؟

احترس من الغفلة عن نفسك ، فللنفس ومضات تنير أرجاء الوجود . والتأهب للاستفادة من ومضات النفس يزيدها إشراقًا إلى إشراق .

وهل كان ما ترى من الروائع والنوادر والغرائب في آثار الأذواق والقلوب والعقول إلا أثارةً من التأهب لتلقى الوحي الصادر عن ومضات النفس ؟

هي جوهر يشعُ في كل وقت ، فارفع الحجاب عن عينيك لتنتفع بذلك النور الوّهاج ، فإن لم تفعل فأنت مجرم في حق نفسك ، وفي حق وطنك ، وفي حق الإنسانية .

وهل ترى من المستحيل أن تُوفق إلى كشف أفق جديد يزيد ثروة الناس في الفكر والمعاش ؟

جرِّب حظك في محاولة التعرف إلى سرائر نفسك ، فقد تصبح قوة كهربائية تغيِّر ما بحيوات الناس من ألوان وأفانين ؛

وقد تكون لمحة واحدة خليقة بأن تجعل لك مكانًا بين أهل الخلود إن أحسنت التأهب لتلقي ذلك الوحي الجليل .

ولكن متى تحسن فهم أسرار نفسك ، وأنت عنها في شغل بالظواهر الخوادع

من توافه الشئون ؟إن عقلك هو الـذي يهـديك إلى الانتفـاع بـالقُوى المسـتورة في أطواء نفسك ، فهل استهديت عقلك ؟ وهل فكرت في أن أكابر الموهـوبين قـد لا يكون بينهم وبينك من الفروق ما يستوجب أن يتقدموا وتتخلّف ؟

فكّر في مصيرك ، يا جاهل ، فقد يحطك الله في جهنم لأنك لم تحسن الانتفـاع بهدْي عقلك في معرفة قوَى نفسك ، والنفس هي أشرف الأرزاق .

وما النفس وما العقل ؟؟

الذي يهمني هو الاطمئنان إلى أنك تعرف جيدًا أنك خُلقت لغاية غيـر الغايـة التي خُلِق لها إخوانك وزملاؤك ، فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي تختلف فيـه ملامح الوجوه ، ومن الواجب أن تختلف فيه ملامح العقـول ، فمـن أنـت ؟ ومـا صورة وجهك ؟ وما سِمة نفسك ؟ وما صِبغة عقلك ؟

تفرَّد وتوحَّد ، يا خِلقة الواحد المتفرّد . كن أمـةً وحـدك ليرضـى عنـك مـن سوّاك ، فما خلقك إلا وهو يريد أن تكون فريدًا في الصـورة والمـراد ، فهـل تـراني دللتك على مفتاح السر المجهول ، وأنا من البحث عنه في حيرة وضلال ؟

أنا وأنت رفيقان هائمان في بيداء الوجود ، وفي صدري من اللوعـة إلى كشـف المجهول بعض ما في صدرك ، فخذ بيدي كما أخـذت بيـدك ، لنصـل إلى شـاطئ المعرفة واليقين بسلام وأمان ، والله يهديني ويهديك !!

«كاتب»

رسالة القلم البليغ

في ظهر يوم الجمعة الأسبق دعاني أحد الصحفيين تليفونيًّا إلى الإجابة عن أسئلة متصلة بمهمة الكاتب في المجتمع ، وقد أجبت بصراحة لا تحتمل التأويل ، ودعوت ذلك الصحفي إلى مراعاة الأمانة فيما ينقل عني ، فقد طال بلائي بتحريف آرائي ، ثم راعني أن أرى كلماتي مثبتة بدون تغيير ولا تبديل ، كأن ذلك الصحفي كان يدوِّن ما يسمع بالحرف . وإنما نصصت على هذه الأمانة في النقل لأحكم على ما نُشر باسم الأستاذ عباس العقاد ؛ واسم الأستاذ أحمد أمين في هذا الموضع بالذات ، فليس من المعقول أن يحرص ذلك الصحفي على مراعاة الأمانة فيما ينقل عني ثم يمضي فيتزيَّد على هذين الباحثين الكبيرين بلا موجب معقول وعلى هذا يكون عندنا ثلاثة آراء صريحة في تحديد «مهمة الكاتب في المجتمع» فما هي تلك الآراء ؟

يرى الأستاذ عباس العقاد [1] أنه لا يمكن فصل المهمة الثقافية عن المهمة الاجتماعية ، لأن الثقافة تمهد لأن ينظر الناس للحياة نظرة عالية ، والنفوس التي تنظر للحياة نظرة عالية هي النفوس التي تستحق الحياة . ويرى أن يكون الأدب للأدب فلا يكتب الكاتب غير ما يوحي به الطبع وهو يُعنى بالحقائق الخالدة . أما المشكلات التي تتعلق بالطبقات المختلفة ، فهي مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين .

ويرى زكي مبارك أن للكاتب غاية واحدة هي الصدق ، وليست القصة أو

(1) العبارات الآتية ملخصة من الأجوبة المنشورة في مجلة «العزيمة» بالعدد 79 .

المقالة إلا من وسائل التعبير عن ذلك الصدق ويرى أن الكاتب ليس أجيرًا للوطن ولا للمجتمع ، وهو مطلق الحرية في جميع الشؤون ، ويرى أن التعبير عن آلام المجتمع وآماله لا يكون أدبًا إلا إذا صدر عن الكاتب ، فإن اهتم بالمجتمع طاعةً للمجتمع فليس بكاتب . ويرى أن الصراحة الأدبية لا تكون وحيًا إلا إن صدرت عنه بحرارة وإيمان ، فهو يحارب حين يشاء ، ويسالِم حين يريد ومن حقه أن يتحدث عن الشعر والحب ، لأن ذلك يصور إحساسه بالوجود .. ويختم زكي مبارك كلامه بأن الأدب أنواع : أدبٌ محليّ يصوِّر البيئة ، وأدبٌ وقتيٌّ... يصور العصر ، وأدبٌ خالد لجميع الأزمان .

أما الأستاذ أحمد أمين ، فيصرِّح بأن الرأي الذي يقول بأن يكون الأدب للأدب هو رأيٌ سخيف ، وهو لهذا يشغل نفسه بالكلام عن الفقر والمرض والجهل .

تلك هي الآراء الثلاثة ، كما نقلتَّها عن أصحابها مجلة العزيمة في العدد 79 .

فما محصول هذه الآراء ؟ وكيف اختلف أو ائتلف هؤلاء الكاتبون ؟

يرى الأستاذ عباس العقاد أن يكون الأدب للأدب ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن القول بأن يكون الأدب للأدب هو رأيٌ سخيف . (ومن الواضح أن الأستاذ أحمد أمين لا يوجه الكلام إلى الأستاذ عباس العقاد ، لأنه أجاب إجابة موضوعية بدون أن يخطر في باله أنه يعارض هذا الكاتب أو ذاك) .

ويرى زكي مبارك أن غاية الأدب هي الصدق ، لو سار الكاتب وحده في جانب ، وسار المجتمع كله في جانب ، فهو يحاسب أمام ضميره لا أمام المجتمع، وهو أعزَّ من أن يكون صدّى لأي صوت ، لأنه يرى أن صوته هو صوت الوطن ، وأن الوطن حين ينطق يصوتِ غير صوته لا يكون إلا حاكيًا لأقوال محرومة من روح اليقين .

أما بعد ، فهذه مشكلة من أصعب المشكلات ، وللأستاذ عباس العقاد أن

يوضح رأيه كما يشاء ، وللأستاذ أحمد أمين أن يُصرِّ على قوله كما يريد ، أما أنا فأسارع إلى تحديد غايتي الأدبية بلا تسويف ، ليعرف قومٌ كيف أعادِي وأُصادِق في الحدود التي ترسمها «رسالة القلم البليغ» .

وإنما يهمني أن أسارع إلى تحديد غايتي الأدبية ، لأني أحب أن يعرف قرائي وجه الرأي فيما أذهب إليه من الدعوة إلى حرية القلم بلا قيد ولا شرط إلا أن يدعو العقل إلى التلطف والترفق فلا نواجه الناس بما لم يألفوه في بعض الميادين العقلية والروحية والذوقية والاجتماعية .

وما يجوز لك أيها – الكاتب – أن تجادل قومك إلا حين تؤمن في سريرة نفسك بأنك رجلٌ له وجودٌ خاصّ ، وبأن عندك معانيَ لا تجدها عند أحد من أهل زمانك ، وحينئذ تصارح مواطنيك بما يجيش في صدرك ، على أن تكون أنت أنت في كفرك وإيمانك ، وضلالك وهُداك ، فلا تقول ما يحب الناس أن يقال ، ولا تكتم ما يكره الناس أن يباح .

وأعيذك أن تفهم أني أوصيك باللجاجة والعناد ، وأني أدعوك إلى مخالفة قومك في جميع ما يحبون وما يكرهون ...

فما إلى هذا قصدت . ولا يسرني أن تكون أداة انزعاج وانشقاق ، وإنما أوصيك بالصدق في جميع الأحوال ، فإن اتفق رأيك مع رأي قومك فسرّ معهم باطمئنان ، لأن التوافق الإجماعي له دلالة معنوية لا يستهين بها العقلاء ، وهو يزيدك قوة على قوة ، ويُمدُّك بالعصبية الفكرية ، وهي عصبية لا توجد أسبابها إلا في أندر الأحايين ، وتَلاقِي المفكر الصادق مع قومه فرصةٌ من فرص التوفيق .. وبالله نستعيذ من الخذلان !

وإن رأيت أن الحق في جانبك أنت ، وأنت قومك مخطئون ، فتذَّكر أنك لهذا المقام خُلِقت ، وأن الجُبن هو الآفة التي لا يسلم من شرها غير الموهوبين ، وأن الشجاعة هي أعظم مناقب الأحرار من الكتَّاب .

وهنا دقيقة قد تخفى عليك وعلى مَن قلَّ حظهم من التجاريب ، وهي الـوهم الذي يقول بوجوب النضال في جميع ضروب الخلاف . فاحترس مـن هـذا الـوهم كل الاحتراس ، واعلم بأنه لا يجوز لك أن تجاهر بمخالفة قومك إلا في الشـؤون التي يكون فيها سكوتك إثمًا تحاسب عليه أمام الـذي جعـل سـواد المـداد أشـدَّ إشراقًا من بياض الصباح .

إن قومك يختلفون في كل يوم – والاختلاف من أظهر الخصـائص الإنسـانية – فلا تناضلهم في كل خلاف ، والتزم الحياد في أكثر أوقاتك ، إلى أن تحين الفرصة التي توجب الجهر بكلمة الحق ، ولو تعرَّضت لأفظع المكاره والخطوب .

واعلم أنك سَتُبْتلَى بأقوام يرون غير ما تراه في أكثر الشـؤون ، وقـد يـدعونك إلى الترحيب بأن تكون أسير زمنك وأجير وطنك ، بحيث لا تنطق بغير ما يستسـيغ زمانك وبلادك .

وهنا يكون الخوف عليك ، وقد تهوَى إلى أحط دركات الإسفاف ، فما ذلـك شاعر ولا كاتب ولا خطيب إلا بسبب الخضوع لما قد يريـد أبنـاء الـوطن وأبنـاء الزمان ، بلا تدبُّر ولا إدراك . وكيـف تطيـع أولئـك في كـل وقـت وهـم في بعـض أحوالهم فقراء من الوجهة العقلية والروحية ، ولا يساير هواهم غير الضعفاء ؟

وما الغاية من وجودك إذا كنت صورة مكررة من وطنك وزمنك ؟

وبأي حق تحمل القلم إذا خضعت لما يملي عليك العوام وأشباه الخواص ؟

وهل قلت الآراء المنخوبة حتى يضاف إليها رأي من صنفها المنخوب ؟

وما قيمتك وأنت تغنى صوتًا ليس من تأليفك ولا تلحينك ؟

وما قوتك وقد صرت حاكيًّا لأقوال لم تصدر عن وحي ضميرك ؟ وما انتفـاع الأمة بك وأنت صوت يسكبه العهد القديم في أذن العهد الحديث ؟

يجب حتمًا أن تكون لك ذاتية جديدة ؟ذاتية متفردة يجهلها الزمن الماضي ،

ويهابها الزمن الحاضر . يجب حتمًا أن يستقل وجودك في كل يوم عن حاضرك وماضيك ، فتطلُع مع الشمس بنور جديد ، وتواجه الليل بتأملات لم يشاهد مثلها مع قوم سواك . يجب حتمًا أن تنظر في آرائك كما تنظر في أثوابك ، فالآراء تَبلى كما تَبَلى الأثواب ؛ والذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد ، فاحذر من العيش وأنت بالي الآراء ، كما يحذر من يلقى الناس وهو بالي الثياب .

وقد يعيِّرك الغافلون بالتنقل من رأي إلى رأي ، مع أنهم لا يعيرُّون من يلبس ثوبًا بعد ثوب ، وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية ، ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأي الواحد من شواهد اليقين . ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عينٌ بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات ، وكذلك يكون العقل البليد وهو الذي يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات ، ولها وجوه تعد بالألوف وألوف الألوف .

فهل تعقل هذا الكلام ، وأنت تحاول الاضطلاع بحمل رسالة القلم البليغ ؟

وهنا أيضًا مجال للخوف عليك ، فقد يقع في وهمك أن المفكر الحق هو الذي يسرع في التنقل من رأي إلى رأي . هيهات ثم هيهات ! فالرجل لا يغيِّر رأيه إلا بقدر ما يتحول الجبل من وضع إلى وضع . وما كان ذلك إلا لأن الأصل في الرأي أن يكون عقيدة فكرية أو روحية ، والعقائد لا تغيِّر بالسهولة التي تغير بها الثياب . وإذن يجب أن لا تتحول من رأي إلى رأي إلا وقد تحولت من حياة إلى حياة ؛ وهذا قد يقع من لحظة إلى لحظة ، وقد لا يقع إلا بعد أعوام طوال وفقًا لاستعدادك في تلقى وحي الوجود .

والمهم أن تكون أنت أنت في تحولك وقرارك ، فلا تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك ، ولا تكون ظلاً لعظيم من العظماء ، أو حزب من الأحزاب ، إلا إن بدا لك أن تصير من طلاب المغانم ، وهو مصير لا يعاب ، وإن كان يزحزحك عن فردوس البيان ، فما قال قوم بأن الأدب للأدب ، أو الفن للفن Lart

pour Iart إلا وهم يرجون أن تكون لنا دولة لا يتطاول إليها أصحاب المناصب والألقاب .

فما أنت أيها الكاتب وماذا تريد ؟

لن يصح انتسابك إلينا إلا يوم تؤمن بأن للقلم رسالة يطيب في سبيلها الاستشهاد . ونحن قد رحبنا بجميع الآلام في سبيل القلم البليغ . ولو رأيت كيف تقدَّم تلاميذنا وتخلفنا في الميادين الرسمية لعرفت أننا دفعنا ثمن الاعتزاز بدولة البيان .

قد ينُوشك أقوام لا يعرفون كيف توَّحدتَ توُّحد الليث ؛ وقد يسخر منك أقوام يرون الزهد في التودد إلى المقامات العالية ضربًا من الجمود ؛ وقد يوافيك أجلك وليس في جيبك ما يشيعك به أهلك إلى مثواك الأخير ، فما رأيك فيمن يدعوك إلى الاعتصام بالوحدانية الأدبية لتلقى الله وأنت رجل لم يعرف الخضوع لصاحب العزة والجبروت إلا تأدبًا من ذاته العالية ؟

هل تعرف لأي سبب لا ينبغ من أرباب القلم غير آحاد ، ولو كانوا في أمة تبلغ المئات من الملايين ؟

إنما كان ذلك لأن رسالة القلم تشبه الأمانة التي تهيبت حملها السماوات والجبال وهل تعرف لأيّ سبب فَتَر شوق المصريين والشرقيين إلى مسايرة الأقلام العربية ، على نحو ما كانوا قبل أعوام قصار أو طوال ؟

إنما كان ذلك لأن المفكرين صاروا أصحاب منافع ومطامع، فهم يتوددون إلى طبقات المجتمع ليحكموها باسم الغيرة المصطنعة على آمالها الضوائع . ومن هنا قلَّ في هذا العصر من يخاطر بمواجهة تلك الطبقات بالرأي الحق ، لأن ذلك يُقصيه عما يتسامى إليه من المناصب ، ويصوره بصورة من يعادي المجتمع ، المجتمع الذي أسرف في تدليله من زيِّنت لهم الدنيا أن يتسلحوا بسلاح الرياء الاجتماعي ، وهم قومٌ لا تصح نسبتهم إلى المصلحين إلا مع التسامح البغيض .

أين في زمانك من خاطر بمركزه في المجتمع ، كما خاطَر قاسم أمين ؟

وأين في بلدك من رَّحب بتهمة الكفر في سبيل الإصلاح الديني ، كما خاطر محمد عبده وعبد العزيز جاويش ؟

وأين جهود الكتاب المفكرين في هذا الزمان ؟

لقد أصبح من الآفات المألوفة أن يتحكم الجمهور في الكاتب كما يتحكم في المغنَّى . ومن العَجَب أن يتحرر المغني ولا يتحرر الكاتب . فالمغني يضع أمام جمهوره لوحة كتب عليها «ممنوع طلب الأدوار» أما الكاتب فقد عجز عن القول بأنه صاحب الحق المطلق فيما يعالج من الشؤون .

يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان ، الكاتب الذي يرضى بأن يكون أجير الوطن أو أجير المجتمع ؛ فما يكون الرجل كاتبًا إلا إذا شعر بأنه مؤيَّد بقوة روحانية تعصمه من أحلاف الزور والبهتان ، وذلك هو الكاتب المنشود ؛ الكاتب الذي يرغم الدهر على الاعتراف بأنه طاف على أهل زمانه بكأس لم يذوقوها من قبل ، ولم يعرفوا في أي كرمة نَبَغ رحيقها النفيس !!

فمن هؤلاء الذين يحملون الأقلام وليسوا لحملها بأهل ، لأنهم عبيد تلاميذهم من القراء ، ولأنهم يتوهمون أن القلم وسيلة من وسائل النفع الرخيص ؟ من هؤلاء ؟ مَن هؤلاء ؟!

لن تكون كاتبًا إلا يوم يستطيع قلمُك أن يصنع بقارئك ما يصنع الدواء بالمريض ، والدواء قد يزلزل الجسد فيمثِّل له شبح الموت ، ثم تكون العافية ، وكذلك يصنع القلم الصادق ، فهو يزلزل الفكر والعقل والروح ، ثم تكون العافية الفكرية والعقلية والروحية لمن يصلحون للبقاء ، ولا بقاء لغير من يستمعون صوت الصراحة والصدق والإخلاص .

دنيا هذا العصر هي التي أضاعت الكاتب الصادق ؟!

وقد دار رأسي منذ سنين حين سألت أحد كتَّاب باريس عن الهوَّة التي تفصل

بين كتّاب فرنسا المحدثين وكتَّابها القدماء من الوجهة الروحية فأجاب وهو محزون : L,honnetete n ,est plus la mode

وما أشد جزعي لما صرنا إليه ! فالشرف لا يُعْوزنا ، ولكن الشجاعة هي التي تعوزنا ، فنحن بالفطرة شرفاء ، وإنما نحتاج إلى قوة من الحزم والشراسة والإباء . وأقول بصراحة إن الأدب في مصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحون قراءهم، وتلك علامة الغثاثة والهزال ، ومثَلهم في ذلك مثل الطبيب الذي يستشير المريض في وصف الدواء !!

قد تُقبل هذه الحال من الكتَّاب الذين يشتغلون بتسلية الجماهير ليأخذوا أموالهم كما يأخذها «الحاوي» في ساحات «الموالد» .

فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين ؟

«الرأي القائل بأن يكون الأدب للأدب هو رأي سخيف» كذلك قال الأستاذ أحمد أمين ، حفظه الله ! ومعنى كلامه أن يصبح الأدب في خدمة المجتمع ؛ وهو كلام معقول ، ولكني كنت أنتظر أن تكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع ، لا حُسن الطاعة في خدمة المجتمع ، فالمجتمع مريض ونحن الأطباء ، ولو كره الخوارج على سلطان القلم البليغ .

يستطيع الأستاذ أحمد أمين أن يستوحي قراءة سبعين سنة أو ثمانين أو تسعين، ثم يلقاني بعد ذلك ، إن عشت وعاش ، فلن يكون محصوله الفكريَّ والأدبيَّ غير أوشاب جمعها من أوهام القراء .

أيكون الأستاذ أحمد أمين فهم أن «الأدب للأدب » معناه أن يكون جهد الأديب مقصورًا على وصف الأزهار والرياحين ، والأقمار والشموس ؟

إن كان ذلك ما فَهم فأين صرخة العقل المقدود من ضمير الوجود ؟

وأين الأقباس الروحية التي نستعين بها على كشف المجاهيل من سرائر

القلوب والعقول ؟

الكاتب يُعنى بجميع الشؤون ، فيتحدث عن الغنى والفقر والصحة والمرض والعلم والجهل ، على أن يكون انفعل بهذه المعاني ، بحيث تصير من الغايات التي تشغل روحه الموهوب ، وبحيث يكون الاهتمام بـالمجتمع غرضًـا مـن أغراضـه الصحاح .

أما القول بأن يكون قلم الكاتب أجيرًا للمطالب والوطنية والاجتماعيـة فهـو قولٌ مردود ، ونحن أول من يرفع راية العصيان ، فلن نخـدم الـوطن إلا طـائعين ، ولن نعترف للوطن بأي حق إلا إذا اعترف بأننا أصدق أبنائه الأوفياء .

وماذا بقى لمصر الفرعونية والإسلامية بعد المسطور من آثار القلم البليغ ؟

وبأي حق صار لمصر سلطانٌ أدبيٌّ في الشرق لهذا العهد ؟

تلك جهود أقلامنا وأقلام أسلافنا ، فمن خضع لصوت الحق واعترف بأن ما بذلناه لخدمة مصر والشرق كان عمـلاً تُنصـب لـه المـوازين فهـو رجـلٌ صـادق الإيمان ، ومن جهل حقنا فهو صائرٌ لا محالة إلى القرار في هُوَّة العقوق .

الأدب للأدب ، كما يقول العقاد .

والفن للفن ، كما قال بعض أقطاب الفرنسيس .

والأدب هو الصدق ، كما قال الرجل الذي تعرفونه .

فمتى تعترف الدولة الرسمية بالدولة الأدبية ؟

البقاء للحق . البقاء لبياض القرطاس وسواد المـداد ، ولـن يـتخلى الله عمـن يرى الصدق في الحب والبغض هو الغاية من شرف الوجود .

هذه داري وهذا وطني
ولكن أين أحبابي ؟

هذه داري ، الدار التي أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبي آفاق المجهول من عوالم المعاني .

وهذا وطني ، الوطن الذي عانيت من أجله ما عانيت ولم أخنه في سر ولا جهر ولم يرمني غير الصدق والوفاء ..

هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبابي ؟

من كان يظن أني أقضى الأيام والأسابيع ، فلا أجد من يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال ؟ من كان يظن أني لا أجد أنيسًا غير بريد بغداد على بعد ما بيني وبين بغداد ؟

من كان يظن أني أحبس نفسي في داري ليالي وأيامًا فلا يسهد لعزلتي جفن ولا يحزن قلب ولا يرتاع وجدان ؟

من كان يظن أني لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد ، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد ، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين ، وسكت من أهواهم في المنصورة وأسيوط ؟

من كان يظن أني لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد ؟

وما فائدتي من عبور ذلك الشارع المتموج ؟

كان لي في القاهرة هوى معبود فتبدد وضاع ، كانت ليلاي في الزمالـك ، فـأين ليلاي وأين الزمالك ؟

أنا أطفئ المصباح في منتصف الليل ، وافـتح النوافـذ لأري كيـف يهـيم نـور القمر فوق رمال الصحراء ، فماذا تصنع ليلاي بالزمالك أو ليلاي بالعراق ؟

***

أيتها الصحراء

إن حالك مثل حالي موات في موات ..

وقد تمر فوق ثراك الميت هوام وحشرات .

وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هـوام وحشـرات هـي السـخرية مـن النـاس ، واليأس من صلاح القلوب ، وجمال الوجود .

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب !

أما قلبي فقد اضمحل إلى الأبد ولن ينبت فيه شيء .

وأشقى الناس من يعيش بقلب أجدب من الصحراء .

***

أيها الليل !

هل رأيت في دنياك من ينافسك في ظلامك غير قلبي ؟

هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاء مثل شقائي ؟

أيها الليل !

خذ السواد من قلبي ، إن أعوزك السواد .

خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحقاب المقبلات .

خذ مني ما تشاء ، أيها الليل ، فلن تجد مشتهاك عند إنسان سواي .

خذ مني ما تشاء بلا من عليك : فما أخذت السواد إلا منك ولا ورثت الظلام إلا عنك ومثلي يحفظ الجميل .

***

أيها الليل !

لا تجزع من العزلة ، فأنا أسامرك وأناجيك .

لا تفزع من الوحدة ففي قلبي ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات .

عندي آلامي ، وعندك آلامك . والجريح يأنس بالجريح ، يا ليل !

أنا أعرف من أنا في دنياي ، فمن أنت في دنياك ، يا ليل ؟

أنت جزء من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه .

إن شمسي تغرب في الزمالك أو في بغداد ، فأين تغرب شمسك ؟

إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك .

وشمسي تغرب فلا ترجع .

فليت حظي كان مثل حظك ، يا ليل !

والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك .

وأنا أعاني الظلام المطلق حين تغيب الشمس التي تعرف .

فليت حظي كان مثل حظك يا ليل !

وأنت باقٍ على الزمان ، وأنا صائر إلى الفناء .

فليت حظي مثل حظك يا ليل !

والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح .

وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحد إليّ بشيء .

فليت حظي كان مثل حظك يا ليل !

من اسمك يا ليل جاء اسم ليلي ، ففيها طغيانك وفيها ظلامك ، فلا عفا الحب عنها ولا عفا الله عنك !

***

هذه داري ، وهذا وطني ، ولكن أين أحبابي ؟

إن قلبي يستحق التأديب ، فليتلق من الضيم ما هو له أهل :

ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد ، فسكت عنها سكوت الغادرين ؟

ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين ؟

ألم تنتقل إليه الغادة النور مندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة . محافظة على سمعته بين الناس ؟

إن قلبي يستحق التأديب فليتلق من الضيم ما هو له أهل .

أيها الليل !

قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحي ؟

لك خلاص من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتي ؟

ستمضي لشأنك وتتركني، يا ليل !

إن الظلمات تقتل شبابي ، وتحيي شبابك .

إن الظلمات تصيرك أقوى وأعنف ، وتصيرني أرق وألطف ، والرقة واللطف من بواكير الفناء.

أيها الليل !

لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني .

أما بعد ، فأنا أعترف بأن قلبي يستحق التأديب .

كنت أصم أذني عمن يسألون عني في باريس وفي بغداد ، لأفرغ لما سموه الواجب ، فليتني أجبت الدعوة في باريس وفي بغداد لآخذ ذخيرتي من الحب والعطف !

ليتني صنعت وصنعت ، ولكن هيهات ، فقد فات ما فات !

أيها الليل في مصر الجديدة !

أنا على كل حال رفيقك وأخوك .

وستمضي الأعوام والدهور ، ولا تعرف أصدق مني .

***

سيذكرني الناسون حين تروعهم ... صنائع من ذكرى هوى وشهود

فوالله ما أسلمت عهدي لغدرة ... ولا شاب نفسي في الغرام جحود

ولا شهد الناسون مني جناية ... على الحب إلا أن يقال شهيد

***

إلى متى الصوم يا قلبي ... !

قلبي !

كيف أصبحت ؟ وكيف أمسيت ؟ فما عدت أسمع خفوقك في صباح ولا مساء !

صام الناس منذ أيام ، فتذكرت صيامك .

إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون ، وأنت يا قلبي تصوم ليلك ونهارك ، وأخشى أن تصوم دهرك .

وسينقضي صيام الناس بعد أسابيع حين يجئ العيد ، وتبقى وحدك بلا عيد .

أتسمع يا قلبي ؟

لقد كان شهر الصوم فرصة لمن تعودوا في مثل هذا الموسم أن يقيموا مناحة على الآداب ، وملطمة على الأخلاق .

وصومك يا قلبي هو الجدير بأن أذرف عليه غاليات الدموع .

ولو كان لصومك نهاية لتعزيت وتأسيت ولكني أعرف أن بلاءك بالصوم سيطول ، ويؤذيني أن أعرف بأني لا أملك رجعك إلى ملاعب هواك .

وكيف أملك ذلك وقد شاركتك في صيامك ؟

أما رأيت يا قلبي كيف تمضي الليالي والأيام وأنا مبلبل الخواطر لا أعرف غير بياض القرطاس وسواد المداد ؟

قلبي !

إن بعض الناس ينافقون فيفطرون في السر ويصومون في العلانية ، وقد استوى سرك وجهرك فألفت الحرمان من أطايب الحسن وغرائب الجمال .

كنت أنتظر أن أصير شاعرًا على حسابك ، فأين أنت يا قلبي ؟

كنت أطير إلى دنيا المجد والحب بجناحك ، فماذا صنع الدهر بجناحك ؟

كانت القاهرة لا تسعني في ليالي رمضان ، وكنت أملأ المحافل والأندية بالجدل والضجيج ، وأنا اليوم لا أعرف غير القرار في بيتي لأداوي جراحك يا أشرف جريح ، فمتى يعود إليك نشاطك لأصاول بك الدنيا والناس ؟

يعز عليّ يا قلبي أن أصبح بالرغم مني حكيمًا من الحكماء .

اعترف أيها القلب الصائم بأنك بالرغم مني أصبحت حكيمًا من الحكماء .

اعترف ، أيها القلب الصائم ، بأنك تخذل نصيرك وأخاك .

اعترف أيها القلب الصائم بديوني عليك .

ألم أخرج على تقاليد المجتمع مليون مرة ومرة من أجلك ؟

ألم أضيع ألوف المنافع في سبيلك ؟

فما الذي يضيرك يا قلبي لو تركت صومك يومًا أو بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة أو لحظتين ؟

لقد شمت الشامتون بالشاعر الذي يعيش في مصر الجديدة ولا يرى مصر الجديدة ، ويخترق شوارع القاهرة ولا يحس جمال القاهرة ويدخل عليه رمضان فلا يحتاج لزيارة صديق أو استقبال حبيب .

كنت أرى الدنيا بك يا قلبي، فأين أنت يا قلبي ؟

أين أنت؟ حدثني أين أنت؟ فقد ذهب صيامك بهيامي، وقضى على عنفواني .

قلبي !

لقد تحطمت معاول الأعداء وعجزوا عن هدم بنياني ، فكيف تهدمني أنت ؟

أحب أن أعرف كيف شاءت المقادير أن لا أرى المتاعب والمضجرات إلا على يدي من أحب ؟

لقد بدأت أبغضك يا قلبي ، ولكن يعز عليّ أن تعيش بلا صديق ، فإن بقيت بجانبك أعطف عليك وأواسيك فاعرف أن ذلك بقية من كرم الوفاء .

قلبي !

إلى متى الصوم يا قلبي ؟

إن الناس يصومون ليلقوا من الله حسن الجزاء ، وصيامك يا قلبي من أشنع الذنوب ، فاعترف بذنبك يا غافل ، وأجرح صيامك بنظرة أو نظرتين قبل أن تطويك الأيام فلا ينصب لخفوقك ميزان .

وموعدنا إن شئت طغيان الفتون حيث تعرف وأعرف.. هل فهمت ؟

أما أنا فسأسوقك إلى حيث أريد ، وإن أبيت وتمردت ، وإلى اللقاء في مساء الخميس .

***

وبعد يومين من ظهور هذا المقال مررت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف فنبهني الأستاذ محمد بيلي الفار إلى أن سعادة العشماوي بك سأل عني ، فطربت بحيث أستطيع الإنفاق بسخاء على مرضاي من الملاح .

وما كدت أدخل على سعادة العشماوي بك حتى نهض واقفًا فكيف خرج هذا الرجل على «التباله» الذي عرف به حين يستقبل الزائرين ؟

كيف يقف هذا الرجل لاستقبالي وبيني وبين مكتبه خطوات طوال ؟

دكتور !

مولاي !

لقد أعجبتني مقالتك في جريدة المصري .

أو قرأتها ؟

أنا أقرأ كل ما تكتب : لأنك من ذخائرنا الأدبية .

ومن أجل هذه المقالة تسأل عني ؟

أنا أسأل عن صحتك الغالية .

أجزل الله ثوابك، يا سعادة الوكيل !

– اسمع يا دكتور نحن في السنة الماضية حشدنا إلى بغداد مؤتمرًا طبيًا عربيًا لمداواة ليلى المريضة في العراق ، فما رأيك إذا عقدنا المؤتمر الطبي العربي في هذه السنة بالقاهرة لمداواة طبيب ليلى .

دوائي عند ليلاي ، يا سعادة الوكيل ، لا عند الأطباء .

إنك رفضت السفر إلى العراق وفيه شفاؤك .

أنا رفضت السفر إلى العراق لأني :

أخاف العيون السود فليرحم الهوى .

فجيعة أهلي يوم أقضي وأبنائي

نعدل الغرض بعض التعديل

وكيف ؟

ندعو المؤتمر الطبي للانعقاد بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى .

لا بأس .

وما هي إلا لحظة حتى كان السيد على مراد ينسخ خطاب العشماوي بك إلى الدكتور على باشا إبراهيم يوصيه بعقد المؤتمر الطبي الحادي عشر بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى ، هداه الله وشفى ليلاه !

***

أمن أجل مواساتي ينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة ؟

هو ذلك أو هذا هو ، كما يعبر أهل بغداد .

بفضلك يا ليلى صرت شخصية عالمية .

بفضلك يا ليلى رفعني الحب درجات .

بفضلك يا ليلى صرت في وطني من الأطفال المدللين .

أحبك يا ليلى ، فاذكريني بالشعر والدمع يوم أموت .

***

سينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة لمواساتي .

الله أكبر ، ولله الحمد !

وماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء ؟

أنا أعرف العواقب ستغلف مؤلفاتي من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين ، وسوف يعلمون .

الفناء لأعداء الآداب والفنون .

أما طبيب ليلى فله الخلود .

أرباه أنقذني فأنت رميتني .

بقلب على عهد الأحباء بكاء .

أرباه لا تفعل فإني أرى الهوى .

على وقده بالقلب أنفاس روحاء .

تباركت ما الجنات من دون لوعة .

سوى بقعة في غابة الموت جرداء .

***

تداويت من ليلى بليلى من الهوى .

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر .

وكذلك أداوى حبًا بحب ، وغرامًا بغـرام : كمـا كـان يصـنع زمـيلي قـيس في الأيام الخوالي .

إن ليلاي بالعراق مغفورة الذنوب : لأنها أوحت إلى قلمي فنونًا من الغرائب ، وقد رقمت اسمي بأحرف من نور فوق جبين الزمان .

فما حجة ليلاي بالزمالك في تجنيها الأثيم ؟

فما حجة هذه اللئيمة في سفك دمي ، وقد أذعت محاسنها عند صـبايا دجلـة والفرات ؟

كنت أتشهي أن أرى النور المتوهج في جبينها المشرق .

كنت أتشهي أن ألهو بها في ليلة قمراء بطريق السويس .

كنت أتشهي أن أقضي معها سهرة في زورق يترنح فوق أمواج النيل .

كنت أتشهي أن أخاصرها في بساتين الجيزة الفيحاء .

كنت أتشهي أن نهيم على وجوهنا في حي القصر العالي الذي يسـميه الجهـلاء (جاردن سيتي) .

كنت أشتهي أن أرى معها البيت الذي كنا اصطفيناه بحدائق القبة .

كنت أتشهي أن أهصر فوديها بحي الزيتون .

كنت أتشهي أن نغرق معًا في النيل عند القناطر الخيرية .

كنت أتشهى أن أرى وجه الله في وجهها الجميل .

ولكن من الذي يدرك كل ما يتمناه ؟

أنا أعيش بروح سماوية وهي تعيش بروح أرضية، مع أنها حورية نزلـت إلينـا من الفردوس .

إن ليلاي بالزمالك لا تعقل ، لأنها حسناء ، والحسن يغري بالجنون .

سأحاربها بقلمي ، كما حاربت انجلترا بقلمي .

وأنا رجل يحارب الظلم في جميع الأشكال .

وكذلك أنشر الرسائل لأفضح ليلى المريضة بالزمالك ، ولأجعلها عبرة لغادات المعادي وحلوان .

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.